رواية

سيمون دو بوفوار

المرأة المُحَطمة

مكتبة ٦٦١

ترجمة: محمد فطومي

لرفيقة الحياة والكتب (ع. ن.)

مكتبة | 661
سُر مَن قرأ

المرأة المُحَطّمة -

سِنُّ التعقُّل - مونولوج

رواية

Author: **Simone de Beauvoir**	اسم المؤلف: سيمون دو بوفوار
Title: **La Femme rompue précédé de L'Âge de discrétion et de Monologue**	عنوان الكتاب: المرأة المُحَطّمة - سِنُّ التعقُّل - مونولوج
Translated by: **Mohammed Fattomi**	ترجمة: محمد فطومي
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2020**	الطبعة الأولى: **2020**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Éditions Gallimard, Paris, 1967

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

٢٠٢١٢٨

مكتبة

t.me/t_pdf

سيمون دو بوفوار

مكتبة | 661
سُر مَن قرأ

المرأة المُحَطّمة - سِنُّ التعقُّل - مونولوج

ترجمة : محمد فطومي

مقدّمة المترجم

(المرأة المُحطّمة - سيمون دو بوفوار)

«المرأة المُحطّمة»، ثلاثيّة روائيّة قصيرة مثّلت علامة فارقة في عالم سيمون دو بوفوار الإبداعيّ، حيثُ قطعت بها مع كتابة السّيرة للمرّة الأولى، لتدخل عالم المُتخيّل، عالم الآخرين من وجهة نظر مُحايدة. ولئن بدا أنّ الكاتبة قد فسحت المجال لثلاثة نماذج من النّساء للتّعبير عن أنفسهنّ بحرّية وحياد كما أسلفنا، فإنّها في الواقع قد منحتهنّ قلمها وهمومها لتُبدي من خلالهنّ رأيها في الوجود وفي أعداء المرأة الثّلاثة: المُجتمع والأخرى والسنّ.

جراحة دقيقة نجحت فيها سيمون دو بوفوار بأسلوبها السّلس والسّهل والعميق، وبفلسفتها الملموسة المُتاحة للجميع. هي روايات قصيرة لكنّها قاسية ومؤثّرة للغاية، حاولت فيها المرأة وبكت وتوعّدت وتمزّقت وخارت قواها وقاومت وانهارت في الأخير، لكن لا تهرب أيّها الرّجل، هذه ليس كتابة نسويّة مبتذلة حيثُ المرأة تصرخ في سعار غير مفهوم مطالبة بالألوهيّة على الأرض، نحنُ إزاء واحدة من أعظم وجوه الثّقافة الفرنسيّة، التي لم تكتسب لقبها محاباة أو مجاملة، بل لأنّها كشفت للمجتمع وللمرأة على وجه الخصوص عيوبها وجانبها من المسؤوليّة في فشلها أو عجزها أو تشييئها. لقد تحدّثت عن العلاقة الزوجيّة، ما يعني أنّ الرّجل سيجد نفسه أيضاً في هذه الرّوايات، سيرى نفسه بعيون

نسائيّة، سيكتشف أنّه رجلٌ لأنّ المرأة في الوجود، فكأنّ نجاحه ورغباته وثراءه وقوّته ميّتة بلا روح لولا المرأة. فهي التي إن شاءت كانت السّائل الذي يتّخذ شكل الإناء أو الخزّاف الذي يحدّد للإناء شكله. ألم تقل دو بوفوار في إحدى المناسبات عبارتها الشّهيرة: «نحنُ لا نولد نساءً، نحن نصبح كذلك»، ما يعني أنّ كلمة امرأة ليست مجرّد تمييز جنسي سطحيّ، بل صفة إنسانيّة واستحقاقاً وإنجازاً، قد ينجح وقد يفشل كأيّ إنجاز آخر. كاتبة بهذا الوزن والوعي بالطّريقة المثلى لتوعية النّساء، لن تسقط في المرافعة والدّفاع عن حقوق المرأة من خلال التحدّث نيابة عنها، بل بنقدها وجعلها تكتشف أخطاءها وحثّها بسحر المحاكاة القصصيّة على مراجعة طريقتها في التّفكير. وشخصيّاً لا أرى أبلغ للفكرة من أن تجعل فئتك المُستهدفة ترى نفسها وهي تضطرب على مسرح الحياة.

في الرّواية الأولى: «سنّ التعقّل» امرأة في سنّ السّتين، كاتبة مُثقّفة، وسعيدة، أحيلت على التقاعد حديثاً من وظيفة التّدريس في الجامعة، أمّ لابن وحيد، وهنا تكمن المشكلة حيثُ سـ«يخون» هذا الابن الصّورة التي رسمتها له أمّه، سيرمي وراء ظهره كلّ الأفكار التي طالما اعتقدت أنّه يشاطرها إيّاها، وبزواجه ستدخل الأمّ في دوّامة من العدائيّة تجاهه وتجاه زوجته، بل وستطال زوجها ومحيطها وستزداد الأمور سوءاً والأجواء اختناقاً عندما لا تلقى روايتها التّرحيب من قبل النّقاد والأصدقاء.

الرّواية الثّانية: «مونولوج» هي حكاية امرأة فقدت ابنتها قبل خمس سنوات بسبب انتحارها المفاجئ وخسرت زوجها وبيتها. على امتداد صفحات طويلة ستسكب هذه المرأة حقدها على المجتمع دون أن تخفي مساهمتها في تحوّل حياتها إلى حُطام.

أمّا الرّواية الثّالثة والتي اختارت سيمون دو بوفوار أن تسمّي بها كتابها فهي: «المرأة المُحطّمة»: هو دفتر مُذكّرات تُدوّن فيه امرأة يوميّاتها متحدّثة عن عالمها الذي يدور حول زوجها. هذا الزّوج الذي سيخونها مع امرأة أخرى دون أن يتخلّى عنها، سيخبرها بذلك كأنّ الأمر لا

يخصّهما، وستتعامل هي مع الموقف كأنّها تنصح امرأة أخرى. هي فعلاً حكاية غريبة لم نألفها في قصص الخيانة، حيثُ الزّوجة تحاول استعادة زوجها بشتّى الطّرق متّخذة من الأخرى حقيقة «جديرة بالاحترام» ومن حياتها الجديدة مسرحاً لمنافسة «شريفة» هنيئاً فيها للأفضل. من خلال حربها لاستعادة زوجها بالكامل ستستعرض ماضيها معه، وأفكارها، وأسرارها، وستعترف بأخطائها، وستحاول تدارك ما فاتها. وستقدّم لنا نموذجاً استثنائيّاً وجامعاً عن المرأة التي تعتقد أنّ الزّوج ينظر إلى المرأة بعينيْها والتي لن تفهم أنّ الأحرى هو أن تنظر إلى نفسها بعيْنيْه إلّا عندما يوشك كلّ شيء على الانهيار.

عن هذه الرّوايات القصيرة التي تعرف كيف تحتفظ لنفسها بحيّز في الذّاكرة أقول إن ديوفوار استطاعت شقّ طريق مُعبّدة في أرض وعرة، ألا وهي أرض تشارك الحياة، هي طريق مُعبّدة مُيسّرة للقارئ، هذا صحيح، لكن بأيّ ثمن؟ بأعنف ما قد يُذَكِّرُ به من مرارة مُسلّطة على الإنسان: استحالة العودة إلى الوراء.

مكتبة
t.me/t_pdf

سِنُّ التعقُّل

هل توقّفت ساعتي؟ لا. لكن لا يبدو أنّ العقارب تدور. ألّا أراقبها. ينبغي التّفكير في أمر آخر، أيّ شيء: في اليوم الذي خلّفتُه ورائي، هادئاً ومُعتاداً رغم تململ الانتظار.

عذوبة الاستيقاظ... كان «أندريه» منكفئاً في سريره، شاخص العينين، متّكئاً بيده على الجدار بحركة طفوليّة كما لو أنّ الاضطراب في النّعاس يستدعي تضامن العالم. جلستُ على حافّة السّرير، وضعت يدي على كتفه. أزاح عصابة رأسه، وارتسمت ابتسامة دهشة على وجهه.

- إنّها الثّامنة.

جهّزت طبق الإفطار في المكتبة؛ تناولتُ كتاباً تلقّيتُه البارحة وتصفّحتُه حتّى النّصف. كم هي مملّة كلّ هذه الأحاديث المكرّرة عن عدم التّواصل! لو حرصنا على التّواصل لنجحنا في ذلك دون شكّ. ليس مع الجميع، طبعاً، مع اثنين أو ثلاثة أشخاص. يحدُث أن أمنع عن أندريه التّعبير عن مزاجه، بعض النّدم، هموماً مختلفة؛ مؤكّد أنّ لديه أسراره الصّغيرة، لكن عموماً نحن لا نجهل شيئاً عن بعضنا بعضاً.

سكبتُ في الفناجين شاياً صينيّاً ساخناً وأسوَدَ جدّاً. احتسيناه ونحن نقرأ بريدنا؛ أشعّة جوييه/ تموز تدفّقت إلى الغرفة في دفعات. كم مرّة جلسنا إلى هذه الطّاولة وجهاً لوجه، أمام أكواب شاي ساخن جدّاً وأسوَدَ جدّاً؟ غدٌ آخر، خلال سنة، خلال عشر سنوات... كان لتلك اللّحظة عذوبة الذّكرى وبهجة الوعد. هل لدينا ثلاثون سنة أم ستّون؟ ابيضّ

شعرُ أندريه مبكّراً: كان ذلك نوعاً من التغنّج فيما مضى، ذلك الثّلج الذي يصبغ السّواد بلونه. ما زال فخراً. تصلّبت البشرة وأصبحت مشقوقة، وجلد قديم، لكنّ ابتسامة الفم والعينين حافظت على ألقها. رغم صور الألبوم التي تقول العكس، فإنّ صورته في الصّغر ظلّت تشبه ملامحه الحاليّة: لم تحدّد نظراتي سِنَّه. حياة طويلة حافلة بضحكات طويلة، بالدّموع، وبالسُّخط، وبالعناق، وبالأمنيات، وبالصّمت، وبالاندفاع، ويُخيّل إليَّ أحياناً أنّ الوقت لم يمضِ.

ما زال المُستقبل ممتدّاً إلى ما لانهاية. نَهَض:

- عملاً مُوفّقاً، قال لي.

- أنتَ أيضاً: عملاً مُوفّقاً.

لم يرُدّ. مع مثل هذا النّوع من البحث، تأتي فترات يمشي فيها المرء دون أن يتقدّم؛ لقد بات يركن إلى الخنوع بشكل أيسر من ذي قبل.

فتحتُ النّافذة. تفوح من باريس رائحة الإسفلت والعاصفة، وهي ترزح تحت حرارة صيف ثقيلة. تعقّبتُ نظرات أندريه. إنّه يكون موجوداً بالنّسبة إليَّ ببداهة مُذهلة، في الأوقات التي أراه يبتعد فيها؛ تضاءلت القامة الفارعة، راسمة في كلّ مرّة طريق عودته؛ اختفت؛ يبدو الشّارع خالياً، لكنّه في الحقيقة حقل جاذبيّة يقوده إليَّ كما لو أنّه يمضي نحو بيئته الطّبيعيّة؛ هذا اليقين يؤثّر فيَّ أكثر من حضوره.

بقيتُ وقتاً طويلاً في الشّرفة. اكتشفتُ قطعة كبيرة من باريس من الطابق السّادس، تحليق الطّيور فوق أسقف حجريّة، وأصص الزّهور المُزيّفة التي هي مداخن. حمر ـــــ خمس، تسع، عشر، أحصيتُ عشراً ـــــ تحجب السّماء بذراع من حديد؛ على اليمين، ارتطم نظري بجدار عالٍ مليء بالثّقوب: بناية جديدة، رأيتُ أيضاً قلاعاً سداسيّة، وناطحات سحاب حديثة البناء. منذ متى أصبحت أرض شارع «إدغار-كيني» المطرحة موقف سيّارات؟ زمن هذا المنظر الجميل يقفز إلى عينَيَّ: رغم أنّي لا أذكره على نحو مختلف. أحبّ أن أتملّى

الشّريطين معاً: قبل وبعد، وأن أندهش من التغيّر. لكن لا. العالم يُخلَق تحت عينَيَّ في خلود اللّحظة الحاضرة؛ أعتاد بسرعة هذه الوجوه التي لا تبدو لي قد تغيّرت.

على طاولتي، الملفّات والأوراق البيض تدعوني للعمل؛ لكنَّ الكلمات التي ترقص في رأسي تمنعني من التّركيز. «سيكون فيليب هنا هذا المساء». شهر من الغياب تقريباً. دخلتُ إلى غرفته حيثُ تنتشر كتبه بعدُ، وأوراق، ومعطف رماديّ قديم، وبيجاما بنفسجيّة، هذه الغرفة التي لا أعيد ترتيبها ليس لأني لا أملك الوقت، أو المال، بل لأني أرفض التّصديق بأنّ فيليب لم يعد لي. عدتُ إلى المكتبة التي تضوع فيها رائحة باقة ورد كبيرة وسخيفة كأنّها خسّ. استغربتُ كيف لم تبدُ الشقّة في نظري كصحراء. لا شيء ينقص. داعبت نظراتي الألوان الحامضة والحنون للوسائد المُبعثرة على الكنبات. الدُّمى البولونيّة، واللّصوص السلوفاك، وكانت الدّيكة البرتغاليّة تشغل أماكنها برصانة. «سيكون فيليب هنا...» بقيتُ حائرة. الحزن، في وسعي دائماً أن أبكي. لكنّ ولعي بالسّعادة، ليس من السّهل دائماً معالجته. قرّرت الذّهاب لاستنشاق رائحة الصّيف. كان هناك رجل أسود طويل القامة، يرتدي معطفاً واقياً أزرق وقبّعة رماديّة، يكنسُ الرّصيف بسأم: فيما مضى، كان جزائريّاً بلون الجدار. حوّلتُ نظري ناحية حشد من النّساء في شارع «إدغار-كيني». وبما أنّي لا أخرج في الصّباح، بدا لي السّوق دخيلاً (صباحاً، هناك كمّ من الأسواق تحت كمّ من السّماوات). عجوز قصيرة تترنّح من جانب إلى آخر، وخصلات شعرها إلى الخلف، وتمسك بحقيبة فارغة. فيما مضى لم أكن أهتمّ بالمُسنّين؛ كنتُ أعتبرهم أمواتاً بأرجل ما زالت قادرة على المشي؛ الآن أراهم: رجالاً، ونساءً، أكبر منّي بقليل، هذا كلّ ما في الأمر. هذه بالذّات صادفتها عند القصّاب تطلب فضلات لقططها. «لقططها! قال عندما غادرت. ليس لديها قطط. ستطهوها في المرق!» بدا له ذلك مُضحكاً. قبل قليل كانت تجمع القمامة التي لم يدفع بها الأسود إلى السّواقي بعد.

أن تعيش بمئة وثمانين فرنكاً في الشّهر: إنّهم أكثر من مليون يعيشون مثل وضعها؛ وثلاثة ملايين آخرين بالكاد لا يورثون.

اشتريتُ فواكه، وزهوراً، بذّرتُ. لا فرق بين أن تكون محالاً على التّقاعد وبين أن تكون حثالة، تجمّدني الكلمة. يرعبني الفراغ الممتدّ أمامي. كنتُ على خطأ. الوقتُ أعرضُ من كتفَيَّ، لكنّي أبلي جيّداً كي أجد المخرج. وأيَّ متعة في العيش دون تعليمات، دون ضوابط! أحياناً يتملّكني خدر. أذكرُ وظيفتي الأولى، وفصليَ الأوّل، والأوراق الميّتة التي كانت تصدر خشخشة تحت أقدامي في الخريف الرّيفي. بدا لي يوم إحالتي على المعاش - الذي يفصلني عنه زمنٌ أطوَلُ، أو يكاد يكون أطول من حياتي السّابقة - غير حقيقيّ تماماً كالموت نفسه. وها هي سنة تنقضي. تجاوزتُ خطوطاً أخرى، لكنّها باهتة أكثر. لديها صلابة بوّابة حديديّة.

عدتُ. جلستُ إلى طاولتي: بدا لي ذلك الصّباح السّعيد، مملّاً دون عمل. عند الواحدة وقفتُ كي أجهّز الطّاولة في المطبخ: كمطبخ جدّتي، في «ميلي» - أشتاق إلى رؤية «ميلي»- بطاولة الضّيعة التي تتوسّطها، ومقاعدها، ونحاسها، والسّقف ذي الدّعامات المرئيّة؛ فقط، لديّ فرن بالغاز بَدَلَ الموقد، وثلّاجة. (متى ظهرت الثلّاجات في فرنسا؟ اشتريتُ ثلّاجتي منذ عشر سنوات، لكن حينها كانت بضاعة رائجة. منذ متى؟ قبل الحرب؟ بعدها مباشرة؟ أمر آخر من تلك الأشياء التي لم أعد أذكرها).

وصل أندريه متأخّراً، لقد أعلمني: لدى خروجه من المخبر اضطُرَّ لحضور اجتماع حول قوّة الضّربة. سألتُ:

- هل تمّ كلّ شيء على أحسن وجه؟

- توصّلنا إلى اتّفاق جديد. لكنّي لستُ واهماً. لن يكون له صدى أكثر من الآخرين. سيُعرض عنه الفرنسيّون. عن قوّة الضّربة، وعن القنبلة النوويّة عموماً، عن كلّ شيء. أحياناً أرغب في الهجرة بعيداً: إلى كوبا، أو إلى مالي. لا بالفعل، أنا أحلُم بذلك. هناك على الأقلّ قد يصلح المرء لشيء ما.

- لم تعد قادراً على العمل.

- الأمر ليس بهذا السّوء.

وضعتُ السّلطة على الطّاولة، والجمبون، والجُبن، والفاكهة.

- أنتَ مُحبَط إلى هذه الدّرجة؟ هذه ليست المرّة الأولى التي تدور فيها في حلقة مفرغة.

- لا.

- إذن؟

- لا تريدين أن تفهمي.

كان أحياناً يعيد على مسامعي أنّ الأفكار الجديدة متأتّية من شركائه، وأنّه أصبح أكبر سنّاً من أن يُبدِع: لا أصدّقه.

- آه! أرى بأنّك تفكّر، قلت. لا أصدّق هذا.

- أنتِ مخطئة. فكرتي الأخيرة خطرت لي في سنّ الخامسة عشرة.

الخامسة عشرة. ما من فترة خاوية دامت معه أكثر من ذلك. لكن في هذه النّقطة التي وصل إليها لا بدّ أنّه في حاجة إلى راحة كي يُجدّد منابعه. فكّرتُ في بيت لڤاليري Valéry [1]:

كلُّ ذرّة صمت

هي حظُّ ثمرة ناضجة.

عن هذا الحمل الطّويل، سيولَدُ ثمرٌ غيرُ متوقّع. لم تنتهِ هذه المغامرة التي خُضتُها بشغف: الشكّ، والفشل، وسأم التسكّع، ثمّ يلوح نور اللقاء، وأمل، وفرضيّة مؤكّدة؛ وسكرة النّجاح، بعد أسابيع وأشهر من الصّبر القلق، لم أكن أفهم عمل أندريه كثيراً، لكنّ ثقتي العنيدة به كانت تشدّ من أزر ثقته العنيدة بنفسه. إنّها كما هي. لِمَ لا أستطيعُ الاعتراف له بذلك؟ لا يمكنني التّصديق بأنّي لن أرى الغبطة المحمومة للاكتشاف الجديد وهي تتألق في عينيه.

1- ڤاليري Valery : كاتب وفيلسوف وشاعر فرنسي وُلد في باريس سنة 1871.

قلتُ:

- لا شيء يُثبتُ أنّه لن يكون لك نَفَسٌ جديد.

- لا. في عمري، هناك عادات ذهنيّة تُعطّل الإبداع. ومن سنة إلى أخرى أصبح أكثر جهلاً.

- سنتحدّث في ذلك خلال عشر سنوات. ربّما قمتَ بأكبر اكتشافاتك في سنّ السّبعين.

- تفاؤلك جيّد: أؤكّد لك العكس.

- تشاؤمُكَ جيّد!

ضحكنا. مع أنّه ما من سبب للضّحك. للمرّة الأولى لم تكن انهزاميّة أندريه مبنيّة على صرامة. نعم، لقد كتب فرويد في رسائله بأنّه في سنّ مُعيّن لن يعود في مستطاعنا أن نخلق، وهذا مؤسف. لكنّه كان أكبر سنّاً من أندريه آنذاك. هذا لا يمنع بأنّ ذلك الأسى غير المُبرّر لم ينجح في التّأثير علَيَّ. إن كان أندريه قد استسلم فلأنّه يعيش أزمة. أنا مندهشة، لكنّ المعضلة هي أنّه لا يستوعب فكرة تجاوزه الستّين. أنا، ما زال هناك ألف أمر يسلّيني؛ هو لا. فيما مضى كان يهتمّ بكلّ شيء؛ الآن، بات من الصّعب جدّاً اقتياده إلى السّينما أو إلى رواق عرض أو إلى بعض الأصدقاء.

- يا لها من خسارة ألّا ترغب في التنزّه، قلت. أيّام جميلة للغاية! كنتُ أفكّر منذ قليل في العودة إلى «ميلي»، وإلى غابة «فونتينبلو» Fontainebleau.

- أنتِ مدهشة، قال لي مبتسماً. تعرفين أوروبا بأسرها، وتودّين رؤية ضواحي باريس!

- لِمَ لا؟ إعداديّة «شومپو» ليست أقلّ جمالاً لأنّي صعدتُ إلى الأكروپول Acropole.

- ليكنْ. أعدُك بجولة كبيرة بالسيّارة ما إن يُقفَل المخبر خلال أربعة أو خمسة أيّام.

سيكون في متناولنا أن نقوم بأكثر من جولة، ما دمنا سنظلّ في باريس حتّى بداية شهر أوت/ آب. لكن هل ستكون به رغبة؟ سألت:

- غداً الأحد. ألستَ حرّاً؟

- لا للأسف! تعرفين جيّداً، هناك المؤتمر الصّحفيّ، في المساء، حول المَيز. جلبوا لي حزمة وثائق لم أنظر ما في داخلها.

سجناء سياسيّون إسبان، ومساجين برتغاليّون، وإيرانيّون مُضطَهَدون، وثوّار من الكنغو وأنغولا وفنزويلا والبيرو وكولمبيا، كان دائماً مُستعدّاً لمساعدتهم في حدود قدرته. اجتماعات، ومسيرات، ومناشير، وتفاوُض، ولا شيء يُثنيه.

- أنت تبالغ.

- لماذا أبالغ؟ ما الذي يجب أن أفعله خلاف ذلك؟

ماذا نصنع إزاء هذا العالم الذي ما ينفكُّ يفقد ألوانه؟ لم يبقَ سوى قتل الوقت. أنا أيضاً مررتُ بفترة عصيبة منذ عشر سنوات. تقزّزتُ من جسمي، أصبح فيليب شابّاً، أحسستُ بأنّي مفرغة بعد النّجاح الذي لاقاه كتابي حول روسو Rousseau. يزعجني التقدّم في السنّ. ثمّ بدأتُ دراسة عن منتسكيو Montesquieu، نجحتُ في دفع فيليب إلى الحصول على شهادة التبريز، وأن أبدأ معه رسالة دكتوراه. عهدوا إليَّ بدروس في السوربون أهمّ من دراساتي التّحضيريّة في الآداب. أذعنتُ لجسدي. بدا لي أنّي أحيا من جديد. واليوم، لو لم يكن لأندريه في عمره هذا ضمير متّقد جدّاً، لنسيتُ ضميري.

غادر وبقيتُ وقتاً طويلاً في الشّرفة. رأيتُ رافعة في لون الصّدأ تدور في خلفيّة سماء زرقاء. تابعتُ بعينَيَّ حشرة سوداء ترسم في الأفق أخدوداً عريضاً كثيفاً وأبيض. الشّباب الأزليّ للعالم يقطع الأنفاس. لقد اختفت أشياء كنتُ أحبّها. كثير منها مُنح إليَّ. اتّخذتُ شارع راسپاي بالأمس وكانت السّماء قرمزيّة؛ بدا لي أنّي أمشي فوق كوكب غريب

حيثُ العشب بنفسجيّ، والأرض زرقاء: كانت الأشجار تخفي احمرار علامات النيون التجاريّة. في سنّ الستّين، كان أندرسون يندهش لأنّه بات في وسعه أن يقطع السويد في أقلّ من أربع وعشرين ساعة، فيما كان يفعل ذلك طوال أسبوع في شبابه. عرفتُ دهشة مماثلة: موسكو على مسافة ثلاث ساعات ونصف من باريس!

أقلّتني سيّارة تاكسي إلى متنزّه مونتسوري حيثُ كان لي موعد مع «مارتين». وأنا أدخل الحديقة، أسرت قلبي رائحة العشب حيثُ كنتُ أمشي وحقيبتي على ظهري، مع أندريه، كانت تشبه رائحة المراعي في طفولتي. انعكاس وصدى يحيلانني إلى الأبديّة: اكتشفت عذوبة أن يكون خلفَك ماضٍ طويل. لا أملك الوقت كي أرويه لنفسي، لكن أحياناً على حين غرّة يلوح لي بشكل شفّاف في لحظة حاضرة؛ تمنحه لونه، وإشراقه كما تبدو الصّخور أو الرّمال تحت نور شمس بحريّة. قديماً كنت أفيض وعوداً ومشاريعَ؛ الآن، ظلّ الأيّام الميّتة يجعل عاطفتي ومُتعي أكثر نعومة.

- مرحباً.

كانت مارتين تحتسي عصيراً مضغوطاً على شرفة مطعم. شعر كثيف أسود وعينان زرقاوان، وفستان قصير بخطوط برتقاليّة وصفراء مع لمسة بنفسجيّة: امرأة شابّة فاتنة. أربعون سنة، في الثّلاثين ابتسمتُ لمّا وصف والد أندريه امرأة أربعينيّة بـــ «امرأة شابّة فاتنة»؛ ولاحت لي الكلمات نفسها في شأن مارتين. تقريباً كلّ النّاس يبدون لي شباباً في الوقت الحاضر. ابتسمت لي:

- جلبتِ لي كتابَكِ؟

- بالتأكيد.

ألقت نظرة على الإهداء:

- شكراً، قالت لي بصوت متأثّر. أردفت: ـــ أتحرّق شوقاً لقراءته.

لكن نهاية السّنة الدّراسيّة لا تسمح لكثرة المشاغل. يجب أن أنتظر 14 جوييه/ تموز[2].

- أريد أن أسمع رأيكِ.

لديَّ ثقة كبيرة في حكمها: هذا يعني أنّنا مُتّفقتين دائماً، كنتُ أشعر بأنّي في منزلة واحدة معها لو لم تكن تحافظ إزائي على مسافة إجلال بين تلميذة وأستاذتها، رغم أنّها كانت أستاذة هي أيضاً وأمّاً لعائلة.

- من الصّعب تدريس الأدب اليوم. لا أدري كيف كنتُ سأفعل بلا كتُبِكِ. طلبت منّي بحياء: ـــــ هل أنتِ راضية عن هذا؟

ابتسمتُ لها:

- صراحة نعم.

ظلّ هناك استفهام في عينيها لم تَصُغهُ في شكل سؤال. بادرتُ. كان صمتُها يشجّعني على الكلام وعلى طرح الأسئلة الطّائشة:

- أتعلمين ماذا أردتُ أن أفعل: فكّرتُ، انطلاقاً من قراءة أعمال نقديّة ظهرت منذ الحرب، أن أقترح طريقة جديدة تُمكّن من سبر عمل الكاتب بدقّة غير مسبوقة.

- آمل أن أكون قد نجحتُ.

كان ذلك أكثر من مجرّد أمل: إنّه يقين. إنّه يضيء قلبي. أحبّ أوّل النّهار والأشجار والعشب والممشى الذي كنتُ أمشي فيه صحبة الرّفاق، والأصدقاء. بعضهم مات والبعض الآخر ابتعدوا في هذه الحياة. لحسن الحظّ، وعكس أندريه الذي لم يعد يرَ أحداً، ما زالت تربطني لقاءات ببعض الطّلبة والزّملاء الشّبان؛ أؤثرهم على النّساء في مثل سنّي. فضولهم ينعش فضولي؛ أمّا هنّ فإنّهنّ يقذفن بي في مستقبلهن ومن ثمّة قبري.

داعبت مارتين المُجلّد بباطن يدها.

2- 14 جوييه/ تموز: عيد الجمهورية الفرنسيّة.

– مؤكّد أنّي سألقي عليه نظرة هذا المساء بالذّات. هل قرأه أحدهم؟

– أندريه فقط. لكنّ الأدب لا يستهويه.

لم يعد يستهويه شيء على الإطلاق. بات انهزاميّاً إزائي أكثر من نفسه. دون أن يقول لي ذلك، كان مقتنعاً في قرارة نفسه بأنّ ما أنجزه لن يضيف شيئاً لشهرتي. هذا لا يزعجني لأنّه كان مخطئاً. لقد كتبتُ أفضل كتبي، وسأبتعد بجزئه الثّاني أكثر.

– ابنُكِ؟

– قدّمتُ له رزمة اختبارات. سيحدّثني عنها: سيرجع هذا المساء.

تحدّثنا عن فيليب وعن رسالته في الآداب. كانت مثلي تماماً، تحبّ الكلمات والنّاسَ الذين يحسنون توظيفها. كان، فقط، عملها وبيتها يلتهمانها. رافقتني إلى بيتي في سيّارتها ال ـــــ «أوستان» الصّغيرة.

– تعودين قريباً إلى باريس؟

– لا أعتقد. من «نانسي» Nancy سأذهب على «إيون» L'Yonne كي أرتاح.

– هل ستشتغلين قليلاً أثناء العطلة؟

– ليتني أفعل. لكنّي لا أجد الوقت. ليست لديّ طاقتك.

ليست قضيّة طاقة، قلتُ لنفسي وأنا أغادرها: لا يمكنني العيش دون كتابة. لماذا؟ ولماذا تعنّتٌ في أن أجعل من فيليب مُثقّفاً فيما تركه أندريه يشقّ طريقه كما يريد؟ طفلة ثمَّ مراهقة، أنقذني الكتاب دائماً من اليأس؛ أثبت لي ذلك أنّ القراءة هي القيمة الأسمى على الإطلاق لكنّي لا أفلح في التّعبير عن قناعتي تلك بأدوات نقديّة.

انهمكت ماري إيلين في تجهيز العشاء في المطبخ: على اللّائحة، الأطعمة المُفضّلة لدى فيليب. تثبّتُّ من سير الأمور على أفضل نحو، قرأتُ الصّحف ولعبتُ شبكة كلمات متقاطعة صعبة تطلّب منّي حلّها ساعة إلّا ربعاً؛ يسلّيني أحياناً أن أنغمس وقتاً طويلاً في شبكة حيثُ يكون

للكلمات وجود افتراضيّ، حتّى وهي متوارية؛ لأظهرها، أستعمل عقلي كما لو كان كاشفاً؛ يُخيّلُ إليَّ وهو ينتزعها من سمك الورقة حيثُ لا بدّ أنّها تختبئ.

بعد إتمامي للخانة الأخيرة، اخترتُ من خزانة الملابس فستاناً جميلاً ومنديل شعر رماديّ ووورديّ. في الخمسين، باتت عنايتي بنفسي تبدو لي إمّا كئيبة جدّاً أو مبهجة جدّاً؛ أعلم الآن ما هو مسموح لي به وما هو ممنوع عنّي، ألبس دون مشاكل. دون متعة أيضاً. اختفت علاقتي الحميمة والدّافئة مع ملابسي كما كان الحالُ فيما مضى. إلّا أنّي ما زلتُ أنظر إلى جسمي بنوع من الرّضا. فيليب هو الذي قال لي يوماً: «هاي، أنتِ تتكوّرين». (لا يبدو أبداً أنّه لاحظ بأنّي وجدتُ شكلي). لقد بدأت في حمية واشتريتُ ميزاناً. لم أتصوّر يوماً أنّي سأهتمّ بوزني. وهأنذا! كلّما أنكرتُ نفسي داخل جسمي، اهتممتُ به. إنّه في عهدتي وأنا أعتني به بتفانٍ كلُّه ملل، كصديق قديم سيّئ الحظّ، متدهور أكثر منّي ويحتاج إليَّ.

جلب أندريه قارورة «موم» فسارعتُ بتبريدها، تحدّثنا قليلاً وهاتف أمّه. كان أحياناً يفعل ذلك. كانت لا تزالُ تحافظ على ساق قويّة وعين جيّدة؛ ما زالت تناضل بجسارة في صفوف الحزب الاشتراكيّ؛ غير أنّها كانت في الرّابعة والثّمانين، تعيش وحدها في منزل في «المدينة الجديدة أفينيون»: هو قلق في شأنها قليلاً. كان يضحك في أثناء مهاتفتها، سمعتُه يتعجّب، ويحتجّ ثمّ سرعان ما سكت: تصبح «مانيت» فصيحة إذا أتيحت لها الفرصة.

– ماذا تروي؟

– يوماً بعد يوم، باتت تزداد يقيناً أنّ خمسين مليون صينيّ سيعبرون الحدود الروسيّة. أو أنّهم سيلقون بقنبلة في أيّ مكان لا لشيء إلّا ليعلنوا قيام حرب عالميّة. اتّهمتني بأنّي تجاسرتُ على حزبها: يستحيل إقناعها بالعكس.

– هل هي بخير؟ ألا تشعر بالضّجر؟

– سيسعدها أن ترانا، لكنّها لا تعرف ماذا يعني الضّجر.

مُعلّمة، وثلاثة أطفال، كان التّقاعد بالنّسبة إليها غبطة لم تنضب إلى اليوم.

تحدّثنا عنها وعن الصّينيّين وعن أنفسنا، مثل الجميع، بأخبار منقوصة. فتح أندريه مجلّة. وهأنذا أنظر إلى عقارب ساعتي التي يبدو أنّها تأبى الدّوران.

ظهر فجأة؛ مندهشة دائماً وأنا أرى في وجهه، وبشكل متناسق، ملامح أمّي وملامح أندريه غير المتشابهة. ضمّني بقوّة هامساً بكلمات حنون ووجدتُني مستسلمة لنعومة جاكيته الفانيلا على خدّي. قبّلت «إيرين»؛ ابتسمت ببرود جعلني أستغرب من حرارة ونعومة خدّيها تحت شفَتَيَّ. إيرين. أنساها دائماً؛ دائماً هنا. شقراء، بعينين زرقاوين رماديّتين، فم متهدّل، وذقن مستدقّ، وفي جبينها شيء ما صلب ومبهم في آنٍ. محوتُها بسرعة. كنتُ وحدي مع فيليب مثلما كنتُ في السّابق أوقظه مداعبة جبينه.

– ولا قطرة ويسكي واحدة؟ سأل أندريه.

– شكراً. آخذ عصيراً.

كم هي متعقّلة! كان هندامها متعقّلاً وقصّتها متعقّلة وأنيقة، وشعرها ناعم، وخصلات تخفي جبهتها العريضة، ومكياج خفيف، وبدلة قصيرة. يحدث أن أقول وأنا أتصفّح مجلّة نسائيّة: «أوه! إنّها إيرين». ويحدث أيضاً ألّا أتعرّف عليها وأنا أراها. «جميلة»، أكّد أندريه. أنا من رأيه في بعض الأوقات: رقّة الأذنين والأنف، ونعومة صدفيّة للبشرة تعزّزها زرقة داكنة فوق الأهداب. لكن، لو أنّها حرّكت رأسها قليلاً فإنّ وجهها ينزلق، ولن يعود مرئيّاً سوى فمها وذقنها. إيرين. لماذا؟ لِمَ حبّذ فيليب دائماً هذا النّوع الأنيق والمتحفّظ والمتكبّر من النّساء؟ دون شكّ، كي يثبت لنفسه أنّه قادر على إغوائهنّ. لم يكن يتعلّق بهنّ. أعتقد أنّه لو تعلّق بهنّ... أظنّ أنّه لن يتعلّق بهنّ، وقال لي ذات مساء: «لديّ خبر ثقيل»، متحمّساً كطفل

لعب كثيراً يوم عيد، ضحك كثيراً وصاح كثيراً. أحسستُ بصدمة في صدري، والدّم في وجهي، وكلّ قوّتي مستنفرة كي أبدّد ارتعاش شفَتَيَّ. مساء شتويّ، بستائر مسحوبة، وأضواء قزحيّة على الوسائد وفجوة الغياب التي تكوّنت فجأة. «ستعجبك: إنّها امرأة تعمل». كانت تعمل ملقّنة سيناريو. أعرف أولئك النّساء «على الرّيح». مهنة غامضة، ندّعي أنّنا نتثّقف، ونقوم بالرّياضة، ونلبس جيّداً، ونعتني بباطننا جيّداً، ونربّي أبناءنا بشكل جيّد، وأن نعيش حياة بغيّ، باختصار أن ننجح على كلّ المستويات. وألّا نخلص لشيء. إنّها تجمّد الدّم في عروقي.

كانا قد رحلا إلى سار دانيا بداية جوان/ حزيران، يوم أغلقت الجامعة أبوابها. بينما كنّا نتناول العشاء إلى الطّاولة التي كنتُ أطعم عليها فيليب (هيّا، أكمل حساءك؛ خذ القليل من الشّرائح؛ كُل شيئاً قبل الالتحاق بدروسِك)، تحدّثنا عن رحلتهما ـــ هديّة زواج رائعة من طرف والديْ إيرين، لديهم الإمكانيّات. كانت كثيرة الصّمت كامرأة ذكيّة تحسن انتظار الآونة المناسبة لتنطق بملاحظة ماكرة ومذهلة؛ بين الحين والآخر، كانت تلقي بجملة قصيرة، مثيرة للدّهشة ـــ بالنّسبة إليَّ على الأقل ـــ بسبب حمقها أو بداهتها.

عدنا إلى المكتبة. ألقى فيليب نظرة على مكتبي.

- اشتغلتِ جيّداً؟

- الأمور تسير. ألم تجد الوقت لتقرأ اختباراتي؟

- لا، تصوّري. أنا آسف.

- ستقرأ الكتاب. لديّ نسخة لك.

حزّت لامبالاته في نفسي قليلاً، لكنّي لم أظهر له شيئاً. قلت:

- وأنت، ستشرع في رسالتك بجدّية؟

لم يُجب. تبادل مع إيرين نظرة غريبة.

- ماذا هناك؟ ستذهبان في رحلة؟

- لا. صمت من جديد قبل أن يقول بقليل من المزاح: ـــ آه!

ستغضبين، ستؤنّبينني، لكنّي اتّخذتُ قراري خلال هذا الشّهر. يصعب التّوفيق بين منصب مساعد وبين رسالة. من جهة أخرى، لن تمنحني الجامعة مستقبلاً مهمّاً دون رسالة. سأغادرها.

- ماذا تقول؟

- سأغادر الجامعة. لا أزال شابّاً وبإمكاني تغيير مساري.

- لكن، هذا مستحيل. لا يمكنك أن تتخلّى عن كلّ شيء بعد الشّوط الذي قطعتَه، قلت بسخط.

- افهميني. فيما مضى كانت الأستاذيّة مهنة من ذهب. الآن، لستُ الوحيد الذي يجد مستحيلاً الجمع بين مشاغل الطّلبة وبين عملي الخاص: إنّ عددهم كبير جدّاً.

- هذا صحيح، قال أندريه. ثلاثون طالباً، هو طالب مكرّر ثلاثين مرّة. خمسون هم جمهور. لكن يمكن دائماً العثور على طريقة تجعلك تجد الوقت لتُنهيَ رسالتك.

- لا، قالت إيرين بنبرة حاسمة. لا يتقاضى المرء جيّداً في مجال التّعليم والبحث. لديَّ ابن عمّ يعمل في مجال الكيمياء. في السي. آن. آر. أس. CNRS [3] يتقاضى ثماني مئة فرنك في الشّهر. التحق بمصنع أصباغ: ويتقاضى ثلاثة آلاف.

- ليست قضيّة أموال فحسب، قال فيليب.

- بالتّأكيد. من الضّروريّ أيضاً أن يكون المرء متحمّساً.

بجمل قصيرة ودقيقة، جعلت رأيها فينا يظهر. أوه! لقد فعلت ذلك باتّزان: ذاك الاتّزان الذي نشعر به آتٍ من بعيد. (لا أريد أن أجرحك، ولن أحرص على ذلك، ولن يكون ذلك عدلاً، هناك أمور يجب أن أبلّغك إيّاها ولو لم يكن كافياً لقلتُ لك المزيد). كان أندريه عالماً كبيراً بالطّبع وكامرأة يمكن القول إنّي نجحت. لكنّنا نعيش في عزلة عن العالم، في

3- سي.آن. أر. أس CNRS: المركز الوطنيّ للبحث العلمي الفرنسيّ.

مخابر ومكتبات. الجيل الجديد من المُثقّفين يحبّذ أن يكون في تماسّ مباشر مع المجتمع. لم يكن فيليب بطبيعته الحيويّة مؤهّلاً كي يعيش حياتنا؛ ثمّة مجالات أخرى باستطاعته أن يقدّم فيها بشكل أفضل بكثير.

- أخيراً، ضاع كلّ شيء. رسالتي، هل أفضت إلى شيء. لِمَ نرتكب أشياء فظيعة أحياناً؟

لم تكن إيرين حمقاء إلى هذا الحدّ. إنّها موجودة، وتحسب، لقد ألغت الانتصار الذي أنجزتُه مع فيليب، ضدّه، ولأجلِه. كان صراعاً مريراً في أحيان كثيرة بالنّسبة إليَّ. «لا أنجح في التوصّل إلى هذا البحث، رأسي يؤلمني، اقترح عليَّ كلمة تعبّر عن مرضي. ـــ لا». تغضّن الوجه الطّفوليّ الرّقيق، وهرم، تقتلني العيون الخضر: «لستِ طيّبة». تدخّل أندريه. «لِمَرّة... ـــ لا». تضايقتُ في هولندا خلال العطلة لمّا تركنا فيليب في باريس. «لا أريد أن تكون رسالتك متسرّعة». وصرخ بحقد: «لا تأخذوني، لا أكترث، لن أكتب سطراً واحداً». ثمّ جاءت نجاحاته، تفاهمنا. تفاهمنا الذي بدأت إيرين تدمّره. إنّها تنتزعه منّي للمرّة الثّانية. لم أشأ أن أنفجر في وجهها، وتمالكتُ نفسي.

- إذن، ماذا الذي تنويان القيام به؟

همّت إيرين بالإجابة فقاطعها فيليب.

- والد إيرين لديه الكثير من المشاريع.

- من أيّ نوع؟ أعمال؟

- ما زالت الأمور مُشوّشة.

- لقد تحدّثت معه قبل رحلتك، لِمَ لَمْ تخبرنا بشيء؟

- أردتُ أن أفكّر.

انتابني غضب مفاجئ؛ لا يُعقَل ألّا يكون قد استشارني منذ الوهلة الأولى التي خطر له فيها أن يغادر الجامعة.

- أنتِ تؤنّبينني بالتّأكيد، قال فيليب بانزعاج.

حال لون عينيه إلى لون الغيوم الذي أعرفه.

مكتبة
t.me/t_pdf

- لا، قال أندريه. يجب أن نفعل ما نحبّ أن نفعل.
- تؤاخذينني؟
- كسب الأموال ليس بالدّافع العظيم. أنا مندهشة.
- قلتُ لكِ إنّها ليست قضيّة أموال فحسب.
- ماذا أيضاً؟ كن دقيقاً.
- لا أستطيع. يجب أوّلاً أن ألتقِيَ صهري. لكنّي لن أقبل عرضَه إلّا إذا وجدتُ فيه مصلحتي.

ناقشتُ بما أمكنني من هدوء، محاولة إقناعَه بقيمة رسالته، مذكّرة إيّاه بمشاريع بحث ودراسة قديمة. كان يجيب بأدب، لكنّ كلماتي كانت كما لو أنّها تنزلق فوقه. لا، لم يعد ملكي، أبداً، على الإطلاق. حتّى هيئته تغيّرت: قصّة شعر أخرى، ملابس على الموضة، نمط الدّائرة XVI. أنا التي صمّمتُ حياته. والآن هأنذا أشاهدها من بعيد، كشاهد محايد. إنّه المصير المشترك لكلّ الأمّهات: لكن من منّا خفّف عنها كونه مصيراً مُشتركاً؟

انتظر أندريه المصعد معهما وتهاويتُ على الأريكة. هذا الفراغ، من جديد... لم تكن سعادة اليوم، وذاك الشّعور بالامتلاء في قلب الغياب سوى لأنّ فيليب كان هنا، لبضع ساعات. انتظرتُه كما لو أنّه يعود كي لا يرحل: ما انفكّ يرحل. كانت انفصالُنا نهائيّاً أكثر ممّا حدست. لن أشاركه العمل، لن تكون لنا الاهتمامات نفسها. ألهذا الحدّ يعنيه المال؟ أم إنّه ببساطة يُذعن إلى إيرين؟ ألهذا الحدّ كان يحبّها؟ لمعرفة ذلك، ينبغي معرفة ما يدور في لياليهما. لا بدّ أنّها تعرف كيف ترضي جسمه وغروره: خلف ظاهرها الرّاقي، أتخيّلها قادرة على الدّخول في نوبة غضب شرسة. كان دائماً لديّ ميل للاستهانة بالسّعادة التي تنجم عن العلاقة الجسديّة بين زوجين. لم يعد من وجود لنطاق جنسي بالنّسبة إليَّ. أسمّي لامبالاتي تلك: سكينة؛ فجأة فهمتها على نحو مغاير: إنّها إعاقة، إنّها فقدان حاسّة؛ إنّها تجعلني عمياء عن حاجاتي، وعن أوجاعي، وعن

سعادة من يمتلكونها. بدا لي أنّي لا أعرف شيئاً عن فيليب. أمر واحد أكيد: كم سأشتاق إليه! ربّما بفضله تكيّفتُ مع سنّي. كان يصحبني إلى شبابه. يأخذني إلى الأربع والعشرين ساعة لل ـــ «مان» Mans، إلى أروقة الفنون. حتّى إنّه أخذني مرّة إلى حفلة. كان البيتُ مفعماً بحضوره الهائج والخلّاق. هل سأعتاد هذا الصّمت، هذا التّعاقب الرّصين للأيّام والذي لن يكسره حدث غير متوقّع؟

سألتُ أندريه:

– لماذا لم تساعدني على تعقيل فيليب؟ لقد تخاذلتَ فوراً. ربّما كان بإمكاننا إقناعه معاً.

– علينا ترك النّاس أحراراً. لم يحبّ يوماً مهنة الأستاذ.

– لكنّ رسالته أمر مهمّ.

– هذا مشكوك فيه إلى حدّ ما. أفهمُه.

– أنت تفهم كلّ النّاس.

فيما مضى، كان أندريه متشدّداً مع غيره أكثر من نفسه. الآن، لم يحد عن مواقفه السيّاسيّة إلّا أنّه بات يستأثر بالقسوة على نفسه؛ لقد أصبح يلتمس الأعذار ويفسّر ويقبل النّاس. إلّا أنّه يغضبني أحياناً. أردفتُ:

– أتعتقد أنّ كسب المال هدف كافٍ تُبنى عليه الحياة؟

– لا أدري ماذا كانت أهدافنا ولا هل كانت كافية.

هل قصد ما يقول أم إنّه يستمتع باستفزازي؟ يحدث ذلك بشكل متكرّر عندما يلاحظ بأنّي متشبّثة بقناعة ما. على أيّ حال، أنا أتركه، أحياناً، يستفزّني عن طيب خاطر، يستفزّني. أدخل لعبَتَه. لكنّي آنذاك لم أكن في مزاج يسمح بالمزاح. علا صوتي:

– لِماذا عشنا كما عشنا ما دمتَ ترى أنّ الأمور يجب أن تكون مختلفة؟

– لأنّه لم يكن في وسعنا القيام بالعكس.

– لم يكن في وسعنا، لأنّ نمط حياتنا يبدو لنا الأنسب.

- لا. بالنّسبة إليَّ، المعرفة والاكتشاف، كانا شغفاً أو حتّى نوعاً من الهوس، دون تفسير أخلاقيّ. لم أفكّر أبداً في أنّه يجب على الآخرين أن يحذوا حذوي.

أنا أفكّر في أعماقي بأنّه يجب على العالم اتّباعنا، لكنّي لم أرغب في خوض الموضوع.

قلتُ:

- الأمر لا يتعلّق بالعالم بل بفيليب. سيتحوّل إلى رجل أعمال؛ لم أربِّه لأجل هذا.

فكّر أندريه:

- من المزعج لشاب أن يكون له والدان عرفا كيف ينجحان بشكل جيّد. إنّه لا يجرؤ على التّفكير في أنّ بوسعه القيام بالشّيء نفسه بمجرّد السّير على خطاهما. فترينه يفضّل المراهنة على لوحات أخرى.

- بدأ فيليب بشكل رائع.

- كنتِ تساعدينه، كان يعمل في ظلّك. صراحة، لم يكن ليبتعد كثيراً لولاكِ، وهو أكثر حكمة من أن ينتبه لذلك.

كان دائماً هناك تصادم مكتوم بيني وبينه فيما يخصّ فيليب. لعلّ أندريه ندم بعض الشّيء لأنّه اختار الآداب بدل العلوم؛ أو لعلّها المنافسة القديمة بين الأب وابنه: كان دائماً يعتبر فيليب رديئاً، وهي طريقة ليجعله متناغماً مع الرّداءة.

- أعلم، قلت. لم تمنحه ثقتك أبداً. وما شكّه في نفسه إلّا لأنّه يرى نفسه بعينيك.

- ربّما. قال أندريه مواسياً.

- على أيّ حال، المسؤول الكبير هو إيرين. هي من يدفعه. لديها الرّغبة في أن يربح زوجها الكثير. وهي سعيدة جدّاً بإبعاده عنّي.

- آه! لا تلعبي دور الحماة. إيرين لا تستحقّ منك هذا الظنّ.

- أيّ ظنّ؟ لقد تفوّهت بأشياء جسيمة.

- يجوز. لكنّها فطنة. وهذا دليل على فقدان اتّزان وليس نقصاً في الذّكاء. من جهة أخرى، لو أنّ الأموال تهمّها إلى هذه الدّرجة لما تزوّجت فيليب الذي لم يكن ثريّاً.

- فهمت أنّ في وسعه أن يتحوّل إلى رجل غنيّ.

- عموماً، لقد اختارت وأشاحت عن العديد من المتكبّرين الصّغار.

- ما دامت تعجبك فأنت أولى بها.

- حين نحبُّ أحدهم فإنّ من المنطق أن نغفر قليلاً للأشخاص الذين يُحبّهم.

- هذا صحيح، قلت. لكنّ إيرين تُحبِطُني.

- علينا أن نضع نصب أعيننا البيئة التي خرجت منها.

- لم تخرج أبداً، للأسف.

يبدو لي هؤلاء البورجوازيّون المتعفّنون بالأموال، وأصحاب النّفوذ، والمهمّون، بغيضين أكثر من البيئة التّافهة والرّاقية التي تمرّد عليها شبابي.

حافظنا على مسافة صمت برهة من الزّمن. تحوّلت العلامة المضيئة، خلف النّافذة، من الأحمر إلى الأخضر، لمعت عيون الجدار الكبير. ليلة جميلة. كان يجب أن أنزل مع فيليب لاحتساء كأس أخيرة في الشّرفة... لا فائدة من دعوة أندريه للقيام بجولة معنا؛ فقد بدا واضحاً أنّ النّوم بدأ يغلبه. قلت:

- أتساءل لماذا تزوّج بها فيليب.

- أوه! تعلمين، لا يمكن أن نفهم أشياء كهذه.

أجاب ببرود، تهدّل وجهه، ضغط بإصبعه على خدّه من جهة اللثّة في حركة لاإراديّة تسلّلت إلى عاداته منذ فترة قصيرة.

- أسنانُك تؤلمك؟

- لا.

- إذن، لماذا تُكثر من تحسُّسِ لثّتك؟

- أتأكّد من أنّي لا أتألّم.

في السّنة الماضية كان يتحسّسُ نبضه كلّ عشر دقائق. صحيح أنّه تعرّض إلى ارتفاع كبير في الضّغط، لكنّه خضع لفحوصات جعلت ضغطه يستقر في الـ 17، وهو أمر جيّد بالنّسبة إلى من هم في سنّنا. ظلّ يضغط بإصبعه على خدّه، كانت عيناه خاليتين من أيّ تعبير، كان يلعب دور المُسنّ، سينتهي به الأمر بإقناعي بذلك. لحظة، فكّرتُ برعب: «غادر فيليب، وعليّ أن أقضّي بقيّة حياتي مع شيخ مُسنّ!» انتابتني رغبة في الصّراخ: «توقّف لا أريد». وكما لو أنّه سمعني، ابتسم لي، عاد إلى طبيعته وخلدنا إلى النّوم.

لا يزالُ نائماً؛ سأوقظه، سنحتسي الشّاي الصينيّ الأسود جدّاً، والقويّ جدّاً. لكن، هذا الصّباح لم يكن يشبه صباح يوم الأمس. كان يجب أن أستعيد بأنّي فقدتُ فيليب. يجب أن أعِيَ ذلك. لقد تركني منذ اللّحظة التي قرّر فيها الزّواج؛ منذ ولادته: كان من الممكن أن تأخذ مربية مكاني. ماذا تخيّلتُ؟ ظننتُ بأنّي ضروريّة في حياته لأنّه كان متطلّباً جدّاً. ظننتُ بأنّي فصّلتُه على صورتي لأنّه ينساق بسهولة. هذه السّنة، وأنا أراه مع إيرين بين أفراد عائلتها، مختلفاً عمّا هو عليه معي، يبدو لي أنّه يقحمني في لعبة: أنا من يعرف حقيقته. واختار الابتعاد عنّي، أن يحطّم مؤامراتنا الصّغيرة، أن يرفض الحياة التي صنعتها لأجله بعد جهد كبير. لقد أصبح غريباً.

هيّا! لعلّي أقلق لأجل لاشيء، أنا التي طالما اتّهمني أندريه بالتّفاؤل الأعمى. إلّا أنّي لا أعتقد بعدم وجود نجاح خارج الجامعة، ولا بأنّ الدّكتوراه تشكّل ضرورة قصوى. قال فيليب إنّه لن يقبل بأقلّ من عمل مهمّ... لكنّي في ريبة من الفرص التي سيعرضها والدُ إيرين عليه. حدث أن أخفى عنّي بعض الأشياء، وأن يكذب عليّ، أعرف عيوبه، لقد نلتُ نصيبي منها، بل إنّها تجعلني مشفقة كما لو أنّها عثرات بدنيّة. لكن، هذه المرّة أنا غاضبة لأنّه لم يطلعني على مشاريعه. غاضبة وقلقة. حتّى الآن،

كان كلّما سبّب لي الألم، كان يعرف كيف يواسيني: لستُ متأكّدة، هذه المرّة، من قدرته على ذلك.

لِمَ تأخّر أندريه؟ اشتغلتُ أربع ساعات متواصلة، أشعر بأنّ رأسي ثقيل، وتمدّدت على الكنبة. لم يعطِني فيليب إشارة حياة واحدة منذ ثلاثة أيّام؛ ليس من عادته؛ يقلقني صمته خصوصاً أنّه كان يضاعف عدد مكالماته وأحاديثه الصّغيرة كلّما أحسّ بأنّه، ربّما جرحني. لم أكن أفهم، كان قلبي ثقيلاً، واتّخذ حزني شكل بقعة الزّيت؛ شيئاً فشيئاً، أصبح أندريه نكداً. كان «ڤاتران» هو صديقه الوحيد الذي ما زال يرغب في رؤيته، وغضب لمّا علم بأنّي دعوتُه إلى الغداء: «إنّه يزعجني». كان الجميع يزعجونه. وأنا؟ قال لي، منذ زمن بعيد: «منذ أصبحتِ لي، لم يعد بإمكاني أن أكون تعيساً». ولم يكن يبدو أنّه سعيد. لم يعد يحبّني كذي قبل. ما معنى أن يحبّ المرء، بالنّسبة إليه، اليوم؟ إنّه متمسّك بي كعادة قديمة لكنّي لا أمنحه السّعادة. هذا غير عادل لكنّي فعلاً ألومه: إنّه يغذّي لامبالاته ويُنصّبها بيننا.

دار المفتاح في القفل، قبّلني وكان يبدو مشوّشاً.

- لقد تأخّرت.

- قليلاً.

جاء فيليب يبحث عنّي في مدرسة المعلّمين العليا. احتسينا كأساً معاً.

- لماذا لم تصحبه إلى هنا؟

- أراد أن يتحدّث معي على انفراد. كي يكون أنا من يملي عليه ما يجب أن يقول لنا.

- ما هذا؟

(هل سيسافر بعيداً مدّة سنوات؟)

– لن يعجبك هذا. لم يجرؤ أن يخبرنا في تلك اللّيلة، لكنّه أمر محتّم. رتّب له صهرُه وضعاً ما. سيدمجه في وزارة الثّقافة. إنّه منصب مهمّ في عمره، فسّر لي. لكن، أنتِ تعلمين ما قد يعنيه ذلك.

– مستحيل. فيليب!

مستحيل. كان يشاركنا أفكارنا. لقد جازف خلال حرب الجزائر ـــــ تلك الحرب التي عصفت بنا والتي يبدو الآن أنّها لم تحدث؛ لقد ضُربَ في مظاهرات مناهضة لديغول؛ لقد انتخب مثلنا في الانتخابات الأخيرة...

– يقول إنّه تطوّر. فهم أنّ سلبيّة اليسار الفرنسيّ لم تفضِ به إلى شيء، وأنّ اليسار انتهى، وأنّه يرغب في خوض السّباق الكبير، أن يكون له كلمة في العالم، أن يتحرّك ويبني.

– كأنّ إيرين هي التي تتحدّث.

– لكنّ فيليب من كان يتحدّث، قال أندريه بصوت قاسٍ.

استوعبتُ فجأة. وتملّكني الغضب.

– ماذا إذن؟ انتهازيّ؟ هل قلب السّترة بدافع أصوليّ؟ آمل أن تكون قد صرخت في وجهه.

– قلتُ له إنّي أختلف معه.

– ألم تحاول أن تثنيه عن قراره؟

– طبعاً، فعلت. لقد ناقشنا الأمر.

– نقاش! كان عليكَ أن تُخجِلَه، أن تقول له بأنّنا لن نقبل رؤيته مجدّداً. كنتَ رخواً للغاية، أعرفُك.

فجأة، سقط فوقي كلُّ شيء. سيل جارفُ من الشّكوك ومن الأفكار السيّئة غمرني. لماذا لم يعرف في حياته سوى نساء أنيقات جدّاً، فاخرات ومتكبّرات؟ لماذا إيرين وهذا البهرج في الزّواج، في الكنيسة؟ لماذا بدا متعجّلاً ومعسولاً مع عائلة أصهاره؟ إنّه يتعايش مع بيئتهم كسمكة في الماء. لم أشأ أن أطرح على نفسي الأسئلة، وعندما يصادف أن ينطق

أندريه بنقد متعلّق بسلوك فيليب فإنّي أدافع عنه. لقد تحوّلت تلك الثقة العنيدة إلى حقد. لقد غيّر فيليب وجهه في لمح البصر.

انتهازيّ، أصوليّ.

- أنا سأتحدّث معه.

خطوتُ نحو الهاتف. أوقفني أندريه:

- اهدئي أوّلاً. ما هكذا تسوّى الأشياء.

- سأرتاحُ على الأقلّ.

- أرجوكِ.

- اترُكني.

كوّنتُ رقم فيليب.

- قال لي أبوك للتوّ إنّك ستلتحق بديوان وزارة الثّقافة.

- آه! قال لي، لا تنظري إلى الأمر من هذه الزّاوية.

- من أيّ زاوية، إذن، يجب أن أرى الأمور؟ يجدر بي أن أشعر بالاعتزاز لأنّك لا تجرؤ على مواجهتي، لحدّة شعورك بالخجل.

- لا أشعر بالخجل. أملك الحقّ في مراجعة قناعاتي.

- تراجع! منذ ستّة أشهر فقط، كنتَ جذريّاً تدين السّياسة الثّقافيّة للنّظام.

- سببٌ إضافيّ! سأحاول تغييرها.

- هيّا إذن! أنت لا تملك الوزن الكافي، وتعرف ذلك. ستلعب اللّعبة بتعقّل، وستستسلم للمسيرة المهنيّة النّاجحة. إنّه الطّموح ما يدفعك، لا غير...

لا أعرف ما الذي قلتُه له، كي يصرخ:

«اخرسي، اخرسي». واصلت، قاطعني، أصبح صوتُه مشحوناً بالضّغينة، وانتهى به الأمر ليقول لي غاضباً:

- لستُ سافلاً لأنّي لا أتقاسم معكم عنادكم الخرف.

– يكفي. لن أراك مجدّداً في حياتي!

قفلتُ الخطّ، جلستُ أتفصّد عرقاً، كنتُ أرتعش، وأشعر بأنّ ساقَيَّ قد تكسّرتا. لقد سبق وتشاجرنا حتّى الموت فيما مضى، لكن هذه المرّة كانت المسألة جادّة: لن أراه مجدّداً. تحوّله المفاجئ جعلني أنفر منه، وجرحتني كلماته لأنّه قصد أن يكون جارحاً.

– لقد شتمنا. لقد تحدّث عن عنادنا الخرف. لن أراه مجدّداً، ولا أريد منك أن تراه.

– كنتِ قاسية أنتِ أيضاً. ما كان عليكِ أن تعالجي المسألة من أرض العاطفة.

– ولِمَ لا؟ لم يراعِ أيّ شعور من ناحيتنا؛ لقد فضّل مسيرته علينا، قبل أن يدفع الثّمن بالقطيعة...

– لم يخطّط لقطيعة. ثمّ إنّها لم تحدث، أنا ضدّ القطيعة.

– فيما يخصّني، ما وقع قد وقع: انتهى كلُّ شيء بيني وبين فيليب.

صمتُّ؛ كنتُ لا أزالُ أرتعش من الغضب.

– منذ فترة، لاحظتُ أنّ فيليب يرتدي نوعاً غريباً من القطن، قال أندريه. أنتِ لا تقبلين ذلك، أنا أعيه جيّداً. لكنّي لم أكن لأصدّق بأنّه قد يصل إلى هذا الحدّ.

– طموحٌ قذر.

– نعم، قال أندريه بتردّد. لكن لماذا؟

– كيف لماذا؟

– قلنا هذا في ذلك المساء: نحن نتحمّل قسماً من المسؤوليّة. تردّد: ـــ الطّموح، أنتِ من زرعه فيه، بالنّسبة إليه كان دائماً خنوعاً. ودون شكّ، لقد أحدثت صراعاً في داخله.

– إنّه خطأ إيرين، انفجرتُ. لو لم يتزوّجها، لو لم يدخل تلك البيئة لما حاد أبداً.

- لكنّه تزوّجها، في قسم كبير لأنّ تلك البيئة فرضت عليه ذلك. مضى وقتٌ طويل لم تكن فيه قيمه هي قيمنا. أرى الأسباب جيّداً...

- لن تدافعَ عنه.

- أحاول أن أشرح موقفي.

- ما من شرح يمكنه أن يقنعني. لن أراه. ولا أريدك أن تراه.

- أنا لا أغالط. أؤنّبه. أؤنّبه بعمق. لكنّي سأستمرّ في لقائه. أنتِ أيضاً.

- لا. لو أنّك خذلتني بعد كلّ ما قاله لي في الهاتف، فسأؤاخذك كما لم أفعل من قبل. لا تحدّثني عنه مجدّداً.

لكنّنا لم نكن قادرين على الحديث في موضوع آخر. تناولنا الغداء بصمت تقريباً، بسرعة، ثمّ تناول كلانا كتاباً. أنا ألوم إيرين وأندريه والعالم بأسره. «نحن نتحمّل قسماً من المسؤوليّة.» آه! كان من الحمق أن أبحث عن أسباب وأعذار. «عنادكم الخرِف»، صرخ بهذه الكلمات. كنتُ متأكّدة جدّاً من حبّه لنا، لي؛ في الواقع لم يكن لي وزن يُذكَر؛ لم أكن أمثّل شيئاً بالنّسبة إليه، غرضاً عتيقاً وجب التخلّص منه في محل خردوات؛ ما كان يجب سوى أن أُدنِيَ من مكانته. خنقتني الضّغينة طوال اللّيل. في الصّباح، عندما خرج أندريه، دخلتُ إلى غرفة فيليب، مزّقتُ الصّحف القديمة ورميتُ بها، والأوراق القديمة؛ وملأتُ حقيبة بكتبه؛ وفي حقيبة أخرى حشوتُ السُّترة والبيجاما، وكلّ ما بقي في الدّولاب. ملأ الدّمعُ عينَيَّ أمام الرّفوف العارية. لاحت لي ذكريات مؤثّرة، هزّتني في الأعماق، ذكريات لذيذة بشكل لا يُصدّق. سحقتُها. لقد تركني، وخانني، واستخفّ بي، وأهانني. أبداً لن أغفر له.

مرّ يومان دون أن نتحدّث عن فيليب. صبيحة اليوم الثّالث ونحنُ نقرأ البريد، قلتُ لأندريه:

- رسالة من فيليب.

- أفترض أنّه يعتذر.

- إنّه يهدر وقته. لن أقرأها.

- أوه! لا بأس. ألقي نظرة. تعرفين كم ستُكلّفه الخطوات الأولى. امنحيه فرصته.

- لا مجال.

طويتُ الرّسالة في مظروف كتبتُ عليه عنوان فيليب.

- ضعها في صندوق البريد، لو سمَحتَ.

كنتُ غالباً ما أضعف أمام ابتساماته الجميلة وجُمَله السّاحرة. لن أنساق هذه المرّة.

بعد يومين، عند بداية الظّهيرة، رنّت إيرين.

- أريد التحدّث معكِ خمس دقائق.

فستان قصير بسيط جدّاً، والذّراعان عاريتان، والشّعر عائم، ونشيطة وخجولة. لم أرها قطُّ في هذا الفستان. دعوتُها للدّخول. طبعاً، جاءت تدافع عن فيليب. إعادة الرّسالة إليه جعله يأسف. كان يعتذر عمّا بدر منه في الهاتف، لم يكن يقصد كلمة واحدة منه، لكنّي أعرف طبيعته، كان سريع الغضب، عندها يقول أيّ شيء، كما اتّفق. كان يريد أن يشرح موقفه.

- لماذا لم يأتِ بنفسه؟

- خشي من أن تطرديه.

- هذا ما كنتُ سأفعله. ليست لي الرّغبة في رؤيته مجدّداً. أبداً. أبداً، ونهائيّاً.

ألحّت. لم يكن يحتمل أن أغضب عليه، لم يتخيّل أنّي سآخذ الأمور بجدّية كبيرة.

- هذا يعني أنّه أصبح أحمق؛ ليذهب إلى الجحيم!

- لكنّك لا تقدّرين حجم الأشياء؛ إنّ أبي نجح بشكل باهر؛ في مثل

سنّه، منصب كهذا هو أمر استثنائيّ. لا يمكنك أن تطلبي منه التّضحية بمستقبله لأجلك.

- كان لديه مستقبل، نظيف، ومتناغم مع أفكاره.

- عذراً: مع أفكارك. لقد تطوّر.

- سيتطوّر، نحنُ نعرف الأغنية؛ سيعدّل مبادئه مع رغباته. في الوقت الحاليّ، هو سابح في سوء النيّة: لا يفكّر سوى في النّجاح. ينكر، ويعرف ذلك، هذا ما أراه بشعاً. قلتُ بتحامُل.

تفحّصتني إيرين:

- أعتقد أنّ حياتكِ كانت دائماً جميلة، وهذا ما يسمح لك بالحكم على الآخرين من أعلى.

أحسستُ بأنّي أتصلّب:

- حاولتُ أن أكون نزيهة ما أمكن. يؤسفني أن تكوني قد غيّرتِ مساره.

أخذت تضحك:

- من يسمع يظنّ أنّه تحوّل إلى لصّ أو إلى محتال.

- بالنّظر إلى قناعاته، أعتقد أنّ اختياره كان غير مُشرّف.

نهضت إيرين:

- مع ذلك، تظلّ هذه الصّرامة مُضحكة، قالت بتأنٍّ. والده الموغل في السّياسة أكثر منك لم يقطع مع فيليب. وأنتِ...

قاطعتُها:

- لم يقطع... تقصدين أنّهما التقيا؟

- لا أدري قالت بقوّة. أعرف فقط أنّه لم يعرّج على قطيعة عندما أطلعه فيليب على قراره.

- كان ذلك قبل المكالمة الهاتفيّة. لكن بعد ذلك؟

- لا أعرف.

- ألا تعرفين من يرى فيليپ ومن لا يرى؟

قالت متضايقة:

- لا.

- ليكن. لا قيمة لكلّ هذا. قلتُ.

رافقتها إلى الباب. استعدتُ في مخيّلتي كلامنا الأخير. هل كان حسمُها من باب الغدر أم الرّعونة؟ لا شيء يغيّر قناعتي، على أيّ حال. تقريباً. ليس ما يكفي كي يهدأ غضبي. لكن ما يكفي كي يخنقني القلق.

حالما عاد أندريه هاجمتُه:

- لِمَ لمْ تخبرني بأنّك رأيتَ فيليپ؟

- من روى لكِ هذا؟

- إيرين. جاءت تسألني لماذا أرفض لقاء فيليپ فيما أنتَ تلتقيه بشكل عاديّ.

- أخبرتُك بأنّي سأظلّ أراه.

- وأنا أخبرتُك بأنّي سأؤاخذك على ذلك للموت. أنتَ من أقنعه بأن يكتب لي، إذن.

- لا.

- بلى، طبعاً. لقد سخرتَ مني. «تعرفين كم ستُكلّفه الخطوات الأولى». وفعلتَها! في الخفاء.

- بالنّسبة إليك، لقد قام بخطوة أولى.

- مدفوعاً من قِبَلِك. لقد تآمرت عليَّ خلف ظهري. لقد عاملتني كطفلة، كمريضة. ليس من حقّك.

فجأة، تكوّن في رأسي دخانٌ أحمر، وضبابٌ أحمرُ أمام عيني، شيء ما ورديّ يسبحُ في حنجرتي. سعاري إزاء فيليپ بات مألوفاً لديَّ، أعرفه جيّداً. لكن أندريه، عندما ـــ نادراً، نادراً جدّاً ـــ أغضب عليه، فإنّ عاصفة تحملُني على بعد آلاف الكيلومترات بعيداً عنه وعن نفسي لتقذف بي في وحدة حارقة ومتجمّدة في آنٍ.

- لم تكذب عليَّ من قبلُ أبداً! إنّها المرّة الأولى.

- لنفترض بأنّي أخطأت.

- أخطأتَ برؤية فيليب، وأخطأتَ بتآمُرِك عليّ معه ومع إيرين، وأخطأتَ لمّا استغفلتني، ولمّا كذبت. إنّها أخطاء كثيرة.

- اسمعيني... هلّا سمعتِني، بهدوء.

- لا. لم أعد أرغب في الكلام معك، ولا رؤيتك، أريد أن أبقى وحدي، أريد هواءً.

- اخرُجي وخذي ما شئتِ من الهواء، وحاولي أن تهدئي، قال لي بجفاف.

خرجتُ إلى الشّوارع، فعلتُ ذلك مثلما كنتُ أفعل لأهدّئ من روعي، واحتقاني، لأتفادى مشاهدَ. فقط، لم يعد لديَّ عشرون، ولا حتّى خمسين سنة، لقد تعبتُ فجأة. دخلتُ مقهى واحتسيتُ كأس نبيذ، كانت عيناىَ مجروحتين جرّاء ضوء النيون المُجرم. انتهى فيليب. تزوّج وانتقل إلى الضفّة الأخرى. لم يعد لديّ سوى أندريه الذي لم يعد لي. كنّا شفّافين أحدنا أمام الآخر، متّحدان، ملتحمان كتوأم ملتصق. لقد تخلّى عن مساندتي وكذب عليّ: وجدت نفسي وحيدة في مقعد. كانت الضّغينة تزيد في نهشي كلّ لحظة يلوح لي فيها وجهه وصوته. كما في تلك الأمراض التي نسبّب آلامها بأنفسنا، كلّ نفسٍ يمزّق رئاتنا، مع ذلك نجد أنفسنا مضطرّين للتنفّس.

غادرتُ وتابعتُ السّير. ماذا إذن؟ تساءلتُ بغباء. لن ننفصل على أيّ حال. سنستمرّ في العيش معاً، وحيدين. سأكتم شكواي إذن، شكوى لا أرغب في نسيانها. يثير غضبي أن يأتي اليوم الذي أنسى فيه سخطي.

عندما عدتُ، وجدتُ كلمة على الطّاولة: «كنتُ في السّينما». دفعتُ باب غرفتنا. كانت بيجاما أندريه ملقاة على السّرير. وعلى الأرض حذاؤه الموكاسان الذي يصلُح له خفّاً منزليّاً، وعلى طاولة السّرير غليوناً وعلبة تبغ وأدوية ضغط الدّم. كان موجوداً، لحظة، بطريقة مزرية كما لو أنّه ابتعد عنّي بسبب مرض أو نفي، ولم يعد في وسعي أن أحسّ بوجوده سوى من خلال أغراضه المهملة. بلغ الدّمعُ مآقِيَّ. ابتلعتُ أقراصاً منوّمة ونمت.

عندما استيقظتُ صباحاً، كان نائماً متقوقعاً، ويده لصق الجدار. أشحتُ بعينَيَّ. لا أشعر بالحماس. كان قلبي جامداً وكئيباً مثل كنيسة خالية حيثُ ما من شمعة واحدة تضيء. الخفان والغليون لم تعد تحرّك عاطفتي؛ ولم تعد تذكّر بغائب عزيز؛ كانت مجرّد امتداد لهذا الكائن الغريب الذي يشاركني السّقف. مفارقة فظيعة هذا الغضب الذي يولد من الحبّ والذي ينتهي بقتل الحبّ.

لم أكلّمه؛ فيما كان يشرب الشّاي في المكتبة، كنتُ في غرفتي. ناداني قبل خروجه، سألني:

- ألا ترغبين في أن نرفع الالتباس؟

- لا.

لم يكن هناك شيء يحتاج إلى تبرير. ذلك الغضب وذاك الألم، قلبي المتصلّب الذي تتحطّم الكلمات على جدرانه.

فكّرتُ في أندريه طوال النّهار وكان هناك شيء يترنّح في رأسي. كما لو أنّي تلقّيتُ صدمة على جمجمتي، تشوّش لها البصر فلم يعد في الإمكان تمييز سوى صورتين في هذا العالم، في مستويين مختلفين، دون القدرة على تمثّل الأعلى من الأسفل. صورتين أحملهما عن أندريه في الماضي، وفي الحاضر، لم تكونا متطابقتين. كان هناك خطأ في مكان ما. كانت لحظة كاذبة: لم يكن هو ولم أكن أنا، وهذه القصّة لا بدّ أنّها تدور في مكان آخر. أو أنّ الماضي كان مجرّد سراب: لقد خُدعتُ في أندريه. لا هذا ولا ذاك، الآن، وقد صرتُ أرى الأشياء بوضوح. الحقيقة هي أنّه تغيّر. شاخ. لم يعد يولي اهتماماً للأشياء. كان تصرّف فيليب كفيلاً بأن يجعله يثور فيما مضى: وها هو الآن يكتفي باللّوم. ما كان يجب أن يتصرّف من وراء ظهري، وما كان يجب أن يكذب. باتت حساسيّته وأخلاقُه خشنتين. هل سيستمرّ في الانحدار؟ لامبالياً أكثر فأكثر... لا أريد. يسمّون ثقل القلب تسامحاً وحكمة: إنّه الموت الذي يستقرّ في داخلك. ليس بعد، ليس الآن.

نُشر في ذلك اليوم أوّل مقال نقديّ لكتابي. اتّهمني «لانتيي» بالتّكرار. إنّه أحمق قديم، يكرهني؛ لكن لمّا كان مزاجي هائجاً فقد ثارت ثائرتي. وددتُ لو أمكنني التحدّث مع أندريه في هذا الشّأن، لكن من المؤكّد أنّه كان سيهادنه؛ لا أريد.

- أغلقتُ المخبر، قال لي في المساء مبتسماً بطيبة. يمكننا الذّهاب إلى «ڤيلنووڤ» Villeneuve وإيطاليا متى شئتِ.

- قرّرنا قضاء هذا الشّهر في باريس، أجبتُ بجفاف.

- كان بإمكانك تغيير رأيك.

- لم أفعل.

اكفهرّ وجه أندريه:

- هل ستستمرّين طويلاً في معاملتك السيّئة لي؟

- أخشى أنّه نعم.

- إذن! أنتِ مخطئة. هذا لا يتناسب مع ما حدث.

- كلّ منّا له مقاييسه.

- مقاييسك شاذّة. كنتِ دائماً الشّخص نفسه. تخفين الحقيقة، بدافع أمل أو تطوّع، وعندما تُفقَأ عيناك أخيراً، تنهارين أو تنفجرين. الأمر الذي يُثير أعصابك، فتُفرغين جام غضبك فيَّ، هو أنّك أعطيتِ فيليب حجماً أكبر منه.

- وأنت لطالما قلّلت من شأنه.

- لا. كلّ ما في الأمر هو أنّي لم أملأ رأسي بالأوهام فيما يتعلّق بقدراته وطبيعته. مع ذلك اتّضح لي أنّي ملأتُ رأسي بالكثير منها.

- الطّفلُ ليس نتيجة في مخبر. إنّه يصير ما أراد له والداه. راهنتَ على خسارته فلم يساعده ذلك كثيراً.

- أنتِ تلعبين كرابحة. أنتِ حرّة. شرط أن تتعلّمي تقبّل الخسارة.

لكنّك لا تحسنين ذلك. تبحثين دائماً عن منسحبين، تغضبين وتتّهمين الثّلث والرّبع، أيّ شيء لأجل أن لا تعترفي بأخطائك.

- أن تهب الحياة لشخص ما، هذا ليس خطأ!

- أوه! متى يأتي اليوم الذي تعترفين فيه بخطئك!

أعرف. في طفولتي كانوا دائماً يحيلون كلّ ما أقوله وأفعله إلى الخطأ، كان يكلّفني الكثير أن أكون على حقّ. لذلك أنفر من نقد نفسي. لكنّي لم أكن في مزاج يسمح لي بمراجعة نفسي. تناولتُ قارورة الويسكي.

- غير معقول! أنتِ من يقيم لي محاكمة!

ملأتُ كأساً وشربتُها بحركة واحدة. وجه أندريه وصوتُه؛ هو نفسُه، آخر، محبوباً، ومكروها، نزل على جسمي هذا التّضارب؛ أعصابي، تقلّصت عضلاتي فيما يشبه الكزاز.

- رفضتِ مناقشة الموضوع بهدوء منذ البداية. بدل ذلك دخلتِ في نوبة ارتعاش... والآن تسكرين؟ هذا حمق، قال وأنا أملأ كأساً ثانية.

- سأسكر لو رغبتُ. هذا ليس من شأنِك. دعني في سلام.

حملتُ القارورة معي إلى غرفتي. تمدّدت على السّرير وفي يدي رواية عن الجاسوسية، كانت القراءة أمراً مستحيلاً. فيليب. شحبت صورة فيليب قليلاً بسبب الغضب الذي تملّكني على أندريه. فجأة ابتسم لي برقّة لا تُقاوَمُ عبر بخار الكحول. بالغتُ في تقديره: لا. أحببتُه في ضعفه: لو كان أقلّ تقلّباً وأقلّ خمولاً، لكان من الممكن أن يحتاج إليَّ بشكل أقلّ. لو لم يكن هناك ما يدعو إلى طلب الصّفح لما كان رقيقاً بذلك الشّكل. طمأنينتنا، ودموعه، وقبلاتنا. كان كلّ ذلك مجرّد هراء. اليوم، الأمر مختلف. ابتلعتُ رشفة كبيرة من الويسكي، بدأت الجدران بالدّوران وأحسستُ بأنّي أغرق.

تسلّل النّور عبر أهدابي. أغمضتُ عينيَّ. كان رأسي ثقيلاً، وكنتُ حزينة حتّى الموت. لا أذكر أحلامي. لقد انحدرتُ صوب فضاءات

سود؛ كانت سائلة وخانقة، كانت متّقدة، وهذا الصّباح، أجد صعوبة في النّهوض. فتحتُ عينيَّ. كان أندريه جالساً في كنبة على طرف السّرير، كان يرمقني مبتسماً:

- صغيرتي، لن نستمرّ هكذا.

إنّه هو، في الماضي، والحاضر، أعرفه. لكنّ قضيب الحديد ما زال في صدري. ارتعشت شفتَاي. أن أتضاءل أكثر، أن أغرق في وحدتي وفي اللّيل. أو أن أمسك بهذه اليد الممدودة. كان يتحدّث بذلك الصّوت الواثق والمطمئن الذي أحبّه. اعترف بأخطائه. لكنّ حديثه مع فيليب يصبّ في مصلحتي. يعرف بأنّنا حزينان جدّاً، لذا قرّر التدخّل فوراً قبل أن يتعكّر ما بيننا أكثر ولا يعود بالإمكان تداركه.

- ليست لديك فكرة كم يؤسفني أن أراك تقرضين نفسك، أنتِ التي كنتِ دائماً مرحة! أفهم أن تكوني قد غضبتِ منّي ساعتها. لكن لا ينبغي أن تنسَي ماذا يمثّل أحدنا للآخر، لن تكنّي لي الضّغينة إلى الأبد.

ابتسمتُ بإنهاك، دنا منّي، وأحاطني بذراعه، تمسّكتُ به، وبكيتُ بهدوء. سال دمعٌ حارٌّ ولذيذ على خدّي. يا لها من راحة! كم هو متعب أن تكره شخصاً تحبّه.

- أعرف لماذا كذبتُ عليكِ، قال لي لاحقاً. لأنّي أكبُر. لو قلتُ لك الحقيقة لتألّفت حكاية؛ لم تكن الأمور لتتوقّف إلّا على ذلك النّحو؛ ترهقني، الآن، فكرة خصومة بيننا. اتّخذتُ الطّريق المختصرة.

- هذا يعني أنّك ستكذب عليّ من هنا فصاعداً؟

- لا، أعدك. من جهة أخرى لن أرى فيليب طوال الوقت، لم يعد هناك ما يقوله أحدنا للآخر.

- تتعبك الخصومات: مع ذلك عنّفتني أمسِ مساءً.

- لا أحتمل العناد من جهتك: كان لا بدّ من العنف.

ابتسمتُ له:

- لعلّك محقّ. كان لا بدّ من إيجاد مخرج.

- أخذني من كتفي:

- هل خرجنا، خرجنا حقّاً؟ لا تؤاخذيني على شيء؟

- أبداً. انتهى.

كان قد انتهى؛ تصالحنا. لكن هل قلنا كلّ شيء؟ بالنّسبة إليَّ، لا. ظلّ هناك أمر عالق في قلبي: تلك الطّريقة التي استسلم بها أندريه للشّيخوخة. لا أريد أن أخوض معه في الموضوع الآن، سأنتظر حتّى تنقشع الغيوم عن سمائنا كلّيّاً وتصبح وادعة تماماً. وهو؟ هل لديه أفكار في هذا الشّأن؟ هل يعتب عليَّ ما أسماه بالتطوّع المتفائل؟ كانت العاصفة أقصر من أن تغيّر شيئاً بيننا: لكن ألم تكن تلك علامة على أنّه منذ وقت -متى؟ - غير قابل للتّمييز ثمّة أمر تغيّر فعلاً؟

قال لي إنّ شيئاً ما تغيّر، ونحنُ نسير في الطّريق في السيّارة بسرعة مئة وأربعين كيلومتراً في السّاعة. كنتُ جالسة بجانب أندريه وعينانا ترى الطّريق نفسه، والسّماء نفسها، لكن طبقة غير مرئيّة وصارمة كانت بيننا. هل انتبه إليها؟ دون شكّ. ما دام قد اقترح هذه الرّحلة، فعلى أمل أن يوقظ تلك التي كانت بيننا فيما مضى، إنّ ذلك من شأنه أن يقرّبنا أكثر؛ ليس ثمّة وجه للشّبه ما دام لا يجد لذّة في ذلك. كان يجب أن أعبّر له عن لطفه؛ لكن لا، كنتُ متألّمة بسبب لامبالاته. كنتُ على وشك أن أرفض، لكنّه كان سيتلقّى صدّي كامتحان خالٍ من حسن النيّة. ماذا يحدث لنا؟ كانت هناك خصومات في حياتنا، لكن لأجل أسباب جادّة؛ متعلّقة بتعليم فيليب مثلاً. كانت خلافات حقيقيّة نصل فيها إلى مستوى من الحدّة، لكن بسرعة وعلى نحو قاطع. هذه المرّة، كانت الخصومة دوّامة دخان، دخان دون نار، وبسبب إفلاسها لم تتلاشَ بعد مرور يومين. ينبغي القول أيضاً بأنّ لنا فيما مضى مصالحة مشاكسة في الفراش؛ في الرّغبة والاضطراب واللذّة؛ كنّا نجد أنفسنا

قبالة بعضنا بعضاً متجدّدين وسعيدين. لم يعد هذا الحلُّ قائماً بيننا. رأيت اللّافتة، اتّسعت عينَيّ.

- ماذا؟ «ميلي»؟ بعد؟ مضت عشرون دقيقة منذ انطلاقنا.

- سرتُ بسرعة، قال أندريه.

«ميلي» Milly عندما كانت أمّي تأخذنا لزيارة جدّتي، يا لها من رحلة! الرّيف، وحقول قمح ذهبيّ شاسعة حيثُ كنّا نقطف الخشخاش. أصبحت هذه القرية أقرب إلى باريس ممّا كانت عليه زمن بالزاك وأوتوي.

وجد أندريه صعوبة في ركن السيّارة، كان يوم السّوق: تجمّع عدد كبير من السيّارات والمترجّلين. تعرّفتُ على الأسواق المغطّاة القديمة، وفندق الأسد الذهبيّ، والمنازل وقرميدها ذات الألوان الأصليّة. إلّا أنّ الأكشاك المنتصبة هنا وهناك قد غيّرت ملامحها، وأوان بلاستيكيّة، وألعاب، ومنسوجات، وعلب مصبّرات، وعطور، ومجوهرات لا تعكس روح القرية: منتشرة في الهواء الطّلق، مونوپري Monoprix وإنّو Inno. أبواب وواجهات زجاجيّة، ومكتبة كبيرة مضيئة، مليئة بالكتب والمجلّات ذات الأغلفة الورقيّة المصقولة. بيت جدّتي، الكائن بين القرية والمدينة، تمّ استبداله ببناية ذات خمسة طوابق أُلحقت بالمنطقة السّكنيّة.

- تريدين كأساً؟

- أوه! لا، قلتُ. هذه ليست «ميلي» خاصّتي.

لم يظلّ شيء على حاله: لا ميلي ولا فيليب ولا أندريه. وأنا؟

- عشرون دقيقة كي نصل إلى «ميلي»، إنّها معجزة، قلت ونحنُ نركبُ السيّارة. إنما فقط، هذه ليست «ميلي».

- نعم. أمر ساحر أن نرى العالم يتغيّر وهو أمر مؤسف في آنٍ واحد. فكّرتُ:

- ستسخر مجدّداً من تفاؤلي: بالنّسبة إليّ هو أمر معجز وكفى.

- بالنّسبة إليَّ أيضاً. المؤسف هو أن نشيخ نحنُ وليست الأشياء.

- لا أوافقك. قد نخسر لكنّنا نربح أيضاً.

- نخسرُ أكثر بكثير ممّا نربح. في الواقع لا أرى ما الذي قد نربحه. هلّا أخبرتني أنتِ؟

- رائع أن يكون خلفك ماضٍ طويل.

- تظنّين أنّ لديك ماضياً طويلاً؟ أنا لا. حاولي أن ترويه.

- أعرف أنّه هنا. إنّه يلقي بظلاله على الحاضر.

- ليكن. وماذا أيضاً؟

ذهنيّاً، نحنُ نسيطر أكثر على المسائل؛ ننسى كثيراً، هذا صحيح، لكن حتّى الأشياء التي ننساها فإنّها تظلّ تحت تصرّفنا بطريقة أو بأخرى.

- ربّما في مجالك. أنا أصير جاهلاً شيئاً فشيئاً لكلّ ما يخرج عن اختصاصي. كي تحدّثيني عن الفيزياء الكمّية عليكِ أوّلاً أن تعيديني إلى الجامعة كأيّ طالب عاديّ.

- لا شيء يمنعك.

- ربّما فعلتُ ذلك.

- هذا مضحك، نحنُ متّفقان في كلّ النّقاط إلّا في مسألة الشّيخوخة: لا أرى ما الذي قد نخسره إذا كبرنا.

ابتسم:

- الشّباب.

- إنّه ليس مزيّة في حدّ ذاته.

- الشّباب هو ما يسمّيه الإيطاليّون «لا ستامينا» *La stamina*: النّسغ، النّار التي تمنح القدرة على الخلق. حين تخسرين هذا، تخسرين كلّ شيء.

تحدّث بنبرة لم أجرؤ حيالها على أن أتّهمه بمسايرتي. شيء ما يقرضه، وأجهله. شيء ما يفزعني ولا أريد معرفته. ربّما هذا ما يفرّق بيننا.

- لن أصدّق أبداً أنّك لم تعد قادراً على الإبداع، قلت.

- قال باشلار: «العلماء العظام مفيدون للعلم خلال النّصف الأوّل من حياتهم، لكنّهم يصبحون مزعجين له في النّصف الثّاني». وأنا يعتبرونني عالماً. كلّ ما أحاول القيام به هو ألّا أربك العلم.

لم أُجب. صواباً كان أم خطأ، كان موقناً بما يقول؛ سيكون من التّفاهة بمكان أن أعارضه. أفهم أنّ تفاؤلي يضايقه أحياناً: إنّها طريقتي كي أتجنّب المعضلة. لكن ما العمل؟ لا يمكنني أن أجابهها نيابة عنه. الأفضل هو أن أصمت. سرنا صامتين في اتّجاه «شامپو» Cahmpeaux.

- واجهة الكنيسة هذه رائعة حقّاً، قال أندريه ونحنُ ندخلها. إنّها تذكّر بكنيسة «سان» Sens، لكنّ أجزاءها أكثر بهجة.

- نعم، جميلة. لا أذكر كنيسة «سان».

- إنّه التّواتُر نفسه بين الأعمدة المعزولة الكبيرة وبين الأعمدة الدّقيقة والمُضاعَفة.

- يا لذاكرتك!

تأمّلنا أجنحة الكنيسة وكورال القدّاس. لم تكن الرّحلات المدرسيّة سيّئة، فبفضلها صعدتُ إلى الأكروپول، لكنّ مزاجي لم يعد هو ذاته زمن السيّارات القديمة التي كنّا نقطع على متنها جزيرة فرنسا. لم يكن كلانا مستمتعاً تماماً. لم أكن أهتمّ كثيراً بتيجان الأعمدة المنحوتة وصدر الكنيسة الحافل بنصب البؤساء التي كانت تسلّينا فيما مضى.

سألني أندريه ونحن نخرج من الكنيسة:

- هل تظنّين أنّ «*السّلمون الذّهبيّ*» لا يزالُ موجوداً؟

- لنرَ.

كان فيما مضى من أماكننا المفضّلة، ذلك الفندق على ضفاف الماء، حيث كان في وسعنا أكل أطباق بسيطة ولذيذة. احتفلنا فيها بأيّام زواجنا الفضّية ثمّ لم نعد مُطلقاً. لم تتغيّر القرية الصّامتة بحجارتها الصّغيرة.

عبرنا الطّريق الكبير في الاتّجاهَيْن: اختفى «*السّلمون الذّهبيّ*». خيّبنا المطعم الذي توقّفنا عنده في الغابة: ربّما لأنّنا أخضعناه إلى مقارنة مع ذكرياتنا.

- والآن، ماذا نفعل؟ قلتُ.

- تحدّثنا عن قصر الوادي Châteaux des vaux، وعن قلاع «بلاندي» Blandy.

- لكن هل لديك الرغبة في زيارتها؟

- لِمَ لا؟

لا يهتمّ كثيراً، أنا مثله. لكن، ونحنُ نسير فوق طرقات صغيرة مكسُوّة بالأوراق، لا أحد منّا تجرأ على أن يبوح بما يجول في خاطره: فيمَ يفكّر الآخر يا ترى؟ في صحراء مستقبله؟ لم أعد قادرة على مجاراته. أحسستُ به وحده بجانبي. كنتُ كذلك أيضاً. حاول فيليب مهاتفتي مرّات عدة. كنتُ في كلّ مرّة أقفل الخطّ حالما أتعرّف على صوتِه. أتساءل. هل كنتُ متطلّبة جدّاً حياله؟ وأندريه متسامحاً بازدراء؟ أيكون قد عانى من هذا التّناقُض؟ أردتُ مناقشة الأمر مع أندريه، لكنّي خشيتُ من أن تنشب بيننا خصومة. طبّقنا برنامجنا. كنّا نقول: «أذكُر جيّداً، لا أذكرُ تماماً، هذه القلاع؛ إنّها رائعة...» لكنّه أمر عديم الجدوى أن ترى الأشياء من جانب واحد. يجب أن يربطك بها مشروع أو سؤال. لم أكن أرى سوى حجارة مُكوّمة فوق بعضها.

لم يقرّب اليومُ بيننا، أحسستُ ونحنُ نعود إلى باريس بأنّ كلينا خاب ظنّه وبأنّه نأينا أكثر عن بعضنا بعضاً. بدا لي أنّنا لن نتكلّم أبداً بعد ذلك اليوم. صحيح، إذن، ما يرويه عن انقطاع التّواصل؟ ولأنّي خرجتُ معه بدافع الغضب، فقد رحنا ضحيّة الصّمتِ والوحدة. هل كنتُ دائماً هكذا، هل كان بدافع تفاؤل حانق أن أكون قد ادّعيتُ العكس؟ «يجب أن نبذل جهداً»، قلتُ لنفسي ونحنُ ننام. «سنتحدّث غداً صباحاً. سنحاول التعمّق في الموضوع». لم تُسوَّ خصومتنا لأنّها كانت في الحقيقة مجرّد

مؤشّر فحسب. ينبغي البدء من الجذور. خصوصاً ألّا نتحاشى التحدّث عن فيليب. موضوع واحد ممنوع، كفيل بسدّ كلّ قنوات الحوار بيننا.

سكبتُ الشّاي وبحثت عن كلمات أفتح بها مجالاً للتّبرير لمّا نطق أندريه:

- هل تعلمين بماذا أرغب؟ الذّهاب حالاً إلى «ڤيلنوڤ» Villeneuve. سأرتاح هناك أفضل من باريس.

هذا هو إذن، ما استخلصه في خاتمة هذا اليوم الضّائع: الهروب بدل البحث عن الاقتراب من بعضنا بعضاً! يحدُث أن يقضي أيّاماً عند أمّه من دوني، شفقة عليها. لكنّها طريقة للهروب من البقاء وجهاً لوجه معي. جرحني ذلك في العمق.

- فكرة رائعة، قلتُ بجفاف. ستُسَرُّ أمّك كثيراً. لنذهب.

طلب منّي بأطراف شفتيه:

- هل ستأتين معي؟

- أنت تعلم جيّداً بأنّي لا أريد مغادرة باريس بهذه السّرعة. سأذهب في الموعد المُقرّر.

- كما تشائين.

كنتُ سأبقى في كلّ الحالات؛ أريد أن أعمل وفي الوقت نفسه أن أرى كيف يُستَقبَلُ كتابي؛ والتحدّث مع الأصدقاء في شأنه. لكنّي احترتُ كيف لم يلحّ أكثر. سألتُ ببرود:

- متى تنوي الذّهاب؟

- لا أدري؛ قريباً. ليس لديّ ما أفعله هنا.

- قريباً يعني ماذا: غداً؟ بعد غد؟

- لِمَ لا غداً صباحاً؟

سنكون بعيدين عن بعضنا بعضاً خمسة عشر يوماً، إذن. لم يكن يبتعد عنّي ثلاثة أو أربعة إلّا بمناسبة مؤتمرات. هل كنتُ صفيقة إلى هذا

الحدّ؟ كان في إمكانه أن يناقش الأمر معي، بدل أن يهرب. مع أنّه لم تكن من شيمه أن يتهرّب. لا يلوح لي سوى تفسير واحد، التّفسير ذاته في كلّ مرة: إنّهما يشيخان. فكّرتُ بسخط: «ليلاعب شيخوخته بعيداً... ما كنتُ لأرفع إصبعاً واحداً لإبقائه.

كان الاتّفاق هو أن يأخذ السيّارة. أمضى اليوم في المستودع وفي شراء بعض اللّوازم وإجراء المكالمات؛ وودّع زملاءه. بالكاد رأيتُه.

عندما ركب سيّارته في اليوم التالي، تبادلنا القُبَل والابتسامات. وجدتُني في المكتبة مندهشة. بدا لي أنّ أندريه يعاقبني بتركي هنا. لا؛ كان يريد فقط أن يتحرّر منّي. هذا كلّ ما في الأمر. حين تلاشى ذهولي، أحسستُ بأنّي خفيفة. الحياة المُشتركة بين اثنين، تحتاج منّا إلى أن نتّخذ القرارات. «متى ساعة الأكل؟ ماذا تريد أن تأكل؟» تتكوّن المشاريع. في الوحدة، يحدث كلّ شيء دون تخطيط مسبق، هذا مريح. أنهض متأخّرة، أظلّ ملتفّة تحت الغطاء الدّافئ، محاولة الإمساك بقطع أحلامي. أقرأ بريدي وأنا أحتسي الشّاي وأغنّي: «أنا بخير... أنا بخير... أنا بخير من دونك». وبين ساعات عملي أخرج للتسكّع.

دام الوضعُ المريح ثلاثة أيّام. رنّ جرسي بشكل متلاحق ظهيرة اليوم الرّابع. شخص واحد يرنّ هكذا. أخذ قلبي يخفق بعنف. سألت من خلف الباب:

- من؟

- افتحي، صرخ فيليب. سأترك إصبعي على الجرس حتّى تفتحي.

فتحتُ وفوراً أحاطني بذراعه وانحنى برأسه على كتفي.

- صغيرتي، عزيزتي، أرجوك، لا تكرهيني. لا أريد أن أعيش مشوّشاً من جهتك. أتوسّل إليك. أحبّك كثيراً!

كان هذا الصّوت المتوسّل يذيب الضّغينة حول قلبي. كان يحبّني، لا يمكنني أن أشكّ في ذلك. هل ثمّة ما يستحقّ خلاف ذلك؟ بلغت

الكلمات القديمة شفَتَيَّ: «ولدي الصّغير»، لكنّي أبعدتها. لم يعد ولداً صغيراً.

- لا تحاول تليين قلبي، لقد أفسدتَ كلّ شيء.

- اسمعي، ربّما أخطأت، ربّما أسأتُ التصرّف. لم أعد أعرف، لم أعد أنام. لكنّي لا أريد أن أخسركِ، ارحميني، لا تجعلي منّي رجلاً تعيساً!

لمعت دموع طفوليّة في مقلتيه. لكنّه لم يعد طفلاً. رجل، وزوج إيرين، ورجل صغير.

- سيكون أنسب، قلت. لقد ضربتَ بلطف، وأنت تعرف بأنّك تحفر خندقاً بيننا. وتريد منّي أن أتقبّل بابتسامة، أن يعود كلّ شيء إلى سالف عهده! لا، ولا.

- أنتِ قاسية جدّاً، طائفيّة جدّاً. ثمّة الكثير من الأبناء والوالدين ممّن يحبّون بعضهم دون أن يكون لهم التوجّه السيّاسيّ ذاته.

- المسألة ليست مجرّد اختلاف في الرّأي. أنت تغيّر مبادئك لأجل الطّموح، بدافع انتهازيّ. هذا هو البشع.

- لكن، لا. لقد تغيّرت أفكاري! لعلّي غير قابل للتّأثّر، لكنّي صرتُ أرى الأمور من زاوية مغايرة. أقسم لك!

- كان عليك، إذن، أن تخبرني بذلك. لا تُعمِل خِدَعَك وراء ظهري ثمّ تضعني أمام الأمر الواقع. لن أسامحك أبداً.

- لم أجرؤ. طريقتك في النّظر إليَّ ترعبني.

- أنتَ دائماً تقول هذا: لم يكن هذا عذراً أبداً في يوم من الأيّام.

- وكنتِ مع ذلك تسامحينني. سامحيني هذه المرّة أيضاً. أتوسّل إليكِ. لا أتحمّل أن تسوء الأمور بيننا.

- لا يمكنني فعل شيء. لقد تصرّفتَ بشكل لا يسعني معه أن أستمرّ في احترامك.

دوّى الرّعدُ في عينيه: أفضّل غضبَه. فغضبه يؤيّد غضبي.

- لديكِ كلمات تقتلني. أنا لم أتساءل يوماً ما إذا كنتُ أحترمك أم لا. لم أكن لأحترمك بشكل أقلّ لو قمتِ بحماقات. الحبّ بالنّسبة إليك استحقاق. لكن، بلى، لقد قمتُ بما في وسعي كي أستحقّ حبّك. جميع رغباتي -أن أصير طيّاراً، أو سائق سيّارات سباق محترف، أو مراسلاً، الحركة، المغامرة- كنتِ تعتبرينها خدعاً؛ ضحّيتُ بها، لأجل إرضائك. وتخاصمينني عند أول مناسبة أرفض فيها مسايرتك.

قاطعتُه:

- أنتَ تغرق السّمك. تصرّفك يثير حفيظتي، لهذا السّبب أرفض رؤيتك.

- يثير حفيظتك لأنّها تتعارض مع مشاريعك. لن أطيعك مدى حياتي، على أيّ حال. أنت طاغية. لا تملكين قلباً في أعماقك، فقط إرادة القوّة. كان في صوته نبرة احتقان وبكاء: ـــ على كلّ! الوداع، اكرهيني حتّى الثّمالة.

خطا نحو الباب، صفقه خلفه. لبثتُ واقفة في المدخل، أفكّر: سيعود. سيظلّ يعود. لن يجد الشّجاعة ليقاوم، ساعتها سأبكي معه. عدتُ إلى المكتبة بعد خمس دقائق، جلستُ وبكيتُ وحدي. «حبيبي الصّغير...» ماذا يعني إنسان راشد؟ طفل منتفخ بالعمر. جرّدتُه من عمره فإذا في الثّانية عشرة، مستحيل أن ألوم طفلاً في مثل هذا السنّ. لكن، لا. إنّه رجل. ما من سبب يجعلني أخفّف حكمي عليه. أيكون لديّ قلبٌ قاسٍ؟ هل هناك أناس قادرون على الحبّ دون حاجة إلى الاحترام؟ ترى أين يبدأ الاحترام وأين ينتهي؟ والحبّ؟ لم أكن لأقلّل من حناني تجاهه لو أنّ حياته كانت سيّئة، ولو أنّه فشل في الجامعة: لأنّه سيكون في حاجة إليه. لو أنّي لم أكن مفيدة بالنّسبة إليه لكن بفخر، لكنتُ اعتبرتُه دائماً عزيزاً. لكنّه يضيع من بين يديّ وأنا أحاكمه. ماذا أصنع به؟

نزل عليّ الحزن ولم يغادرني أبداً. وكوني أتأخّر في الفراش صباحاً، فهذا لأنّي أجد مشقّة في إيقاظ العالم وحياتي. وأتردّد في الانغماس

وحدي داخل رتابة اليوم. حالما أقف، تنتابني أحياناً رغبة في العودة إلى النّوم وعدم النّهوض قبل حلول المساء. أنغمس في العمل، ساعات طويلة، لا أتناول خلالها سوى الفواكه والعصير. حين أتوقّف عند نهاية المساء، يكون رأسي مشتعلاً وعظامي تؤلمني بشدّة. يحدث أن أنام بثقل على الكنبة وعندما أستيقظ يلفّني شعور بذهول قلق: كما لو كان وعيي الآتي من أعماق اللّيل يتردّد قبل أن يتجسّد أخيراً. أو أنّه الدّيكور المألوف الذي كنتُ أتأمّله بعين لا تُصدّق ما ترى: جهة وهميّة وواضحة للعدم الذي غرقتُ فيه. جلتُ ببصري في الأشياء التي حملتها من أنحاء أوروبا. لم يحفظ المكان أثراً لأسفاري، وذاكرتي تهمل ذكرها؛ والدّمى والزهريّات والتّحف كانت جميعها هنا. كان لا شيء قادر على إبهاري. التقاء منديل رأس أحمر مع مخدّة بنفسجيّة: متى رأيتُ نباتات الفوشية آخر مرّة، وأثواب الأسقف والكاردينال خاصّتها، وعضوها الطّويل الدّقيق؟ الفولوبيليس Volubilis المضيئة[4]، الورد البسيط، أزهار العسل، النّرجس، وهي تفتَحُ في بياضها عيونها المذهولة، متى؟ ربّما لم تعد موجودة في العالم، لا يمكنني أن أعرف. لا الزّنبق في المستنقعات، ولا القمح الأسود في الحقول. كانت الأرض من حولي كفرضيّة لا يمكنني اختبارها أبداً. انتزعتُ نفسي من هذه الغيوم، نزلتُ إلى الطّرقات، نظرتُ إلى السّماء، إلى المنازل التي أعيد طلاؤها بالأبيض بشكل سيّئ. لا شيء يلامس قلبي. ضوء القمر وغروب الشّمس، ورائحة الرّبيع المبتلّ، والزّفت السّاخن، وبصيص وموسم، عرفتُ لحظات في توهّج الماس الصّافي؛ لكن دائماً دون عاطفة كبيرة. كانت تنبجس فجأة، هدنة لا أمل فيها، وعد غير متوقّع، من خلال مشاغل تستوعبني بالكامل؛ كنتُ أخرج من المعهد أو من بين الحشود في المترو مسرعة لشدّة فرحي، وبين حصص العمل كنتُ أتلهّف للنّظر عبر الشّرفة، وللقاء أندريه في

4- الفولوبيليس Volubilis: مدينة بربريّة قديمة في المغرب انتقلت إلى الحكم الرّوماني.

الشّارع. الآن بتُّ أمشي في شوارع باريس مُتاحة، ومنتبهة وجامدة بسبب اللّامبالاة. كل سبل التّرفيه التي أجدها عندما أستسلم للعالم تمنعني من رؤيته. وهكذا تجعل ساعات ما بعد الظّهيرة الحارّة والشّمسُ المتسلّلة عبر النّوافذ المغلقة بهاء الصّيف يشرق في داخلي؛ ويعميني لو أنّي واجهتُ فجاجته الحارقة.

عدتُ إلى البيت، هاتفتُ أندريه، أو لعلّه هو الذي اتّصل. كانت أمّه مقاومة كما لم تكن من قبل، رأى رفاقاً قدامى، وتنزّه، واعتنى بالحديقة. ودّه المرح يصيبني بالكآبة. قلتُ في نفسي إنّنا نلتقي في النّقطة ذاتها، مع جدار الصّمت هذا الذي بيننا. الهاتف لا يقرّب، إنّه يؤكّد المسافات. لم نكن اثنين كما في حوار عاديّ بما أنّنا لا نرى بعضنا. لم نكن وحيدين كما أمام الورق الأبيض الذي يتيح الفرصة لمخاطبة الذّات ونحن نخاطب الآخر، وللبحث، ولإيجاد الحقيقة. رغبتُ في أن أكتب له: لكن ماذا؟ لقد أُضيف القلقُ إلى إحساسي بالضّيق. كان على الأصدقاء الذين أرسلتُ إليهم الكتاب أن يكتبوا لي كي يبدوا رأيهم: لا أحد قام بذلك، حتّى مارتين. عدد كبير من المقالات حول العمل تتالت منذ رحل أندريه. مقالات الاثنين أصابتني بالخيبة، والتي صدرت يوم الأربعاء أثارت غضبي، أمّا تلك التي نُشرت يوم الخميس فقد روّعتني. الأقسى بينها تحدّثت عن الثّرثرة؛ الألطف بينها بنت نقدها على نقاط مهمّة حقّاً. لقد غابت طرافة كتابي عنهم جميعاً. هل أكون قد أسأت إظهار أصليّة أفكاري إلى النّور؟ اتّصلتُ بمارتين. قالت إنّ النّقد كان سخيفاً، وإنّه يجب عدم الاكتراث له. وكان يجب أن تنهي الكتاب قبل أن تدلي برأيها، كانت ستنهيه وتفكّر في شأنه في ذلك المساء بالذّات. ستأتي غداً إلى باريس. أحسستُ بمرارة في فمي وأنا أضعُ السمّاعة. لم تشأ مارتين مناقشة الأمر على الهاتف: كان حكمها سلبيّاً إذن. لا أفهم، ليس من عادتي أن أبالغ هكذا فيما أنجزه.

مضت ثلاثة أسابيع على لقائنا في متنزّه «مونتسوري» ـــ ثلاثة أسابيع من بين أسوأ أسابيع حياتي. كان من المفترض أن تسعدني رؤية

مارتين. لكنّي أحسستُ بالقلق ذاته الذي خالجني وأنا أنتظر نتيجة مناظرة الإدماج. بعد وابل من المجاملات السّريعة اندفعتُ:

- إذن؟ ماذا انطبع لديكِ؟

أجابتني بجمل رصينة، لم يكن من الصّعب التخمين بأنّها جهّزتها مسبقاً وبعناية. كان المؤَلّفُ خلاصة رائعة، أضاء نقاطاً غامضة معيّنة، وأوضح بشكل عمليّ الإضافة التي في تجربتي.

- لكن هل قدّم الكتابُ في حدّ ذاته أمراً جديداً؟

- لم يكن هذا هدفه.

- كان هدفي.

ارتبكت؛ ألححتُ، ضايقتُها. حسب رأيها ما قدّمته من طرق، كنتُ قد طبّقتُها في دراسات سابقة؛ شرحتُ ذلك بوضوح في مقاطع عدة. لا، لم أجدّد. إنّها كما قال «پيليسيي» Pelissier تحديداً متيناً للمفاهيم.

- أردتُ أن أقوم بعمل مختلف.

صُعقتُ ولم أصدق في آنٍ واحد، كما ينزل النّبأ السيّئ على المرء. كان الإجماع على الحكم شاقّاً جدّاً. رغم ذلك كنتُ أقول في نفسي: «غير معقول أن أكون مخطئة إلى هذا الحدّ».

في الحديقة التي تناولنا فيها العشاء، اضطُررتُ للقيام بمجهود كبير كي أخفيَ انزعاجي. انتهيتُ بالقول:

- أتساءل إن كان حتميّاً أن يكرّر المرء نفسَه حين يبلغ الستّين.

- أيّ فكرة!

- رسّامون وموسيقيّون وحتّى فلاسفة كثيرون، استطاعوا تجاوز شيخوختهم؛ لكن هل بين الكتّاب من استطاع القيام بذلك؟

- فيكتور هيجو.

- حسناً. لكن من أيضاً؟ توقّف مونتسكيو في التّاسعة والخمسين تقريباً، بعد «*روح القوانين*» الذي كتبه قبل سنوات.

- لا بدّ من أنّ هناك حالات.

- لكنّ أحداً لا يخطر لنا.

- هيّا! لن يصيبك الإحباط، قالت لي مارتين معاتبة. هناك في كلّ تجربة أعمال كبيرة وأخرى متواضعة. لو لم تحققي في هذا العمل ما تطمحين إليه، فيمكنك الثّأر لتجربتك.

- عادة ما يشحذ الفشل همّتي. يختلف الأمر هذه المرّة.

- لا أرى لماذا.

- بسبب العمر. يؤكّد أندريه أنّ العلماء ينتهون قبل الخمسين. الأدب أيضاً، لا بدّ أن يأتي وقتٌ يكتفي فيه الكاتب بمراوحة مكانه.

- أنا على يقين أنّ المسألة لا تنطبق على الأدب، قالت مارتين.

- وبالنّسبة إلى العلوم؟

- لستُ مؤهّلة للردّ.

- لاح لي وجه أندريه. هل عانى خيبتي من قبل؟ مرّة، أو نهائيّاً؟ أو على مراحل؟

- لديكِ علماء بين أصدقائك. ما رأيهم في أندريه؟

- عالم كبير جدّاً.

- لكن كيف يقيّمون أعماله في هذه الفترة؟

- هناك فريق ممتاز، يقوم بعمل مهمّ جدّاً.

- يقول بأنّه يدينُ بأفكاره الجديدة إلى مساعديه.

- هذا مُحتَمَل. يبدو أنّ العلماء يكتشفون بفضل تقدّمهم في السنّ. في العلوم كلّ الحاصلين على جائزة نوبل شبّان تقريباً.

تنهّدتُ:

- أندريه محقّ إذن: لن يكتشف شيئاً أبداً.

- لا نملك الحقّ في استباق ما يخفيه المستقبل. ثمّ إنّه ليس هناك سوى حالات خاصّة. عموم الأشياء لا يقدّم ولا يؤخّر.

- أريد أن أصدّقه، قلت. وغيّرتُ موضوع النّقاش.

قالت لي مارتين متردّدة ونحن نفترق:

- سأقرأ كتابك على مهل لأنّي تسرّعتُ في قراءته.

- لقد قرأتِه جيّداً وهو فاشل. لكن كما قلتِ لا شيء خطير فعلاً.

- البتّة. أنا على يقين أنّك ستكتبين كتباً كثيرة رائعة.

كنتُ تقريباً متأكّدة من العكس لكنّي لم أشأ أن أجادلها.

- لا تزالين في مقتبل العمر! أردَفت.

يُقال لي ذلك أحياناً، فأشعر بالإطراء. فجأة ضايقتني الكلمة. كان مديحاً مبهماً يعلن عن أيّام قادمة صعبة. أن تحتفظ بحيويّتك ومرحك وحضورك الذّهني، لا يعني سوى أن تكون شابّاً. هذا يعني أنّ خلاصة الشّيخوخة هي الرّوتين، والأسى والخرف. لستُ شابّة أنا محافظة على طاقتي فقط. الفرق كبير. محافظة وربّما لم يعد ذلك قائماً بعدُ. تناولتُ أقراصاً منوّمة وخلدتُ إلى النّوم.

عندما استيقظتُ كنتُ وجدتُ نفسي في وضع غريب: محمومة من شدّة القلق. نقلتُ الهاتف إلى وضع المُستخدم الغائب. وشرعتُ في إعادة قراءة روسو ومونتسكيو. قرأتُ عشر ساعات متواصلة، توقّفتُ خلالها فقط لآكُل بيضتين مسلوقتين وقطعة جمبون. تجربة مثيرة للفضول: أن أبعث الحياة في نصوصي الأولى المُهمَلة. أثارت اهتمامي، أدهشتني كما لو أنّ أخرى كتبتها؛ إلّا أنّي تعرّفتُ على تلك المصطلحات، وتلك الجمل المبتورة، وتلك البدايات، والمنحنيات والعادات الخطابيّة؛ كانت الصّفحاتُ مضمّخة بي، كانت خصوصيّة مثيرة للغثيان كرائحة غرفة حبسنا أنفسنا فيها وقتاً طويلاً. اضطُررتُ لتغيير الهواء، للعشاء في مطعم صغير مجاور؛ في بيتي، احتسيتُ أكواباً من القهوة وفتحتُ مُؤَلّفي الأخير. كان حاضراً في مُخيّلتي وكنتُ على علم مسبق بنتيجة هذه المواجهة. كلّ ما لدّي لأقوله قلتُه في دراستي المُفصّلة. اكتفيتُ

بتحديد الأفكار التي انطوت على إضافة من زاوية أخرى. غالطتُ نفسي عندما اعتقدتُ بأنّي أتقدّم. لقد فقدت مناهجي الكثير من الدقّة والمرونة، في منأى عن المضامين التي أخضعتُها إليها. لم آتِ بجديد؛ لا شيء على الإطلاق. وأعرف أنّ الجزء الثّاني لن يتعدّى أن يكون مجرّد خبط عشوائيّ. لقد أمضيتُ ثلاث سنوات في كتابة كتاب لا قيمة له. لم يكن فاشلاً فحسب، مثل غيره، حيثُ كنتُ من خلال التمرّد والتّخمين أفتح أفقاً جديدة. لا فائدة منه. كتاب ينبغي رميه في النّار.

ألّا نطلق أحكاماً مُسبقة على المستقبل. كم يسهل قول هذا. أرى الأشياء جيّداً. إنّها تمتدّ أمامي حتّى انحسار البصر، ومُسطّحة، وعارية. ما من مشروع، وما من رغبة. لن أكتُب مجدّداً. ماذا سأفعلُ إذن؟ يا له من فراغ في داخلي وحولي! لا فائدة. يسمّي الإغريق مُسِنّيهم بالدّبابير. «دبابير عقيمة»، قالت «هيكاب» Hécube [5] في (*الطّروادّيات*). إنّه يتحدّث عنّي. كنتُ مصعوقة. أتساءل كيف للمرء أن يستمرّ في العيش وهو لا يأملُ شيئاً من نفسه.

بدافع حبّ-صرف لم أشأ تأجيل رحيلي، وعبر الهاتف لم أتحدّث مع أندريه في شيء. ولكن كم بدت لي الأيّام الثّلاثة اللّاحقة طويلة جدّاً! شطائر مسطّحة في أغلفتها ذات الألوان الفاقعة، وأحجام مضغوطة فوق الألواح الخشبيّة، لا الموسيقى ولا الجمل كان في وسعهما أن تواسياني. فيما مضى كنتُ أنتظر قادحاً أو راحة. لا أرى الآن سوى ترفيهاً تصيبني مجانيّته بالقرف. الذّهاب إلى معرض فنّي، العودة إلى اللّوفر؟ كم تمنّيتُ استعادة الوقت الذي ينقصني. لكن إن كنتُ، خلال عشرة أيّام مضت، لم أرَ في القصور والكنائس سوى حجارة متراصّة، فإنّ الأمر أكثر تعقيداً في الوقت الحاضر. لا شيء يحدث وأنا أرى لوحة. لم أكن أرى على القماش سوى ألوان خرجت من أنبوب ثمّ طُرحتْ بواسطة فرشاة.

5- «هيكاب» Hécube: هي ملكة طروادة وزوجة بريام وابنة ملك فريجيا، وكانت أمّاً لتسعة عشر من أبناء بريام وعند سقوط طروادة وموت بريام سجنها اليونانيّون.

يصيبني التنزّه بالسّأم، كنتُ قد لاحظتُ ذلك. كان أصدقائي في عطلة، ثمّ إنّي لم أتمنَّ نزاهتهم ولا كذبهم. فيليب... بأيّ عذابٍ أفتقده! أبعدتُ صورته لأنّها تملأ عينَيَّ بالدّمع.

لبثتُ في البيتِ، إذن، أعيدُ الشّريط وآكُل. كان الحرُّ شديداً؛ كنتُ أختنق حتّى لو خفّضتُ السّتائر. توقّف الوقت. كان ذلك رهيباً ـــ وددتُ أن أقول بأنّ هذا غير عادل ـــ بأنّ في وسعه أن يمرّ بسرعة وببطء في آنٍ. حين التحقتُ بالعمل بمعهد «بورغ» كنتُ في سنّ طلبتي تقريباً، كنتُ أنظر بإشفاق للأساتذة ذوي الشّعر الرّماديّ. و... هوب! صرتُ أستاذة عجوزاً، ثمّ أوصد باب المعهد دوني. كانت سنوات المعهد توهمني بأنّي لا أتقدّم في العمر: كنتُ في كلّ مرّة أجد نفسي صغيرة، متلبّسة نوعاً من الثّبات الأبديّ. كنتُ في محيط الزّمن صخرة تضربها دائماً أمواج جديدة، لا هي تتحرّك ولا هي تتآكل. بغتة، حملني المدّ وسيحملني إلى أن ارتطم بالموت. تسارعت حياتي بشكل مأساويّ. وها هي الآن تسيل ببطء فظيع -ساعة بعد ساعة، دقيقة إثر دقيقة. يجب دائماً أن أنتظر حتّى يذوب السُّكّر، وأن تُمحى الذّكريات، وأن يندمل الجرح، وأن تغيب الشّمس، وأن يتبدّد الضّيق. قطيعة غريبة بين إيقاعَيْن. كنتُ أنتظر وكانت الأيّام تهرب.

لم يبقَ لي سوى أمل واحد: أندريه. لكن هل في وسعه أن يملأ الفراغ الذي في أعماقي؟ أين نحن الآن؟ بدءًا ماذا كان يُمثّل كلانا للآخر في هذه الحياة الطّويلة التي نسمّيها مُشتَرَكة؟ كنتُ أرغب في أن أحكم دون خداع نفسي. لأجل ذلك، كان لا بدّ من حوصلة حكايتنا. كنتُ قد قطعتُ عهداً على نفسي بالقيام بذلك. حاولتُ. غائصة في كنبة عميقة، رحتُ أروي لقاءاتنا الأولى، وزواجنا، ومولد فيليب. لم يلُح لي ما لا

أعرفه. كم هذا هزيل! «صحراء الماضي»، قال «شاتوبريان»[6]. معه حقّ للأسف! تخيّلتُ فيما مضى أنّ حياتي التي خلّفتها ورائي ستكون طبيعة جميلة حيثُ سيمكنني التنزّه فيها كما أشاء، مُكتشفة، رويداً، انعطافاتها وطيّاتها. لا. كنتُ قادرة على سرد تواريخ وأسماء، كتلميذ يعرض درسه الذي حفظه جيّداً، حول موضوع غريب عنه تماماً. ومن بعيد، تعود صورٌ مبتورة، وباهتة، مجرّدة كحكايتي القديمة عن فرنسا؛ متقطّعة عشوائيّاً على خلفيّة بيضاء. لم يكن وجه أندريه يتغيّر أبداً على مرّ تلك الذّكريات. توقّفتُ. ما ينبغي القيام به حقّاً، هو التّفكير. هل أحبّني كما أحببتُه؟ في البداية، أظنّ، نعم، أو لعلّ السّؤال لم يكن مطروحاً، على كلينا: كنّا متّفقَيْن. لكن عندما قرّر أنّ عمله لم يعد يرضيه، هل بدا له أنّ حبّنا لم يعد يكفيه؟ هل خاب ظنّه؟ أعتقد أنّه يعتبرني مُعطى، سيقلقه كثيراً أن يغيب، لكنّه لم يكن ليُغيّر شيئاً في قدره، اللّعبة تجري بعيداً. إذن، حتّى تفهّمي لم يكن ليضيف إليه الكثير. هل كانت امرأة أخرى لتنجح في منحه الإضافة؟ الحاجز الذي ارتفع بيننا؟ هو، أنا، كلانا؟ هل هناك أمل في التغلّب عليه؟ تعبتُ من الأسئلة. تتحلّل الكلمات في رأسي: حبّ، وتفاهم، وخلاف، كان ضجيجاً مُفرَغاً من المعنى. هل كان لها معنى؟ عندما وجدتُ نفسي مهمَلَة ذات ظهيرة، لم أكن أعرف تماماً ما ينتظرني.

كان في انتظاري على جادة المحطّة. فجأة حضور حقيقيّ! بعد كلّ تلك الصّور والكلمات وذلك الصّوتُ المفصول عن الجسد. أسمر بفعل الشّمس، نحيف أكثر، بشعر حليق حديثاً، وبنطلون من قماش خشن وقميص قصير الأكمام، كان مختلفاً قليلاً عن أندريه الذي تركتُه، لكنّه كان هو. لم تكن سعادتي واهمة، لم يكن معقولاً أن تتلاشى في ثوانٍ قليلة.

6- «شاتوبريان»: فرانسوا-رينيه دو شاتوبريان François-René de Chateaubriand. 1768-1848م. واحد من أهم الشخصيات في الأدب الفرنسي الرومانسي. تصف روايتُه أتالا (1801م) قصة حب مأساوية بين هنديين من هنود أمريكا الشمالية، والرواية نموذج لاهتمام الرومانسية الأوروبية بالموضوعات البدائية وغير المألوفة.

أم بلى؟ كانت تصرّفاته معي رقيقة وهو يجعلني أتّخذ مكاناً في السيّارة وابتسامات حافلة باللّطف ونحنُ نسير نحو «ڤيلنوڤ» Villeneuve. غير أنّنا كنّا معتادين على التحدّث بأدب ومودّة فيما بيننا حتّى إنّ الإيماءات الرّقيقة لم تعنِ الشّيء الكثير. هل حقّاً كان سعيداً برؤيتي؟

وضعت «مانيت» Manette يدها الجافّة على كتفي، قبلة سريعة على جبيني: «مرحباً طفلي الصّغير». عندما تموت، لا أحد سيدعوني «طفلي الصّغير»، يصعب التّصديق بأنّي أصغر بخمس عشرة سنة منها عند أوّل ظهور لها في حياتي. في الخامسة والأربعين، بدت لي مُسنّة أكثر ممّا هي عليه اليوم.

جلست في الحديقة مع أندريه؛ كانت تفوح من الورد الميّت بفعل الشّمس رائحة حادّة كالشّكوى. قلتُ له:

- صرتَ شابّاً.

- إنّها حياة الرّيف! كيف حالُكِ أنت؟

- بدنيّاً، جيّدة. لكن هل قرأت النّقد؟

- بعضُه.

- لِمَ لم تنبّهني بأنّ كتابي لن يساوِيَ شيئاً؟

- أنتِ تبالغين. إنّه أقلّ اختلافاً عن الآخرين ممّا تظنّين. لكنّه حافل بأشياء مهمّة.

- لم يعجبكَ كثيراً.

- أوه! أنا... لا شيء يدهشني. لا يوجد قارئ أسوأ منّي.

- حتّى مارتين سلّطت عليه حكماً قاسياً؛ وحين فكّرتُ مليّاً، فعلتُ الشّيء نفسه.

- أنتِ تحاولين القيام بأمر صعب للغاية، كنتِ كمن يتحسّس في الظّلام. لكن أعتقد أنّك ترين بوضوح الآن؛ ستتداركين في الجزء الثّاني.

- لا للأسف! هندسة الكتاب خطأ منذ البدء. لقد صرفتُ النّظر.

- قرارٌ متسرّع جدّاً. دعيني أقرأ المخطوط.
- لم أحمله معي. أعرف أنّه سيّئ صدّقني.
رمقني بحيرة. لا أُحبَطُ بسهولة، يعرفني جيّداً.
- ماذا ستفعلين بدل ذلك؟
- لا شيء. ظننتُ أنّ لديّ خبزاً يكفي لسنتين. العدمُ، فجأة.
وضع يده على يدي:
- أفهم أن تكوني متضايقة. لكن لا تسوّطي نفسَكِ كثيراً. حاليّاً، من الطّبيعيّ أن يُخيّم العدم. ثمّ في يوم ما ستخطُرُ لكِ فكرة جديدة.
- أترى كيف نصيرُ متفائلين حين يتعلّق الأمر بالآخر.

أصرّ. كان ذلك هو دورُه. عدّد لي كتّاباً قال إنّه من المهمّ التحدّث إليهم. لكن، ما جدوى أن أعيد قراءة «روسو» و «مونتسكيو»؟ وددتُ لو أنّي وجدتُ زاوية أخرى: لم أجدها. أذكُر الأشياء التي قالها لي أندريه. تلك المقاومة التي حدّثني عنها، لقد وجدتُها في نفسي. كانت مقاربتي للإشكاليّات وعاداتي الفكريّة وآفاقي وفرضيّاتي هي أنا، لا أتخيّلُ لحظة أنّها ستتبدّل. لقد توقّفت تجربتي، انتهى الأمر. لن يتأثّر غروري. لو كان يجب أن أموت اللّيلة لبدا لي أنّ حياتي قد نجحت. إنّما ما يرعبني هي الصّحراء التي يجب أن أجتازها إلى أن يأتي الموت. وجدتُ مشقّة في إظهار مزاج رائق في أثناء العشاء. لحسن الحظّ فإنّ أندريه و«مانيت» قد تخاصما بسبب العلاقات الصينيّة السوفيتيّة.

صعدت إلى غرفتي. باكراً. كانت رائحة الخزامى تضوع في غرفتي، والزّعتر، وإبر الصّنوبر: خُيِّل إليَّ أنّي غادرتها البارحة. مرّت سنة بعدُ! كانت كلّ سنة تمرّ أسرع من التي تسبقها. لا يجب الانتظار طويلاً كي أنام إلى الأبد. مع ذلك أعرف ماذا يعني أن تمرّ السّاعات ببطء شديد. وما زلتُ أحبّ الحياة إلى الحدّ الذي لا تُفلح معه فكرة الموت في مواساتي. في الصّمت الريفيّ، أمكنني أن أنام باسترخاء.

- ألا ترغبين في التنزّه؟ سألني أندريه صبيحة اليوم التالي.

- طبعاً.

- سأطلعك على ركن جميل أعدتُ اكتشافه. على حافّة «غار» Gard [7]. خذي معكِ بدلة حمّام.

- لم أجلب معي.

- ستعيرُك مانيت واحدة. ستَرَيْن، ستُعجبك الفكرة.

اتّبعنا في السيّارة طرقاً غابيّة ضيّقة ومُعبّرة. كان أندريه يتكلّم بفصاحة. منذ سنوات لم يقضِ وقتاً طويلاً كهذا هنا. كان لديه الوقت الكافي ليعيد اكتشاف المنطقة من جديد، أن يلتقي أصدقاء طفولته: إنّه يبدو، بشكل واضح، أكثر شباباً ممّا هو عليه في باريس. لم يفتقدني، كان ذلك ملحوظاً. ترى كم من الوقت سيظلّ مستغنياً عنّي بسرور؟

أوقف السيّارة:

- أترينَ تلك البقعة الخضراء في الأسفل؟ إنّها «غار». كانت في شكل صحن، كانت مثاليّة للسّباحة وكان المكان ساحراً.

- حسناً، الطّريق ما زال طويلاً. يجب أن نصعد.

- ليس متعباً، قمتُ بذلك مرّات عديدة.

نزل المنحدر الشّديد بخطى واثقة. كنتُ أتبعه من بعيد محاولة كبح اندفاعي، وأنا أتلكّأ قليلاً: لن يكون في الأمر ذرّة طرافة لو أصبتُ بكسر أو التواء في سنّي هذا. يمكنني الصّعود بسرعة، لكنّي كنتُ دائماً سيّئة في النّزول.

- أليس المنظر جميلاً؟

- جميلٌ جدّاً.

جلستُ أستظلّ قرب صخرة. كي أسبح، لا. لم أكن أجيد السّباحة. حتّى أمام أندريه، كنتُ أخجل من أن أظهر أمامه في زيّ سباحة. جسمُ

7- «غار» Gard: (مقاطعة جنوب فرنسا سُمّيت على اسم نهر يشقّها «غاردون»).

رجل مُسنّ أقلُّ بشاعة من جسم عجوز، قلتُ في نفسي وأنا أراقب أندريه ينتفض في الماء. ماء أخضر، سماءٌ زرقاء، رائحة غابيّة: أظنّ أنّي هنا أفضل من باريس. لو ألحّ عليَّ لكنّا أتينا إلى هنا مُبكّراً، لكن هذا تحديداً ما لم يُرده.

- جلس بجانبي على الحصى.

- لم تكوني على حقّ، إنّه رائع!

- أنا كأفضل ما يكون هنا.

- كيف وجدتِ أمّي؟ مدهشة، هاه!

- مدهشة. ماذا تفعل خلال اليوم؟

- تقرأ كثيراً؛ وتستمع إلى الرّاديو. عرضتُ عليها أن أشتري لها تلفزيوناً لكنّها رفضت؛ قالت: «لا أدعُ أيّاً كان يدخُل بيتي». تقوم بأعمال الحديقة. تحضر اجتماعات في خليّتها. لم تشعر يوماً بالأسى، كما كانت تقول.

- عموماً، هي تعيش أفضل فترة في حياتها.

- بالتّأكيد. إنّها واحدة من حالات الشّيخوخة السّعيدة: حين نكون قد عِشنا حياة قاسية وممنوحة بالكامل للآخرين.

عندما بدأنا الصّعود كان الحرُّ شديداً؛ كان الطّريق أطول ومضنياً أكثر ممّا وصفه أندريه. كان يمشي بخطوات واسعة؛ وأنا التي كنتُ أصعد بسلاطة لسان فيما مضى، وجدت نفسي أتبعه متأخّرة، بشكل مثير للغضب. كانت الشّمسُ تثقب صدغي، وأصواتُ الاحتضار الحادّة للحشرات العاشقة تثقب أُذُنَيّ؛ أخذتُ ألهث.

- أنت تسرع، قلتُ.

- خذي وقتَكِ. سأنتظرك فوق.

توقّفتُ مبلّلة بالعرق. استأنفتُ السّير. لم تكن لي سيطرة على قلبي أو على أنفاسي؛ كانت ساقاي بالكاد تطيعاني؛ الضّوء يجرحُ عينَيَّ؛ أناشيد الموت والغرام الصّادرة عن الحشرات، برتابة عنيدة، تمزّق أعصابي. وصلتُ إلى السيّارة ملتهبة الرّأس والوجه، بدا لي السّببُ هو الاحتقان.

- لقد متُّ.

- كان عليكِ الصّعود بتأنٍّ.

- لقد حفظتُ الدّروب السّهلة.

عدنا بصمت. أخطأتُ عندما غضبتُ لأجل أمر تافه. كنتُ دائماً عصبيّة: ترى هل سأصبحُ شرسة؟ ينبغي أن أنتبه. لكنّي لا أنجح في تجاوز ما لا يعجبني. وأحسستُ بأنّي لستُ على ما يرام حتّى إنّي خشيتُ ضربة شمس. أكلتُ حبّتَي طماطم واسترخيتُ في غرفتي حيث الأرضيّة وبياضُ الملاءات يعطي انطباعاً وهميّاً بالبرودة. أغمضتُ جفنَيَّ، سمعتُ تيك تاك ساعة الحائط. قلتُ لأندريه: «لا أرى ما قد نخسره بالتقدّم في السنّ». حسناً! الآن أرى. رفضتُ دائماً تناول الحياة من زاوية نظر «فيتزجيرالد» Fitzgerald [8] باعتبارها «مسيرة تدهوُر». كنتُ أتصوّر أنّ علاقاتي مع أندريه لن تتوتّر أبداً، وأنّ أعمالي لن تنفكّ تثرى، وأنّ فيليپ سيقترب يوماً بعد يوم من الرّجل الذي رسمتُه له في خيالي. لم أقلق أبداً في شأن جسمي. بل اعتقدتُ أنّ الصّمتَ يؤتي أكلَه هو أيضاً. أيّ وهم هذا! كلمة «سان-بوف» Saint-Beuve [9] أفضل من كلمة «ڤاليري» Valéry [10]: «نقسو في أماكن، ونتعفّن في أخرى، ولا ننضجُ أبداً». خذلني جسمي. لم أعد قادرة على الكتابة؛ لقد خيّب فيليپ كلّ توقّعاتي، وما آلمني أكثر هو أنّ علاقتي بأندريه كانت في طريقها للتحطّم. أيّ خدعة، النّجاح، هذا الصّعود الذي أثملني والذي سيأتي الوقتُ الذي أتدحرج بسببه! لقد بدأ نزولي. وفي هذه المرّة سيكون أسرع وأبطأ: سنصيرُ عجوزين كبيرين.

8- «فيتزجيرالد» Fitzgerald : كاتب أمريكيّ مولود في هوليوود سنة 1896، وهو زعيم تيّار ما يُسمّى آنذاك بالجيل الضّائع وهو ممثّل عصر الجاز.

9- «سان-بوف» Saint-Beuve : كاتب وناقد فرنسي وُلد في مطلع القرن التّاسع عشر، ويرى أنّه يجب على ناقد المؤلّفات الأدبيّة أن يأخذ بعين الاعتبار حياة الكاتب، لإيمانه بأنّ العمل الأدبيّ هو انعكاس لحياة الكاتب.

10- «ڤاليري» Valéry: پول ڤاليري، كاتب وشاعر وفيلسوف فرنسيّ وُلد سنة 1871.

عندما نزلتُ كانت الحرارةُ قد خفّت؛ كانت مانيت تقرأ بمحاذاة نافذة تطلّ على الحديقة. لم يؤثّر فيها السنّ، لكن ماذا يحدث في أعماقها؟ هل كانت تفكّر في الموت؟ بتعقّل، أم بخوف؟ لم أجرؤ على سؤالها.

– خرج أندريه للعب الكرة الحديديّة، سيعود، قالت لي.

جلستُ قبالتها. على أيّ حال، لن أشبهها لو أنّي بلغتُ الثّمانين، لا أعتقد أنّي كنتُ سأسمّي وحدتي حرّية، وأن أستغلّ كلّ لحظة في حياتي. بالنّسبة إليَّ، ستأخذ منّي الحياة كلّ ما وهبتني إيّاه؛ ولقد بدأت في ذلك فعلاً.

– إذن، قالت لي، غادر فيليب التّعليم؛ هذا ليس صائباً؛ يريد أن يصبح سيّداً عظيماً.

– نعم، للأسف.

– لا يؤمن الشّباب بشيء. ينبغي القول إنكما أيضاً، لا تؤمنان بالشّيء الكثير.

– أنا وأندريه؟ بلى.

– أندريه يعارض كلّ شيء. هنا يكمن خطؤه. لهذا السّبب حاد فيليب. يجب أن يكون المرء إلى جانب أمر ما.

لم تغفر أبداً لأندريه عدم التحاقه بالحزب. لم تكن لديَّ الرّغبة في مناقشة ذلك. رويتُ لها عن نزهة الصّباح وسألتُها:

– أينَ خبّأتِ الصّور؟

إنّها العادة، في كلّ سنة كان عليّ أن أتصفّح الألبوم. لكنّه أبداً لم يستقرّ في مكان واحد.

وضعته على الطّاولة، كما لو كان علبة كرتون. كانت الصّور القديمة نادرة جـدّاً. مانيت في فستان زفاف طويل وصـارم. مجموعة: هي وزوجها، وإخوتهما، وأخواتهما، وجيل بأكمله لم يبقَ منه حيّاً إلّا هي. أندريه طفلاً، بسحنة غاضبة وجادّة. «ريني» في العشرين، بين أخويها. اعتقدنا أنّ شيئاً لن يعزّينا عن موتها؛ أربعٌ وعشرون سنة، كانت تنتظر الكثير من حياتها المقبلة. ماذا جنت؟ كيف تحمّلت عمرها؟ كم بكيتُ

في أوّل مواجهة لي مع الموت. ثمّ بكيتُ بشكل أقلّ: والِدايَ، وأخ أندريه ووالده، والأصدقاء. هذا ما يعنيه أيضاً أن يتقدّم المرء في السنّ. أمواتٌ كثيرون يخلّفهم وراءه، نأسَفُ عليهم ثمّ ننساهم. أحياناً أعلمُ بخبر وفاة جديد وأنا أقرأ الجريدة: كاتب محبوب، أو زميلة، أو مساعد قديم اشتغل مع أندريه، أو أحد رفاقنا السيّاسيّين، أو صديق مضى زمن على لقائه آخر مرّة. ينبغي أن نشعر بالغرابة حين نبقى، تماماً مثل مانيت، الشّاهد الوحيد على عالم بَطُل بالكامل.

- تتصفّحين الصّور؟

مال أندريه على كتفي. أراني صورة له في الحادية عشرة مع رفاق فصله.

- مات أكثر من نصفهم، قال لي. هذا، «پيير» التقيتُه بعدها. وهذا أيضاً. وپول الذي لم يكن في الصّورة. مضت عشرون سنة لم نلتقِ خلالها. بالكاد تعرّفتُ عليهم. لا يمكن التصديق بأنّهم في مثل سنّي: لقد أصبحوا شيوخاً هرمين. أكثر شيخوخة من مانيت. صعقني ذلك في الصّميم.

- بسبب الحياة التي عاشوها؟

- نعم. أن تكون مزارعاً في ركن كهذا، أمر يستنزف الرّجال.

- مقارنة بهم أحسستَ بأنّك لا تزالُ شابّاً.

- لستُ شابّاً تماماً. لكني محظوظ. أغلق الألبوم: ـــــ سآخُذك لتناول كأسٍ في ڤيلنوڤ.

- حسناً.

حدّثني في السيّارة عن مباراة الكرة الحديديّة التي فاز فيها، لقد أحرز تقدّما كبيراً منذ وصوله. استقرّ مزاجُه ولم يبدُ أنّ مشاكلي قد حرّكته، لاحظتُ بمرارة. أوقف السيّارة على حافّة مساحة ممتدّة، حيثُ انتشرت شمسيّاتٌ زرقاء وبرتقاليّة، كان النّاسُ يحتسون تحتها الپاستيس، كانت رائحة الينسون تضوع في الهواء.

طلب لنا أيضاً. خيّم بيننا صمتٌ طويل. قال:

- مكانٌ لطيف.

- لطيف جدّاً.

- تقولين هذا بحزن. هل تفتقدين باريس؟

- أوه! لا. لا أهتمّ بالأماكن هذه الأيّام.

- بالنّاسِ أيضاً، كما أظنّ.

- لماذا تقول هذا؟

- أنتِ لا تتكلّمين تقريباً.

- اعذُرني، لستُ على ما يُرام. لقد اجتمعت شمسٌ كثيرة في رأسي هذا الصّباح.

- أنتِ في العادة مقاومة جيّدة.

- أنا أكبر.

لم يكن صوتي ودوداً. ماذا انتظرتُ من أندريه؟ معجزة؟ ضربة بعصاً سحريّة تحوّل كتابي من رديء إلى جيّد، أن يجعل النّقد في صالحي؟ أو ألّا أهتمّ بخيبتي بسببه؟ لقد قام إلى حدّ الآن بمعجزات كثيرة لأجلي؛ في الوقت الذي كان فيه حيّاً، متعلّقاً بمستقبله، كان حماسُه يغذّي حماسي. كان يمنحني ويجعلني واثقة من نفسي. لقد فقد هذه القدرة. وحتّى لو أنّه حافظ على إيمانه بمصيره الخاصّ فإنّ هذا لم يكن ليكفي كي أطمئنّ على مصيري. أخرج رسالة من جيبه:

- كتب لي فيليب.

- كيف عرف مكانك؟

- هاتفتُه قبل مجيئي لأقول له إلى اللّقاء. روى لي أنّك طردتِه.

- نعم، لا أنكر. لا يمكنني أن أحبّ شخصاً لا أحترمه.

تفحّصني أندريه:

- لا أدري ما إذا كانت نيّتُك صادقة تماماً.

- كيف؟

- تنصّبين نفسَك حكماً على مستوى أخلاقيّ، فيما في الواقع أنتِ تشعرين بالخيبة على المستوى العاطفيّ.

- الاثنان معاً.

خانني وأهملني، نعم؛ الجرح أعمق من أن أرغب في الخوض فيه. سقطنا في الصّمتِ ثانية. هل سيجثم على علاقتنا دائماً؟ زوجان يستمرّان لأنّهما يهتفان، دون سبب: أهذا ما ينتظرنا في الأيّام القادمة؟ أن نقضي خمس عشرة سنة أو عشرين دون ادّعاء من نوع خاصّ، دون غِلّ، لكنّ كليهما في قالبه، مُقيّد بمشاكله، ويلوك خيباته الشّخصيّة، هل بات الحديث بلا جدوى؟ نحنُ نعيش عكس التيّار. في باريس كنتُ أشعر بالغبطة، فيما كان هو قاتماً. وها أنا ألومه لأنّه سعيد، فيما بدأتُ أسقطُ في القتامة.

قمتُ بمجهود:

- سنكون في إيطاليا خلال ثلاثة أيّام. هل يعجِبُك الأمر؟

- ما دام يعجبك أنتَ.

- يعجِبُني لو أعجَبَكِ.

- لأنّك لا تهتمّين بالأماكن؟

- أنتَ أيضاً، لا تهتمّ بالأماكن أحياناً.

لم يُجب. شيء ما تعطّل في حوارنا: كان كلانا يحرّف ما يقوله الآخر. هل سيكون هناك مخرج؟ لماذا غداً بدل اليوم، لماذا روما عوض هنا؟

- حسناً! لنعُد، قلتُ بعد برهة.

قتلنا الأمسية في لعب الورق مع مانيت.

في اليوم التالي رفضتُ مواجهة الشّمسِ وطنين الحشرات. ما الجدوى؟ كنتُ على يقين أنّي سألبث غير معنيّة بأيّ شيء أمام قصر الباباوات، وجسر «غار» كما هو الشّأن في «شُمپو». تعلّلتُ بآلام في رأسي كي أبقى في البيت. جلب أندريه عشرة كتب جديدة، بدأ بقراءة

أحدها. أنا، أعرفها كلها. تفحّصتُ مكتبة مانيت. بعض كلاسيكيّات «غارنيي» Garnier [11] وبعض من مجلّدات الشّعر الفرنسي السّبعة التي أهديناها إيّاها. لم أجد الوقت للعودة إلى الكثير من تلك النّصوص. نسيتُها. مع ذلك ما زلتُ أبدي كسلاً أمام فكرة إعادة قراءتها. تعملُ ذاكرتنا على استحضارها شيئاً فشيئاً، أو هكذا نتوهّم. راحت الحيويّة الأولى. ما الجديد الذي سيضيفه إليَّ هؤلاء الكتّاب الذين صنعوا منّي ما أنا عليه؟ تصفّحتُ بعض المجلّدات؛ كان طعمها مقرفاً مثل كُتُبي: طعم الغبار.

رفعت مانيت عينيها عن جريدتها:

- بدأتُ أصدّق أنّي سأرى بعيْنَيّ أناساً على سطح القمر!

- بعَينيْكِ؟ ستسافرين إلى هناك؟ سأل أندريه بصوت ضاحك.

- أنتَ تفهمني جيّداً. أعرف أنّهم سيصعدون. وسيكونون من الروس يا صغيرتي. الأمريكان بهوائهم النقيّ سيصنعون الملفوف الأبيض.

- نعم، أمّي، ستَرَيْن روساً على القمر، قال أندريه برقّة.

- حين أفكّر في أنّنا بدأنا في الكهوف بأصابعنا العشرة فقط في خدمتنا، أردفتْ مانيت بنبرة حالمة. ووصلنا إلى ما نحنُ فيه: يجب الاعتراف بأنّه عمل مُشجّع.

- صحيح أنّ قصّة الإنسانيّة رائعة، قال أندريه. من المؤسف أن تكون قصّة الإنسان حزينة.

- لن تكون الإنسانيّة سعيدة أبداً الدّهر. لو لم يفجّرها الصّينيّون لعرف أحفادنا الاشتراكيّة. سأعيش خمسين سنة أخرى كي أرى ذلك يتحقّق.

- وأنتَ، صغيري؟

- لا، أمّي، بصراحة لا. يتّخذ التّاريخ طرقاً غريبة يبدو لي معها أنّه لا يهمّني كثيراً. أشعر بأنّي لم أعد أتحمّل. خمسون سنة أخرى!...

11- «غارنيي» Garnier: ماركة عالمية لمستحضرات التّجميل.

- أعرف: أنتَ لم تعد تؤمن بشيء، قالت مانيت باستنكار.

- هذا ليس صحيحاً تماماً.

- بماذا تؤمن؟

- أومن بعذاب النّاس، وبأنّهم شنيعون. يجب القيام بكلّ شيء لأجل إلغائهم. في الواقع، لا شيء يبدو لي مهمّاً.

- إذن، سألت، لمَ لا القنبلة، لمَ لا العدم؟ أن ينفجر كلّ شيء وأن ننهي الأمر.

- أحياناً، نتمنّى ذلك. لكنّي أفضّل التّفكير في احتمال حياة دون معاناة.

- القليل من الحياة لنتمكّن من إنجاز شيء ما، قالت مانيت بوقع نضاليّ.

نبرة أندريه صعقتني؛ لم يكن لامبالياً كما يبدو. «من المؤسف أن تكون حياة الإنسان حزينة». بأيّ صوتٍ نطق ذلك! رمقتُه، تملّكتني عاطفة قويّة ناحيته حتّى إنّ يقيناً اجتاحني. لن نكون أبداً غريبين. يوماً ما، ربّما غداً، سنعثر بعضنا على بعض، ما دام قلبي عثر عليه. بعد العشاء، أنا من اقترح الخروج. سرنا بتأنٍّ نحو قلعة سان-أندريه. سألتُ:

- أتعتقد حقّاً بأنّه لا أهمّية لشيء عدا القضاء على المعاناة؟

- ماذا أيضاً؟

- هذه ليست سعادة.

- لا. على الأقلّ، ليس أقلّ سعادة من عدم معرفة سبيل محاربتها.

صمت برهة:

- أخطأت أمّي لمّا ظنّت أنّنا لا نؤمن بشيء. لكن، تقريباً ما من قضيّة هي قضيّتنا: لسنا مع الاتّحاد السوفيتي. وتنازلاته؛ لسنا مع الصّين أيضاً؛ وفي فرنسا، لسنا مع النّظام ولا مع أيّ حزب معارض.

- وضع غير مريح، قلت.

– هذا يفسّر قليلاً تصرّف فيليب: لا معنى لأن يكون المرء ضدّ كلّ شيء في الثّلاثين من عمره.

– ولا في الستّين. هذه ليست حجّة ليتنصّل أحدنا من أفكاره.

– هل كانت حقّاً أفكاره؟

– ماذا تقصد؟

– أوه! طبعاً، الظّلم والحماقات الكبيرة تجعله يثور. لكنّه لم ينخرط في السّياسة يوماً. لقد تبنّى اختياراتنا لأنّه لم يكن يملك غير ذلك، كان يرى العالم من خلال أعيُننا: لكن إلى أيّ مدى كان مُقتنعاً؟

– والخطر الذي عرّض نفسَه إليه خلال حرب الجزائر؟

– لقد كرهها فعلاً. ثمّ إنّ حمل الحقائب والمُظاهرات، كانت أحداثاً مُشوّقة، ومغامرة. لا يعني ذلك أنّه يساريّ بعمق.

– أيّ طريقة للدّفاع عن فيليب: بهدمِه؟

– لا. أنا لا أهدمه. كلّما فكّرتُ التمستُ له أعذاراً. أنا أقيس درجة وزننا عليه؛ لقد انتهى به الأمر ليحتاج إلى إثبات نفسه ضدّنا، بأيّ ثمن. ثمّ إنّكِ تتحدّثين عن الجزائر: لقد خاب بشكل مُروّع. لم يعرهُ أيٌّ من الذين دافع عنهم بالاً. والرّجل هناك، من كان؟ كان ديغول.

جلسنا على العشب تحت القلعة. كنتُ أسمع صوتَ أندريه، هادئاً ومُقنعاً؛ كان بإمكاننا التحدّث ثانية وفي أعماقي زال شيء ما. فكّرتُ في فيليب دون غضب للمرّة الأولى. ودون غبطة أيضاً، لكن بأريحيّة: ربّما عندما اقترب منّي أندريه فجأة، بهتت صورة فيليب.

– جعلناه يرزح تحت وزننا، نعم، قلتُ بنيّة طيّبة. سألتُ: ـــ أتظنّ أنّه يجب لقاؤه؟

– سيظلّ يتعذّب كثيراً، لو استمرّ الجوّ بينكما متعكّراً: ما الفائدة؟

– لا مصلحة لي في أن أسبّب له الألم. أشعر فقط بأنّي جافّة، هذا كلّ شيء.

– أوه! بالتّأكيد، لن يكون الأمر كما كان عليه بينه وبيننا.

رمقتُ أندريه. بينه وبيني بدا لي أنّ كلّ شيء عاد إلى طبيعته. سطع القمر وأضاء معه النّجم الذي يحرسُه بوفاء ونزلت سكينة في داخلي: «*إيتواليت أنا أراكِ ـــ ليصلني القمر*». وجدتُ الكلمات القديمة في حنجرتي، كما كُتِبَت. إنّها تصلني بالقرون الماضية حيثُ الكواكب كانت تضيء تماماً مثل اليوم. هذا البعث، وهذه الدّيمومة، تعطيني انطباعاً بالخلود. بدت لي الأرض جديدة كما في العصور الأولى، وبدا لي أنّ اللّحظة مكتفية بنفسها. كنتُ هناك، أنظر تحت أقدامنا إلى أسقف القرميد، السّابحة في ضوء القمر، بلا سبب، فقط، للاستمتاع برؤيتها. كان في لامبالاتي سحرٌ غريب.

– هذه هي فضيلة الأدب، قلت. تتحوّر الصّور، وتشحب. فنحمل معنا الكلمات.

– لماذا تفكّرين في ذلك؟ قال أندريه.

سردتُ له بيتَيْ أوكاسان ونيكولات Aucassin et Nicolette [12]. أردفتُ بأسف:

– كم أنّ اللّيالي جميلة هنا!

– نعم. مؤسف حقّاً أن لا تكوني قد أتيتِ قبل اليوم.

انتفضتُ:

– مؤسف! لكنّك لم تكن تريدني أن آتِي إلى هنا!

– أنا؟ مثلاً! كنتِ دائماً ترفضين. عندما قلتُ لكِ: «لمَ لا نذهب إلى ڤيلنوڤ حالاً؟» أجبتِني: «فكرة جميلة. لنذهب».

– غير صحيح. قلت، أذكر حرفيّاً: «ما أريده هو أن أذهب إلى ڤيلنوڤ.» عندها لم تعد تتحمّلني، أردتَ أن ترحل فحسب.

– أنتِ مجنونة! أردتُ القول: أريد أن نذهب إلى ڤيلنوڤ. أجبتِني: اذهَب، بصوتٍ بارد كالجليد. مع ذلك ألححتُ عليكِ.

12– أوكاسان ونيكولات Aucassin et Nicolette (كتاب شعريّ، وهو من الأعمال الأدبية الخالدة. أُلف في نهاية القرن الثاني عشر).

- أوه! من شفتيك فحسب؛ كنتَ حريصاً على أن أرفض.
- أبداً.

كان صادقاً إلى درجة أنّي شككتُ في نفسي. أيُعقَلُ أن أكون قد أسأتُ التّقدير؟ كان المشهد راسخاً في مخيّلتي، لا يمكنني تحريفه. لكنّي كنتُ متأكّدة من أنّه لم يكن يكذب.

- يا للحماقة، قلت. لقد صدمني أن ترحل دوني.
- نعم إنّها حماقة. أتساءل كيف خطر لكِ أن تصدّقي أمراً كهذا!

فكّرتُ:

- كنتُ مرتابة من جانبك.

مكتبة
t.me/t_pdf

- لأنني كذبتُ؟
- بدا لي أنّك تغيّرت من فترة.
- كيف؟
- صرتَ مستسلماً لكونِك شيخاً.
- أنا لا أتظاهر بذلك. أنتِ نفسكِ قلتِ لي بالأمس: أنا أكبر.
- لكنّك مستسلم. على مستويات كثيرة.
- مثلاً؟
- صارت لديكَ عادات؛ طريقتك في جسّ لثّتك.
- آه! هذا...
- ماذا؟
- فكّي ملتهب من تلك الجهة بالذّات، لو ساءت الأمور فإنّ رباط أضراسي سيفلت، يجب أن أحمل مشبكاً. تتصوّرين!

أتصوّر. أحياناً أرى في حلمي أنّ أضراسي سقطت داخل فمي، إنّه العجز حين ينزل عليَّ دفعة واحدة. مشبكاً...

- لمَ لمْ تُخبرني؟
- هناك متاعب يحسن أن نحتفظ بها لأنفسنا.

- لعلّنا مخطئون. بهذه الطّريقة يحدث سوء التّفاهم.
- ربّما. نهض: ـــــ تعالَيْ، سنُصابُ بنزلة برد.
نهضتُ أيضاً. نزلنا المنحدر المُعَشّب بتأنٍّ.
- مع ذلك لعلّك محقّة بقولِكِ إنّي مُستسلم، قال أندريه. لكنّي أتدارك. عندما رأيتُ أناساً أكبر منّي سنّاً، وكيف أنّهم يأخذون الأشياء كما هي، دون نسج حكايات حولها، أنّبتُ نفسي. وقرّرتُ أن أفعل شيئاً.
- آه! هكذا إذن! ظننتُ أنّك استعدتَ مزاجك بفضل غيابي.
- أيّ فكرة هذه! بل العكس، أردتُ ألّا أثقل عليك أكثر. لم أشأ أن أكون هرماً مقرفاً، يكفي أن أكون هرماً لكن مقرفاً فلا.
أخذتُه من ذراعه، ضممته إليَّ. لقد استعدتُ أندريه الذي لم أفقده أبداً والذي لن أفقده أبداً. دخلنا إلى حديقة، جلسنا على مقعد، تحت شجرة سرو. كان القمر ونجمته يضيئان فوق البيت.
- مع ذلك، فالشّيخوخة موجودة، قلت. وليس ظريفاً أن يقول المرء إنّه انتهى.
وضع يده على يدي:
- لا تقولي هذا لنفسك. أعتقد أنّي عرفتُ سبب إخفاقك في المُؤَلّف. لقد انطلقتِ من طموح فارغ: التجديد وتجاوز نفسك. هذا لا يغفر. أن تفهمي روسو ومونتسكيو وأن تحاولي شرحهما للنّاس، ليس مشروعاً حقيقيّاً من النّوع الذي يضيف الكثير. إن كنتِ لا تزالين متعلّقة بهما فيُمكنك القيام بعمل جيّد.
- إجمالاً، سيظلّ عملي على ما هو عليه: لقد عرفتُ حدودي.
- من الجانب النّرجسي، ليس ثمّة ما تربحينه، هذا مؤكّد. لكن يمكنك دائماً لفت انتباه القرّاء، وإثراء ثقافتهم وتحفيزهم على التّفكير.
- أتمنّى ذلك.
- أمّا أنا، فقد اتّخذتُ قراراً. سنة أخرى وأوقف كلّ شيء. سأعود إلى الدّراسة، سأتدارك ما فاتني، سأسدّ ثغراتي.

- تظنّ فعلاً أنّ في وسعك الانطلاق من جديد بشكل جيّد؟
- لا. لكن هناك أشياء أجهلها، والتي أريد أن أعرفها. لأجل معرفتها.
- يرضيك ذلك؟
- لفترة على الأقلّ. لا ينبغي أن ننظر بعيداً جدّاً.
- معكَ حقّ.

لطالما نظرنا بعيداً. أيجب أن نتعلّم العيش بالأسبوع؟ كنّا جالسين بجانب بعضنا بعضاً تحت النّجوم، مغمورين برائحة السّرو الحادّة، يدانا تتلامسان؛ لحظة، توقّف الزّمن. سيستأنف هروبه. ماذا بعد؟ هل سيكون بإمكاني الاستمرار في العمل، نعم أم لا؟ هل سأضعُ حدّاً لضغينتي على فيليب؟ هل سيعاودني قلق الشّيخوخة؟ لا ينبغي النّظر بعيداً جدّاً. بعيداً هناك شبح الموت المرعب والوداع الأخير؛ مشابك الأسنان وعرق النسا والأمراض والعقم الذّهنيّ والوحدة في عالم غريب لم نعد نفهمه ولن نفهمه والذي سيواصل مسيره دوننا. هل سأنجح في عدم التطلّع إلى هذه الآفاق؟ أم هل سأتعلّم كيف ألاحظها دون حرج؟ نحنُ معاً، إنّه حظّنا. سنتساعد بعضنا على عيش هذه التّجربة الأخيرة التي لن نعود منها. هل سيحوّل ذلك الأمرَ مقبولاً؟ لا أدري. أتمنّى ذلك. ليس بيدنا أن نختار.

مونولوج

«كانت تثأرُ بالمونولوج»
• *فلوبير.*

الأوغاد! سحبتُ السّتائر. لم تدخُل أضواء مصابيح الشّارع وأشجار عيد الميلاد إلى الشقّة لكنّ الضّجيج اخترق الجدران. المُحرّكات والمكابح، وها هم يُشغّلون المنبّهات، يظنّون أنّهم ملوك خلف مقود الـ 404 العائليّة وسياراتهم نصف الرّياضيّة وسيّارات الـــ «دوفين» البيضاء. سيّارة مكشوفة بمساند سود: هذا جميل ويأخذون في التّصفير حين أخفّض نظّارتَيَّ فوق أنفي بشكل مائل وعلى رأسي منديل هيرمس Hermès فيما يظنّون أنّهم سيذهلونني بسيّاراتهم القديمة السيّئة الغسل وأصوات منبّهاتهم البشعة! لو أنّ بإمكانهم التّصادم تحت نافذتي لكان ذلك ممتعاً. الأنذال، إنّهم يثقبون طبلة أذني وليس لَدَيّ سدّادات. السّدادات الأخيرة أضغط بها على الهاتف، إنّ ضجيجهم قبيح للغاية وأفضّل أن تنفجر أُذُنَيَّ على أن أسمع هاتفاً لا يرنّ أبداً. أن يقف هذا الصّخب وهذا الصّمت هو أن أنام. لم يغمض لي جفن بالأمس، ولم أستطع، خشيتُ أن يكون اليوم الذي يسبق اليوم. أخذتُ الكثير من المُهدّئات لكنّها لم تنفع. وهذا الطّبيب السّاديّ، لقد وصف لي الدّواء في شكل تحميلة، لن أتمكّن من حشوها مثل مدفع. يجب أن أرتاح، هذا ضروريّ، لا أريد أن أضيّع فرصتي غداً مع «تريستان» Tristan؛

لا دموع ولا صراخ. «إنّها وضعيّة غير عاديّة، حتّى من ناحية الأموال، الطّفل بحاجة إلى أمّه». سيكون عليّ أن أقضي ليلة بيضاء أخرى، سيصل بي التوتّر العصبيّ إلى أقصاه وسأخفق. الأنذال! إنّهم يركضون داخل رأسي، أراهم وأسمعهم. يزدردون كبداً دهنيّاً رديئاً وديكاً روميّاً محروقاً، يلعقونه. ألبير، والسيّدة نارد، وإيتيان، وأبناؤهم وأمّي؛ إنّه أمر ضدّ الطّبيعة أن يفضّل أخي وأمّي زوجي السّابق عليَّ. لا حاجة لي بهم لكنّهم يمنعون عنّي النّوم؛ أصبح السّجن أحقّ بنا، سنعترف بالصّحيح وبالخطأ، أنا قويّة ولن يتمكّنوا منّي.

أيّ حفلة كلاب هذه؛ الأيّام الأخرى أكثر قبحاً! كرهتُ دائماً عيد الميلاد والـ 14 جوييه/ تموز. (عيد الجمهورية الفرنسيّة). رفع أبي نارد على كتفيه كي يرى الألعاب الناريّة وأنا الكبرى أظلّ على الأرض مضغوطة بأجسادهم وفي مستوى أعضائهم ورائحة أعضاء هذا الحشد الشّبِق، وقالت أمّي: «ها هي تبكي ثانية» وضعوا مثلّجات في يدي، لا أريدها، رميتُها فتنهّدوا. لا يمكن أن يصفعوني في أمسية الـ 14 جوييه/ تموز. لم يلمسني هو. كنتُ المُفضّلة لديه: «يا للمرأة الصّغيرة الجميلة». لكن عندما مات لم تنزعج، ورمت على وجهي خواتمه. لم أصفع «سيلفي» مرّة واحدة. كان نارد هو الملك. كانت تصحبه إلى فراشها في الصّباح، كنتُ أسمعهم يدغدغان بعضهما بعضاً يقول إنّ ذلك غير صحيح وإنّي حقيرة، طبعاً لن يعترف، لن يعترف أبداً، لعلّه نسيَ، لقد نسوا ما اقترفوا هم عباقرة وأنا أرمي بهم في الخراء لأنّي أذكُر؛ كانت تروح وتجيء في الماخور الذي هو غرفتها نصف عارية في بينوار حريريّ أبيض مرقّط ومثقوب بالسّجائر يلتصق بفخذيها، هذا يجعل القلب ينتصب الأمّهات اللاتي يجرُرن الذّكور خلفهنّ، كان يجب أن أشبههنّ آه لا! أريد أطفالاً، أطفالاً عفيفين وألاّ يتحوّل فرنسيس إلى مثليٍّ كـــنارد. نارد بأبنائه الخمسة هو شاذّ على أيّ حال لا ينطلي عليَّ ذلك يجب أن تُكره النّساء اللاتي تتزوّجن ثوراً أخرق مثله.

لا شيء يوقفني. كم عددهم؟ في شوارع باريس مئاتُ الآلاف. ومثلُ ذلك في كلّ المدن على سطح الأرض؛ ثلاثة مليارات والوضع يزداد تأزّماً؛ المجاعات ليس ثمّة ما يكفي إنّ عددها يتفاقم؛ حتّى السّماءُ موبوءة قريباً سيتدافعون في الفضاء كما لو أنّهم في طريق سيّارة والقمر لن نتمكّن من رؤيته دون التّفكير في أنّ هناك حمقى يثرثرون على سطحه. أحبّ القمر لأنّه يشبهني؛ لطّخوه كما لطّخوا كلّ شيء، فظيعة هذه الصّور؛ شيء رماديّ مسكين ومُغبَرّ حيثُ أيّ منّا في استطاعته أن يركله بأقدامه.

كنتُ عنيدة من الطّراز الرّفيع. يسري ذلك في دمي منذ طفولتي: ألّا أغشّ. أرى جيّداً تلك الطّفلة في فستانها الإسفنجيّ المضحك، وأمّي وهي تعالجني بشكل سيّئ والسيّدة وهي تقول: «إذن، تحبّون أخاها الأصغر؟» وأجيبُ برصانة: «أكرهه». الصّقيع؛ عينا أمّي. من الطّبيعيّ أنّي كنتُ أشعر بالغيرة، كلّ الكتب تؤكّد ذلك؛ المذهل الذي أعجبني هو أنّي صدّقتُ ذلك. لا تنازل ولا كوميديا: وجدتُ نفسي في جلد هذه المرأة الطيّبة. أنا عفيفة وحقيقيّة ولا ألعب اللّعبة؛ هذا يزعجهم لا يحبّون أن أرى بصفاء أعماقهم يحبّذون أن نصدّق كلامهم الجميل أو أن نتظاهر بذلك على الأقلّ.

وهذه واحدة من مهازلهم: الصّراخ على السُّلّم والضّحك والأصوات المتوهّجة. ماذا، هل انطلق الكلام المنغّم في الهواء في اليوم المحدّد والسّاعة المحدّدة لا لشيء إلّا لأنّنا غيّرنا الرّزنامة؟ عرفتُ كثيراً هذا النّوع من الهيستيريا على مدى حياتي. كثير من النّساء يفعلنها، تجد من يطبع وينشر لها يتكلّمون عنهنّ تختلنَ وسيكون كتابي أفضل من حماقاتهم؛ سال لعابي لكنّي قاومتُ دون كذب ودون تمثيل؛ كم كانوا سيلهثون وهم يرون اسمي وصورتي على الواجهات سيعلم العالم آنذاك الحقيقة. سأدحرج رجالاً كثيرين تحت ساقَيَّ إنّهم متعجرفون، الفظيع هو أن تُشهَر سيرفس بعضهم بعضاً. ربّما التقيتُ بينهم من يحبّني.

كان أبي يحبّني. لا أحد غيره. كلّ شيء جاء من هنا. لم يكن ألبير يفكّر سوى في إشاعة سمعة وسخة عن نفسه أحببتُه الحبّ المجنون يا لي من مجنونة. كم عانيتُ شابّة ومكتملة! لا بدّ من ارتكاب الحماقات هذا مؤكّد؛ لعلّه كاد لي بإخباري بأنّه لا يعرف «أوليفي»؟ مؤامرة قذرة قصمت ظهري فترة طويلة.

يجب أن يحدث ذلك ما داموا يرقصون فوق رأسي. ضاعت ليلتي، إذن. غداً سأستيقظ قطعاً متناثرة ويجب أن أتعاطى منشّطاً كي أرى تريستان وسيُخفقُ ذلك بكلّ تأكيد. لا ينبغي! الأوغاد! لا أملك سوى النّوم في حياتي. الأوغاد. إنّهم يمتلكون الحقّ في تفجير أذُنَيّ وسحقي، إنّهم ينتهزون الفرصة. «المزعجة التي تسكن تحتنا لا يمكن أن تفتح فمها إنّه رأس السّنة». امرحوا سأجد طريقة للنّيل منكم ستصبّ المزعجة الخراء على رؤوسكم لن أسمح لأحد بأن يدوسني. كان ألبير هائجاً: «لا حاجة للقيام بثورة!» حسناً، بلى إنّه سبب إضافيّ! كان يرقص مع «نينا» عضوُه ملاصق لعضوها فاردة نهديها الكبيرين تفوح منها رائحة عطر نتنة خلفها تُشتَمّ رائحة أحواض غسيل الأرجل وهو يقفز منتصب القضيب كأيل. الجنون نعم قمتُ بذلك في حياتي. لبثتُ تلك المرأة الطيّبة التي قالت: «أكرهه» صريحة شجاعة نزيهة.

سيثقبون السّقف ويسقطون على فمي. أراهم من هنا كم هذا مقزّز يحتكّ أحدهم بالآخر عضواً ملاصقاً لعضو تتفاخرن لأنّ عضو رفيقها في الهواء. وكلّ منهم يستعدّ ليُضاجع صديقه الحميم وصديقته الحميمة، سيفعلونها هذه اللّيلة بالذّات في الحمّام ليسوا حتّى ممدّدين بفساتين مُشمّرة إلى الأعلى ملتصقة بأردافهنّ المتعرّقة. قد ينزلقون إلى الجنس الجماعي الزّوجان في الأعلى في الخمسين من العمر في مثل هذا السنّ يجب البحث عن طرق جديدة لجعله يدخل. أنا على يقين أنّ ألبير وزوجته يشاركون «كريستين» الجنس بفم قادر على القيام بكلّ شيء دون حرج. مسكينة أنا كنتُ محتشمة وساذجة في العشرين من

عمري. منعرج مثير للشّفقة كنتُ أستحقّ أن يحبّني أحدهم. آه! كنتُ محبطة بشكل وسخ لم تمنحني الحياة هدايا.

اللّعنة أكاد أموت من العطش، وجائعة، لكنّ النّهوض من كنبتي والذّهاب إلى المطبخ أمر قاتل بالنّسبة إليّ. نجمد في هذا المكان فقط لو دفعتُ الموقد قليلاً سيجفّ الهواء بالكامل ولن يعود في فمي لعاب أبداً وأنفي يحرقني. كم هي بشعة حضارتهم. يمكنهم الذّهاب إلى القمر ولا يمكنهم تدفئة شقّة. لو كانوا حقّاً أذكياء لصنعوا روبوتاً يأتيني بعصير الغلال كلّما احتجتُ إلى ذلك، وأن يعتني بالبيت دون أن أُضطَرّ إلى التأدّب معهم وسماع غوغائهم.

لن تأتي ماريت غداً، هذا أفضل لأنّي سئمتُ سرطان والدها العجوز. هذه أيضاً ساعدتُها في خطواتها الأولى، وها هي الآن تملأ مكانها. هناك بينهم من لا يعنيهم ارتداء القفّازين أثناء الغسيل ويلعبون الداما هذا ما لا أطيقُه. لا أريد أن تكون من أطفال القمامة، وأن يُعثَر على شعر في الصّلطة وآثار أصابع على الباب. تريستان أحمق كبير. عاملات النّظافة أعاملهنّ بلطف. لكنّي أريد منهنّ أن تقمن بعملهنّ دون حكايات ودون أن أُضطَر إلى سماع قصص حياتهنّ. لأجل ذلك ينبغي تدريبهم كما تُدرّب الأطفال كي يكونوا صالحين.

تريستان لم يُدرّب فرنسيس؛ ماريت القحبة إنّها تتركني في ورطة؛ سيصبح الصّالون حظيرة خنازير بعد زيارتهم. سيأتون محمّلين بهديّة صغيرة سيقبّل بعضنا بعضاً بتملّق، وسأقدّم لهم الحلوى وستسرد لي فرنسيس الأجوبة التي لقّنها إيّاها والدها بصفته رجلاً مُحترماً. لو كنت في مكانه كنتُ سأصنع منها ابنة جيّدة. سأقول لتريستان: الطّفل المحروم من أمّه لا تنجح حياته سيتحوّل إلى منحرف أو إلى خرقة، أنتَ لا تتمنّى هذا. يقرفني صوتي المتّزن؛ وددتُ لو كان في استطاعتي أن أصرخ: إنّه أمر مخالف للطّبيعة أن ننتزع طفلاً من أمّه! لكنّي أحتاج إليه. «هدّديه بالطّلاق» قالت «ديدي» ضحك. الرّجال يستأثرون بالقانون لأنفسهم ويتداولونه فيما

بينهم، هذا غير عادل، إنّ يده طائلة جدّاً كي يجعل حكم الطّلاق ضدّي. ستؤول حضانة فرنسيس إليه ولن يدفع لي فلساً وأحصل على البيت! ما من حيلة أمام هذه المساومة القذرة: شقّة مقابل فرنسيس. أنا تحت رحمته. ودون أموال نحن لا شيء، ولا يمكننا أن ندافع عن أنفسنا، نحن صِفرَان. أيّ خرقاء كنتُ، لم أكترث للأموال! لم أنبش المغارة كما ينبغي. لو أنّي بقيتُ مع «فلورون» لكوّنتُ ثروة جميلة. لقد خدعني تريستان بالشّغف، فأشفقتُ عليه. وها هي النّتيجة! هذا المتورّم الذي يزعم أنّه نابوليون مسح بي الأرض لأنّي لم أدخل في هستيريا وأنا أجثو على ركبَتَيَّ أمامه. سأحاصره. سأقول له إنّي سأخبر الصّغير بالحقيقة كاملة. لستُ مريضة أعيشُ وحدي لأنّ والدَك الوغد أهملني غمرني ثمّ عذّبني، بل لقد وصل به الأمر إلى رفع يده عليَّ. أن أدخل في نوبة عصبيّة أمام الطّفل، وأن أفتح وريدي فوق ممسحة الأرجل، هذا وغيره لديَّ أسلحتي التي سأستعملها وسأستحضرها لن أتعفّن وحدي في هذا الكوخ مع هؤلاء الناس فوقي وهم يدوسونني بأقدامهم، وهؤلاء الجيران الذين يوقظونني كلّ صباح براديوهاتهم، ولا أحد منهم يأتيني بطعام أسكّن به جوعي. كلّ المهازل لديهنّ، رجل يحميهنّ وأطفال يخدموهنّ وأنا صفر: لا يمكن لهذا أن يستمرّ. ها هي خمسة عشر يوماً والسبّاك يماطلني لأنّي امرأة وحيدة يظنّون أنّه مسموح لهم بكلّ شيء معي، هذا منتهى الخسّة، النّاس يدوسونك إذا صرتَ ملقى على الأرض. حصّنتُ نفسي، وقاومتُ لكنّهم يبصقون على امرأة وحيدة. الحاجب يضحك ساخراً. عند العاشرة صباحاً يسمح القانون بالاستماع إلى الرّاديو: مخطئون لو كانوا يظنّون أنّهم يبهرونني بهذه الكلمات الكبيرة. نلتُ منهم بالهاتف أربع ليالٍ متواصلة. يعرفون أنّه أنا. لكن من المستحيل ضبطي. لقد تسلّيتُ كثيراً؛ وضعوا الهاتف في وضع المشترك الغائب. سأجد طريقة أخرى. ماذا؟ لا يمكن السّيطرة على قطيع ينام في اللّيل ويعمل في النّهار ويتنزّه يوم الأحد. رجلٌ تحت سقفي. عندها سيأتي السبّاك ويحيّيني الحاجب بأدب وسيضع الجيران سدّادات أذنين. اللّعنة! أريد أن أُحتَرم. أريد زوجي، وابني، وبيتي ككلّ النّاس.

سيكون رائعاً أن أصطحب طفلاً في الحادية عشرة من العمر إلى حديقة الحيوانات. سأربّيه بسرعة. سيكون أسهل من «سيلفي». ألقت إليَّ بالخيط المضفور الرّخو والملتوي مثل هذا القرموط ألبير. أوه! عزيزتي المسكينة، أنا لا ألومها. كلّهم جعلوها تتطاول عليَّ وكان لديها السنُّ التي تكره فيها كلّ الفتيات أمّهاتهنّ. يسمّون هذا، التّناقض، لكنّه في الواقع البغضاء. مرّة أخرى واحدة من تلك الحقائق التي تجعلهم يتذمّرون. تعرّقت «إيتيان» من السّعار عندما أريتُها الدّفتر الخاصّ بكلودين. فضّلت ألّا ترى مثل النّساء اللّاتي لا يذهبن إلى الطّبيب خوفاً من أن يتّضح أن لديهنّ سرطاناً. وإذن تبقى المرأة الأمّ المثاليّة للبنت اللّطيفة. لم تكن سيلفي لطيفة، عرفتُ ذلك لمّا قرأتُ دفترها الخاصّ؛ لكنّي أواجه الأشياء. لم أضطرب وانتظرتُ أن يأتي اليوم الذي تفهم فيه وتلتمس لي الأعذار. أنا صبورة، لم أرفع يدي عليها يوماً. أدافع عن نفسي، هذا مؤكّد. قلتُ لها: «لن تنالي منّي». بسبب عناد البغل الذي لديها، ظلّت ساعات وأيّاماً تبكي لأجل نزوة. لم يكن هناك أيُّ سبب يجعلُها تلتقي «تريستان» ثانية. الفتاة في حاجة إلى أب، يحملونني على معرفة ذلك؛ لكنّ أحداً لم يقل إنّها في حاجة إلى اثنين. ألبير مجنون. سيأخذ كلّ ما سيكفله له القانون، وفوق ذلك يجب أن أحاربه، سيعفّن حياتها إن لم أدخل معه في خصام. يهديها فساتين غير مؤدّبة. لا أريد أن تصبح ابنتي عاهرة مثل أمّها. تنانير قصيرة وصبغة على الوجه في السّبعين من العمر! عندما تقاطعتُ معها في الطّريق في ذلك اليوم، انتقلتُ إلى رصيف آخر. وهي على ذلك الشّكل المُهين، لو طلبت أن نتصالح لقبلتُ بوجه مشرق. من المؤكّد أنّ الغبار لا يزالُ ثائراً عندها فيما يتعلّق بالأموال. بتلك المبالغ التي تهدرها في صالونات التّجميل يمكنها أن تستأجر مُعينة منزليّة.

توقّفت المنبّهات، أفضّل تلك الضّوضاء على سماع جلبة الشّارع؛ والأبوابُ تُصَفق. يصرخون ويضحكون وهناك بينهم من كان يغنّي، إنّهم

سُكارى بعدُ ويستمرّ اجتماعهم فوقي. إنّهم يجعلونني مريضة. فمي كالعجينة والبثور التي في فخذي تخيفني. أحتاط جيّداً، لا آكل سوى الموادّ النّظاميّة لكن هناك أناساً يضعون أيديهم عليها، نظيفة نوعاً ما، لكنّ الصحّة لا وجود لها على هذه الأرض والهواءُ ملوّث، ليس فقط بسبب السيّارات والمصانع، لكن أيضاً بسبب ملايين الأفواه القذرة التي تبتلعه وتنفثه من الصّباح حتّى المساء؛ حين أفكّر بأنّي أسبح في أنفاسهم تتملّكني الرّغبة في الهروب إلى عمق الصّحراء؛ كيف نحافظ على جسم سليم في عالم موبوء. نحنُ مُصابون بسبب كلّ تلك الخنازير، مع ذلك كنتُ صافية ونظيفة ولا أريد أن يعفّروني. لا أحد سيتطوّع لمعالجتي لو أنّي قرّرتُ أن ألزم فراشي. يمكنني أن أموت بهذا القلب المُنهَك. لا أحد سيعلم عنّي شيئاً. هذا يفزعني. ثمّة جيفة خلف الباب. أنا أنتن، أخرأ تحتي. ستقرض الجرذان أنفي. أن أموت وحدي وأعيش وحدي، لا أريد. أحتاجُ إلى رجل. أريد أن يعود إليَّ تريستان. عالم الخراء، إنّهم يصرخون ويضحكون وأنا أجفّ هنا واقفة وحدي؛ ثلاث وأربعون سنة، هذا مُبكّر جدّاً، أريد أن أعيش، هذا ليس عدلاً. وُلدتُ للحياة الرّاقية: السيّارات المكشوفة والفساتين والمنازل وكلّ هذا. فلورون يدفع جيّداً، هذا لا مراء فيه ـــ لكن في السّرير ما يجب يجب ـــ لم يكن يرغب سوى في مضاجعتي واصطحابي إلى العلب اللّيلية للسّهر والتّباهي بي، كنتُ جذّابة. خلال سنواتي الذّهبيّة كانت صديقاتي تحترقن غيرة منّي. يؤلمني أن أتذكّر تلك الفترة، لا أحد يخرج معي. أظلّ هنا لأخرأ فقط. سئمتُ.

تريستان الوغد. أريده أن يدعُوَني إلى المطاعم والمسارح. سأطالب بذلك، لا أطالب بأكثر من ذلك. كلّ ما يحسن فعله هو أن يأتي إلى هنا وحده أو مع الطّفل. يُلوّح لي بابتسامات قبيحة ثمّ بعد ساعة يكون قد

أفلس. لا حركة حتّى هذه اللّيلة! الوغد! ما أقترفه في حقّ نفسي ليس إنسانيّاً أبداً. لو استطعتُ أن أنام فإنّي سأنجح في قتل الوقت. لكن هناك هذا الضّجيج في الخارج. يتهكّمون داخل رأسي: «إنّها تعيش وحيدة تماماً». سيضحكون ضحكات صفراً حين يعود إليَّ تريستان. سيعود، سأجبره على ذلك. سأعود إلى صالونات الخياطة والأمسيات والكوكتيل وستظهر صوري في مجلة «ڤوچ» في فستان عاري الظّهر. لن يخشى نهدَيَّ أحد. «هل رأيتَ صورة «ميريال»؟» سأركبُهم بشكل شنيع وسيروي لهم فرنسيس نزهاتنا في حديقة الحيوانات والسّرك وقصر المُثلّجات. سأدلّله. سيقف افتراؤهم وكذبهم في منتصف حناجرهم. يا للحقد! واضحاً، واضحاً جدّاً. يكرهون أن نرى دواخلهم بوضوح؛ أنا حقيقيّة، لا ألعب اللّعبة. سأنزع الأقنعة عن الوجوه. لن يغفروا لي ذلك. امرأة تستعرّ من ابنتها، إنّه أغرب ما في الحياة. رمتني بين ذراعيْ ألبير كي تتخلّص منّي، لأسباب أخرى أيضاً. لا. أرفض التّصديق. كم كان غبيّاً هذا الزّواج، أنا المرأة الملتهبة الشّغوفة أتزوّج ذلك الإمّعة البورجوازيّ صاحب القلب البارد والعضو الشّبيه بالمعكرونة. أعرف أيّ رجل يناسب سيلڤي. أنا أسيطر عليها، هذا صحيح، لكنّي كنتُ دائماً حنوناً ومُستعدّة للتّحاور معها. كنتُ أريد أن أكون صديقتها المُقرّبة وكنتُ على استعداد لتقبيل يد أمّي لو أنّها أحسنت التصرّف معي. لكن يا لها من جاحدة! ماتت ثمّ ماذا؟ الأموات ليسوا قدّيسين. لم تتعاون معي يوماً ولم تكن تبوح لي بشيء. كان لديها شخص في حياتها، شابّ أو فتاة. جيل مُدَمّر. لكنّها تماسكت. ما من رسالة في درجها وما من صفحة واحدة في دفترها منذ سنوات؛ لو أنّها لا تزال تكتب فمؤكّد أنّها تخفيه جيّداً. حتّى بعد موتها لم أجد شيئاً. كنتُ مسعورة في قلبي لأنّي كنتُ أقوم بواجب الأمّ. أنا الأنانيّة. عندما هربت كان يُفترض أن تكون مصلحتي في تركها لوالدها. ما زالت أمامي فرصة لأعيد حياتي دونها. لقد قسوتُ لفائدتها. كريستين مع قطع الزّبدة الثّلاث خاصّتها، كانت ستفرح كثيراً بمجيء فتاة في الخامسة عشرة من عمرها لتقوم بكلّ الأعمال بدلاً عنها. لم

تكن في كامل وعيها عندما أصابتها نوبة أعصاب أمام البوليس... نعم البوليس. هذا مزعج. البوليس لم يوجَد للكلاب. يعرض عليّ ألبير الأموال كي أتخلّى عن سيلڤي! الأموال دائماً. كم أنّ الرّجال سافلون. لا حاجة لي بأمواله، إنّها مبالغ ضئيلة أمام ما يمنحني إيّاه تريستان. حتّى في الخصاصة لم أكن لأبيع ابنتي. «انسَي أمر هذه الفتاة، إنّها لن تجلب لك سوى المتاعب» قالت لي «ديدي». إنّها لا تفهم ماذا يعني أمّ، لم تفكّر يوماً سوى في ملذّاتها. لكن لا يعقل أن نأخذ دائماً، يجب أن نتعلّم كيف نمنح. لديَّ الكثير لأقدّمه لسيلڤي، كنتُ سأصنع منها ابنة جيّدة؛ ولم أكن لأطلب منها شيئاً. كنتُ سأتفانى. يا للجحود! كان من الطّبيعيّ أن أطلب المعونة من البروفيسور. كانت سيلڤي تحبّها حسب دفتر مذكّراتها وأظنّ أنّها كانت ستخرس، هذه المُثقّفة المتقوقعة. مؤكّد أنّ ما يجمع بينهما أكبر ممّا أتوقّعه. ظللتُ بريئة. لم أكن أرى الشرّ أبداً. هؤلاء الدّماغيّون كلّهم مثليّون. صراخ سيلڤي ثمّ أمّي التي تحذّرني في الهاتف قائلة إنّي لا أملك الحقّ في التدخّل في علاقات ابنتي مع صديقاتها مستخدمة كلمة *تطفّل*. «آه في هذه لا تتطفّلي. وأحذّرك من العودة إلى هذا ثانية». بكلّ فجاجة. وأقفلتُ الخطّ. أمّي كائن مُعادٍ للطّبيعة. انتهى الأمر بسيلڤي بأن تنتبه إلى ذلك. دمّرني ذلك في المقبرة. قلتُ لنفسي: «لاحقاً ستعطيني الحقّ». الذّكريات الرّهيبة، والسّماء الزّرقاء، وكلّ تلك الزّهور، ألبير باكياً أمام الجميع، الجميع. إلهي لقد تماسك الجميع. أنا تماسكتُ مع أنّي على يقين أنّي لن أنهض بعد هذه الصّدمة أبداً. إنّه أنا من كانوا يدفنون. لقد دُفنتُ. اتّحدوا جميعاً كي يدفنوني. حتّى في تلك اللّيلة ما من بصيص حياة. يعرفون جيّداً أنّ في ليالي الاحتفالات حيثُ يضحك الجميع ويأكلون ويُضاجعون، يلوح الانتحار سهلاً أمام الوحيدين والحزانى. يرضيهم أن أختفي، يتمنّون رؤيتي وأنا أنزل في الرّتبة، أنا شوكة في ملابسهم الدّاخليّة. آه! لا! لن أتيح لهم هذه الفرصة السّعيدة. أريد أن أعيش. أريد أن أعيش. سيعود إليَّ تريستان، ستنصفني العدالة، سأخرج من هذا المضيق. لو أنّي أستطيع التحدّث معه لأحسست بأنّي

أفضل ولأمكنني أن أنام. يفترض أن يكون في بيته، ينامُ مبكّراً، مقتصداً طاقته. أن أكون هادئة وودودة، وأن لا أزعجه، ودون ذلك ستضيع ليلتي.

لا يجيب. إمّا أنّه ليس هناك أو أنّه لا يريد أن يجيب. عطّل الخطّ. لا يريد سماعي. يحكمون عليَّ يدينونني ولا أحد يريد سماعي. لم أعاقب سيلڤي يوماً قبل أن أسمعها، كانت هي من يسدّ الطّريق بيننا ويرفض التحدّث. بالأمس بالذّات لم يمنحني فرصة قول ربع ما أودّ قوله وسمعتُه يتثاءب من الجهة الأخرى للخطّ. هذا محبِط. أحلّل وأفسّر وأبرهن؛ خطوة خطوة بصبر سأقيم عليهم الحجّة، أتخيّل بأنّهم يتابعونني ثمّ أتساءل: «ماذا كنتُ أقول؟» لا يعلمون، ويحشون آذانهم بسدّادات ذهنيّة، وحين تتغلغل إليهم جملة فإنّهم يجيبون بترّهات. أعيد من البداية وأستجمع حججاً أخرى: اللّعبة نفسها. كان ألبير بطلاً في ذلك، وتريستان أيضاً، لم يكن سيّئاً في هذه اللّعبة. «يجب أن تأخذني إلى المصيف مع الطّفل». لا يجيب، ويخوض موضوعاً آخر. الأطفال مُجبَرون على الإصغاء، لكنّهم يتصرّفون، إنّهم ينسون بسرعة. «سيلڤي، ماذا قلتُ؟ ـــ قلتِ إنّنا عندما نكون فوضويّين في أشياء صغيرة فهذا يعني أنّنا فوضويّون في مسائل كبيرة، وأنّه يجب ترتيب غرفتي قبل الخروج». ثمّ في اليوم التالي لا ترتّبها. عندما كنتُ أجبر تريستان على سماعي ولا يكون قادراً على الاعتراض ـــ الطّفل بحاجة إلى أمّه، لا تستطيع أمّ أن تنسى ابنها، هذا بدهيّ حتّى بأفظع سوء نيّة في العالم لا يمكن إنكار ذلك ـــ عندها يقفز إلى الباب وينزل الطّوابق أربعاً أربعاً فيما ألبث أنا أصرخ في قفص السُّلّم وأتوقّف بسرعة خشية أن يعتقد الجيران بأنّي معتوهة؛ هذا جبان، يعرف جيّداً أنّي أمقت الفضائح حتّى إنّ لي سمعة سيّئة: لا بدّ أنّ سلوكهم غريب وأخرق، كانت سمعتي سيّئة إلى درجة أنّ أقاربي صاروا كذلك أيضاً. آه! اللّعنة. لذلك يجب أن أتصرّف بتهذيب دائماً، يدمّر دُبُري هدوء تريستان وضحكه الصّاخب وصوتُه الخشن، كنتُ أتمنّى موتَه عندما كان يثرثر مع سيلڤي أمام الجميع.

الرّيح! فجأة عصف بعنف، كنتُ أتمنّى كارثة كبيرة تمسحني أنا والجميع. يريحني أن أموت بإعصار أو عاصفة ولا يبقى أحد ليفكّر فيَّ؛ وأن أترك لهم جثّتي، أما حياتي فلا! لكن أن نسقط جميعاً في العدم فسيكون أمراً جيّداً؛ تعبتُ من محاربتهم وحدي، يضطهدونني حتّى وأنا وحدي، هذا مرهق، متى ينتهي ذلك! للأسف! لن أحصل على إعصاري، لم أحصل في حياتي على شيء أحبّه. ريح عاديّ جدّاً، ضعيف، لن يقدر سوى على اقتلاع بعض المداخن والقرميد. كلّ شيء خسيس في هذا العالم، الطّبيعة والبشر. وحدي أنا من يحلم حلماً كبيراً ويجدر أن أصرف النّظر، فكلّ شيء يخيّبني دائماً.

ربّما يجدر بي أن أحشو أشيائي في دبري وأنام. لكن لأنّي حيّة جدّاً فمن المؤكّد أنّي سأضطرب في الفراش. لو أنّي تحصّلتُ عليه في الهاتف وتكلّمنا بلطف لكنتُ هدأت. لكنّه يبول على كلّ هذا. اجتاحتني ذكريات حارقة. أدعوه فلا يجيب. ألّا أزعجه، ألّا أبدأ بإزعاجه، يُفسد دائماً كلّ ما بيننا. خائفة من الغد. يجب أن أكون جاهزة قبل الرّابعة، يجب ألّا أغمض عينَيَّ، سأنزل لشراء الكعك الذي سيسحقه فرنسيس على الموكيت. سيُكسّر أجد تُحفي. هذا الطّفل ليس مؤدّباً وأخرق كأبيه الذي يترك الرّماد في كلّ مكان وحين أقدّم ملاحظة فإنّ تريستان يحرقني، لم يستوعب يوماً في حياته أنّه أمر عظيم أن أهتمّ بنظافة بيتي. الآن، الصّالون رائع، نقيّ وبرّاق مثل قمر الأيّام الخوالي. غداً عند السّابعة سيكون كلّ شيء قذراً، ويجب أن أقوم بحملة تنظيف وغسيل كما أعرف. سيضطرّني أن أشرح له الأشياء من الألف إلى الياء. إنّه قويّ. كم أنا حمقاء، كيف تركتُ فلورون لأجله! كنّا متّفقين أنا وفلورون؛ هو يدفع وأنا كنتُ مُمدّدة، كان ذلك أنقى من الحكايات التي تُروى فيها الحكايات. كنتُ عاطفيّة جدّاً، وأظنّ أنّه برهان قاطع على الحبّ أن عرض عليَّ الزّواج، وكانت هناك سيلڤي الجاحدة الصّغيرة، أردتُ أن يكون لها بيت حقيقيّ وأمّ مُخلصة، أمّ متزوّجة، زوجة موظّف في بنك. يدمّر أعصابي أن ألعب

دور امرأة مجتمع وأن أخالط أناساً مقرفين. ليس غريباً أن أنفجر من حين إلى آخر. «تصرّفتِ بشكل غير لائق مع تريستان» قالت لي «ديدي». ولاحقاً: «حذّرتُكِ!» صحيح أنّي متحرّرة، أركبُ النقّالات، ولا أجري الحسابات أبداً. لعلّي كنتُ سأتعلّم كيف أبلي من دون الحرمان. يصبّ تريستان على رأسي الخراء، سأجعله على بيّنة من ذلك. النّاسُ لا يقبلون أن نُريهم حقيقتهم. يريدون منّا أن نصدّق أحاديثهم الجميلة أو على الأقلّ أن نتظاهر بذلك. أنا قويّة وصريحة وعلى استعداد لانتزاع الأقنعة. السيّدة التي تُغنّي: «هل تحبّون الأخ الأصغر؟» وأنا بصوت رصين أقول: «أكرهه». ظللتُ تلك المرأة الصّغيرة التي تقول ما تفكّر فيه دون غشّ. تُؤلم نهدَيَّ رُؤيته يلقي المواعظ والأغبياء أمامه على رُكبهم. أرمي كلماته بحذائي الغليظ وأجعلها تتضاءل أمامهم: التقدّم والازدهار ومستقبل الإنسانيّة والسّعادة لكلّ النّاس ومُساعدة دُوَل الحضيض والسّلم في العالم. لستُ عنصريّة لكنّي أستمني باليهود بالملاعين وبالزّنوج كما أستمني بالأمريكان وبالصينيّين وبالرّوس وبالفرنسيّين. أستمني بالإنسانيّة. ماذا قدّمت لي أتساءل. إن كانوا أغبياء إلى حدّ قتل بعضهم بعضاً وذبح بعضهم بعضاً وتفجير بعضهم بعضاً بقنابل الناپالم، وإفناء بعضهم بعضاً، فلن أذرف دمعة واحدة لأجلهم. مليون طفل مُثّل بهم ثمّ ماذا بعد؟ الأطفالُ كانوا دائماً بذرة الأوغاد إنّهم يجعلون الكوكب مُكتظّاً، إذن ماذا؟ لو كنتُ الأرض لأزعجني هذا الدّود الذي على ظهري، كنتُ سأتحرّك لأزيحهم. سأحبّ الموت لو ماتوا جميعاً. لن يرقّ قلبي على أطفال ليسوا أطفالي. ابنتي ماتت وسرقوا ابني.

كنتُ سأحتلّه من جديد. كنتُ سأصنع منه رجلاً جيّداً. لكن يلزمني الوقت. لم يكن تريستان القذر يساعدني، عندما كنّا نتشاجر كان يقول مدفوعاً بالضيق: «اتركيها بسلام». ليس جيّداً أن يكون لنا أطفال إنّه لا يحملون لنا سوى المآسي. كما قالت «ديدي». كان معه حقّ. لكن عندما يكون لدينا أطفال فعلينا أن نحسن تربيتهم. كان تريستان دائماً من جانب سيلڤي؛ حتّى

لو كنتُ مخطئة ـــ لنفترض أنّ هذا قد حصل فعلاً ـــ أمر بغيض أن يقلّل أحد الوالدين من شأن الآخر. كان يساندها حتّى وأنا على حقّ. فيما يتعلّق بالصّغيرة «جان»؛ يثير لديّ شعور بالشّفقة وأنا أفكّر في نظرتها المُبلّلة الجميلة؛ فتاة صغيرة: قد يكون أمراً رائعاً. إنّها تذكّرني بطفولتي، بهندام رديء مُهمَل، وأحمل آثار صفعة جديدة وجرّ جديد على الأرض من قبل أمّي. كنتُ دائماً على وشك البكاء؛ تجدني جذّابة، تداعب فروي، تؤدّي لي بعض الخدمات الصّغيرة، وأنا أعطيها بعض النّقود خلسة وأعطيها الحلوى، قطّتي المسكينة. كان لديها عمر سيلفي. كم وددتُ لو كانتا صديقتين، لكنّ سيلفي خيّبتني. كانت تغمغم: «أشعر بالضّجر مع جان». فسّرتُ لها أنّها ناقصة قلب، كنتُ أوبّخها وأعاقبها. كان تريستان يدافع عنها بذريعة أنّ الصّداقة لا تُفرَضُ فرضاً. دامت تلك الخصومة فترة طويلة. كنتُ أريد أن أعلّم سيلفي السّخاء، الصّغيرة جان هي التي تدنّست في الأخير.

هدأ الجوّ قليلاً في الأعلى. خطوات وأصواتٌ على السُّلّم. أبوابٌ تُصفق. ما زالت طبولهم تُقرع لكنّ أحداً لم يعد يرقص. أكاد أجزم. إنّها ساعة ممارسة الجنس في المخدع وعلى الكنبة وعلى الأرض وفي السيّارات. إنّها ساعة القيء حيثُ يخرجون الدّيكة الرّوميّة والكافيار. هذا مقرف، أشعر بأنّي أشتمّ رائحة القيء، سأشعل البخور. لو أنّي أستطيع النّوم لكنّي لا أشعر بالنّعاس. ما زال الفجر بعيداً، إنّها ساعة كئيبة وسيلفي ماتت دون أن تفهمني، لن أُشفى من ذلك أبداً. رائحة البخور هي ذاتها رائحة الخدمات الجنائزيّة؛ الشّمع وزهور التّوابيت: يأسي. ميّتة؛ مستحيل! بقيتُ ساعات وساعات بجانب جثّتها لكن لا، ستستيقظ، وسأستيقظ. قدر كبير من الصّراع والمآسي والتّضحيات: بلا جدوى. لن أترك شيئاً للصّدفة؛ وأنكى أنواع الصّدف اعترض سبيلي. ماتت سيلفي. مضت خمسُ سنوات. لقد ماتت. إلى الأبد. لا أتحمّل ذلك. النّجدة، أغيثوني، أنا أتألّم بشدّة، ليُخرجني أحدكم من هنا لا أريد أن يتكرّر التّدهور، لا، ساعدوني، لم أعد قادرة، لا تتركوني وحيدة...

بمن سأتّصل؟ ألبير وبرنارد يقفلان الخطّ فوراً؛ كان يبكي أمام الجميع لكنّه أكل بنهم ولعب، ووحدي بقيتُ أتذكّر وأبكي. أمّي؛ الأمّ تبقى أمّاً، لم أرتكب شيئاً في حقّها، بل هي من أفسدت طفولتي وشتمتني، لقد تجرّأت على أن تقول لي... أريدها أن تسحب ما قالته لن أستطيع العيش مع هذه الصّرخة في أذُنَيَّ. ما من فتاة ترضى أن تعيش ملعونة من قِبَلِ أمّها حتّى لو كانت آخر مومس.

«أأنتِ من اتّصل بي؟... يثير ذلك استغرابي لكنّه أمر قد يحدث في ليلة ما، لكن أخيراً، كان يمكن أيضاً أن يحدث في ليلة مشابهة أن تفكّري في شجني وأن تقولي لا يمكن أن تظلّ العلاقة متوتّرة إلى الممات بين الأمّ وابنتها؛ خصوصاً أنّي لا أرى سبباً لمؤاخذتك إيّايَ... لا تصرخي هكذا...».

أقفلت الخطّ. تريد السّكينة. العاهرة، إنّها تصبّ الحامض على رأسي وتريدني أن أخرس. يا للكراهية! كانت دائماً تكرهني، بحجر واحد أصابت هدفين بتزويجها إيّايَ من ألبير: ضمنت لذّتها وشقائي. لا أريد أن أصدّق ذلك لأنّي نقيّة وبيضاء لكن هذا واضح. هي من غرز فيه الرّمح خلال درس الجيم وهي من أرسلتها في داخلها وسِخة مثلها، لا شيء قبيح في أن تحشوها في داخلها لكن مع الرّجال الذين مرّوا بجسمها يفترض أن تكون قد تعلّمت أشياء كثيرة، كانت من النّوع الذي يركب الرّجال كالحصان، أراها من هنا، كانت مقزّزة إلى حدّ كبير طريقة النّساء الطيّبات في مضاجعة الرّجال. كانت عجوزاً كي تحافظ على ذلك، لقد استخدمتني، ضحكوا خلف ظهري واستأنفوا؛ كانت محمَرّة بالكامل يوم عدتُ فجأة. في أيّ سنّ توقّفت؟ لعلّها تهدي نفسها بعض العشّاق الشّبان من حين إلى آخر، كانت أقلّ فقراً ممّا تزعم، لا بدّ أنّها احتفظت ببعض المجوهرات التي راحت تهدرها رويداً. أعتقد أنّ المرء يتشبّع بمبدأ التّراجع بدءًا من الخمسين؛ أنا تراجعتُ منذ دخولي في الحداد. لم يعد يهمّني، حجّرتُ على نفسي تلك الأشياء، لم تثر

رغبتي حتّى في أحلامي. تلك المومياء، مجرّد تخيل ما بين فخذيها يثير الاشمئزاز، إنّها تقطر عطوراً، لكن في الأعلى كانت تضع الأصباغ والكريم، لم تكن تغتسل أبداً. عندما كانت تتظاهر بالنّوم فلتُظهر دُبُرها لنانارد. ابنها، صهرُها: «لديكِ الوحل في الرّأس». يحسنون فعل ذلك. لو قيل لهم إنّهم جميعاً يسبحون في الخراء، قالوا بل أنتِ من لديكِ أقدام وسِخة. صديقاتي الوفيّات جميعهنّ يتمنّين مضاجعتي. النّساء، يا لهنّ من دُبال، والآخر يصرخ في وجهي: «أنتِ حقيرة». الغيرة ليست حقارة، إنّها الحبّ الحقيقيّ بأظفاره ومنقاره. لم أكن من أولئك اللّاتي يقبلن بمقاسمتهنّ الحبيب، والجنس الجماعي مثل كريستين. أردتُ أن نكوّن زوجين نظيفين، زوجين جيّدين. أعرف كيف أتماسك، لكنّي لستُ ممسحة، الانفجارات لم ترعبني يوماً. لم أسمح لأحد بأن يستهين بي، في إمكاني استحضارَ ماضيَّ: لا شيء قبيح، ولا شيء بشع. لكنّي كنتُ الشّحرور الأبيض.

أيّها الشّحرور الأبيض المسكين: أنتَ وحيد في العالم. ما يُزعجهم هو أنّي شخصٌ جيّد. يريدون إلغائي وحبسي في قفص. حبيسة مُخبّأة، سينتهي بي الأمر بالتّأكيد إلى الموت. يبدو أنّ الرّضيع قد يحدث له ذلك لو أنّ أحداً لم يهتمّ به. الجريمة الكاملة التي لا تترك آثاراً خلفها. مضت خمسُ سنوات من العذاب. ذاك الأحمق تريستان قال لي: لديكِ مالٌ كثير، سافري. ما يكفي من الأموال لأسافر بشكل مهلهل مثلما كنتُ أفعل مع ألبير: لا شيء يعود. الفقر سيّئ دائماً إذا تعلّق الأمر بالسّفر! لستُ مُتكبّرة، فقد جعلتُ تريستان يرى بعينيه أنّ قصور البذخ والنّساء اللّاتي يرتدين كامل حليّهنّ وضجّة الأبواب لا تستهويني أبداً. لكنّ غرف الدّرجة الثّانية والحانات الرّديئة آه! لا! أغطية مُريبة وأغلفة وسِخة، النّوم في عرق الآخرين، وسط قذاراتهم والأكل بأوانٍ سيّئة الغسيل، ثمّة ما يسهّل الإصابة بالسّرطان أو الجدري، حيثُ الرّوائح تبعثُ على القيء؛ دون اعتبار إصابتي بالإمساك إلى حدّ الموت لأنّ

المراحيض حيثُ الجميع يتبرّز، تسدّني تماماً؛ أخوّة الخراء لا تساوي الكثير بالنّسبة إليَّ. ثمّ ماذا يعني أن أتنزّه وحدي؟ مع ديدي، أتسلّى كثيراً، كان ذلك منتهى الشّياكة؛ فتاتان في سيّارة مكشوفة وشعور تحملها الرّيح؛ في روما ليلاً في البيازا ديل پاپولو، كنّا نمرح بشكل مجنون يثير الغرابة. لهوتُ أيضاً مع أصدقاء آخرين. لكن وحدي! في مثل سنّي كيف نبدو على الشّاطئ وفي الكازينو حين لا يكون برفقتنا رجل؟ أخذتُ نصيبي من المتاحف والمعالم الأثريّة مع تريستان. لستُ هستيريّة، ولا أقع في غيبوبة أمام أعمدة مهدّمة أو بيوت عتيقة متداعية. أناس القرون الماضية أنا أبول عليهم، لقد ماتوا وهذا فقط ما يميّزهم عن الأحياء لأنّهم عندما كانوا أحياء كانوا مقرفين هم أيضاً. البديع: هو ألّا أتحرّك؛ من العفن الذي يفوح من الملابس الملوّثة ومن الكرنب الملفوف، كم على الإنسان أن يكون متكبّراً كي يقع في الفخّ! هذا منتشر في كلّ مكان ويحدث دائماً، أن يأكلوا البطاطا المقليّة أو الپاييلا أو البيتزا إنّه التشرّد ذاتُه، تشرّد وسِخ، الأغنياء الذين يُلطّخون كلّ شيء، الفقراء الذين يريدون مالك، المُسنّون الذين يروحون ويجيئون، الشّبان الذين يهزؤون من كلّ شيء، الرّجال الذين يختالون، النّساء اللّاتي يفرجن أفخاذهنّ. أفضّل أن أمكث في حفرتي وأقرأ روايات سوداً رغم أنّها أصبحت حمقاء جدّاً. التلفزيون أيضاً، يا لعصابة الأوغاد! خُلقتُ للعيش في كوكب آخر، لقد أخطأتُ الوجهة.

لماذا يحدثون الضجّة، تماماً تحت نافذتي؟ قرّروا المكوث هناك بجانب سيّاراتهم، كأنّهم لا ينوون المغادرة. ما الذي قد يرويه بعضهم لبعض؟ مقرفون، ومقرفات همجيّون بلباسهم القصير وجواربهنّ الطّويلة، أتمنّى لهم الهلاك، ليست لديهنّ أمّهات إذن؟ والأولاد بشعورهنّ إلى مستوى الرّقبة. هؤلاء من بعيد، يبدون نظيفين. هؤلاء المسرورون الذين يربّون القمل، لو كان محافظ الشّرطة حازماً قليلاً لرمى بهم في السّجن. يا لهذا الجيل الشابّ! يتعاطون المخدّرات ويتضاجعون ولا يحترمون

أحداً. سأدلق على رؤوسهم سطل ماء. إنّهم قادرون على اقتحام البيت وكسر فمي. أنا دون حماية، يجدر بي أن أغلق النّافذة. يبدو أنّ ابنة «روز» من هذا النّوع، تتظاهر «روز» بأنّها الأخت الكبرى، إنّهما لا تفترقان، مثل دُبر وقميص. الغريب أنّها كانت تمسك بها بقوّة، بل كانت تلطمها أحياناً، لم تكن تكلّف نفسها مشقّة تعقيلها، كانت اعتباطيّة وصاحبة نزوات؛ أكره النّزوات. أوه! سيكون أمام «روز» غد فظيع، قالتها «ديدي» بشكل جيّد، قالت إنّ دانيال ستعود إليها حاملاً... أنا كنتُ سأربّي سيلفي جيّداً. كنتُ سأمنحها الفساتين والمجوهرات، كنتُ سأفتخر بها وكنّا سنخرج معاً. لا توجد عدالة. حين أفكّر في الأمّ التي كنتُها! اعترف تريستان بذلك؛ أجبرتُه على الاعتراف بذلك. ثمّ ماذا، صرخ في وجهي بأنّه لن يترك لي فرنسيس؛ يضرب بالمنطق عرض الحائط، يقولون أيّ شيء ثمّ يهربون ركضاً. نزل الدّرجات أربعاً أربعاً فيما كنتُ أصرخ في قفص السُّلّم. لن ينال منّي بذلك الشّكل. سأجبره على أن يعيد إليَّ حقوقي: أقسم برأسي. سيعيد لي مكاني في البيت ومكانتي على الأرض. سأصنع من فرنسيس ولداً جيّداً، سيعرفون أيّ أمّ أكون.

يرسلني هؤلاء الأوغاد إلى الموت. مصارعة الغد تقتلني. أريد أريد أريد أريد أريد. سأقرأ طالعي بنفسي. لا. في حالة حدوث مكروه سأرمي بنفسي من النّافذة، لا أريد، سيدخلون في شكوى لا تنتهي. يجب أن أفكّر في أمر آخر. في أشياء سعيدة. ابنُ «بوردو» الصّغير. لا أحد منّا ينتظر شيئاً من الآخر، لم نكن نتساءل، لم نكن نعد بعضنا بعضاً بأيّ شيء، كنّا ننام معاً، كان كلانا يحبّ الآخر. دام ذلك ثلاثة أسابيع غادر بعدها إلى أفريقيا. بكيتُ، وبكيتُ. تريحني تلك الذّكرى. أشياء كتلك تحدث مرّة واحدة في الحياة. خسارة! حين تعاودني تلك الذّكرى أفكّر أنّه لو أحبّني أحدهم لصرتُ الرقّة نفسها. الزّبالة، لقد قطعوني، لقد سخروا من الثّلث ومن الرّبع، كلّ منّا مُعرّض للموت في زاوية، قد يضاجع الرّجالُ النّساء وتُداعب الأمّهات أعضاء أبنائهن، دون حكايات وبأفواه مخيطة، يقزّزني

ذلك الحذر وألّا يكون لدى المرء الشّجاعة في مبادئه. «أخوكِ بخيل، يجب الاعتراف» ألبير هو الذي لفت انتباهي إلى ذلك، يجب القول إنّي أكثر نبلاً من أن أقف عند أشياء كهذه، لكن صحيح أنّه يأكل ثلاث مرّات أكثر منّا، وأنّنا نوزّع الحساب على ألفَيْ أمر كهذا. ثمّ يلومني: «ما كان عليكِ أن تعيدي له». في الشّاطئ قُدّمت المرطّبات. كانت إيتيان تبكي بدموع كالشّحم على خدّيها. «الآن وقد صار يعلم، سيُصلح نفسه» أجبتُها. كنتُ ساذجة: ظننتُ أنّ في وسعهم إصلاح أنفسهم، وأنّنا بتعقيلهم يمكننا تربيتهم. «هيّا سيلفي، فكّري قليلاً، تعلمين كم ثمن هذا الفستان؟ وكم مرّة سيكون عليك أن تلبسيه؟ سنعيدُه». كان على كلّ شيء أن يبدأ من جديد، لقد سئمت. ظلّ نانارد بخيلاً حتّى آخر يوم في حياته. ألبير يزداد خداعاً وكذباً وغموضاً. تريستان ظلّ دائماً مكتفياً ودؤوباً على إلقاء المواعظ. حطّمتُ دُبُري لأجل لا شيء. عندما حاولتُ تعليم إيتيان كيف تلبس، صرخ نانارد في وجهي: لديها اثنتان وعشرون سنة وأنوي جعلها تتنكّر في هيئة مُدرّسة عجوز! استمرّت ترفل داخل فساتين مزركشة. وصاحت «روز»: «أنتِ شرّيرة!» حدّثتها بإخلاص أنّ على النّساء التّماسُك فيما بينهنّ. من اعترف لي بالجميل؟ أقرضتُهم المال دون أن أطلب فائدة عليه. لا أحد أنصفني، بل إنّ بينهم من تذمّر عندما طالبته بتسديد دينه. اتّهمتني الصّديقات اللّاتي أغرقتهنّ بالهدايا بأنّي منحازة. ولك أن تنظر إلى النّاس الذين أسديتُ خدمات من قبل كيف يختالون، الله وحده يعلم بأنّي لم أستغلّ الأوضاع لصالحي. لستُ ممّن يعتقدون بأنّ كلّ شيء حدث بفضلهم. الخالة مارغريت: «هل في استطاعتك إعارتنا بيتك عندما تخرجين في جولة هذا الصّيف؟» آه! اللّعنة إذن، النّزل ليست مجعولة للكلاب، ولم يكونوا قادرين على قضاء إقامة في باريس، ليس أمامهم سوى البقاء في حفرتهم. البيت أمر مُقدّس، يبدو لي الأمر شبيهاً باغتصاب. «ديدي» مثلاً: «لا يجب أن نترك لأحد المجال ليبتلعنا» قالت لي. لكنّها أكلتني ببساطة. «ألا أجد لديك معطفاً لهذا المساء؟ أنتِ لا تخرجين أبداً». لا أخرج أبداً لكنّي خرجتُ؛

إنّها معاطفي وفساتيني وهي تذكّرني بكمّ هائل من الذّكريات. لا أريد أن تضعه سمكة قاروس على جسمها. ثمّ يتركن عليها روائحهنّ. لو أنّي متُّ لاقتسمت أمّي ونانارد ملابسي، آه! لا، أريد أن أعيش إلى أن تأتي العثّة عليها أو أن أتخلّص من كلّ شيء إذا اتّضح أنّي مصابة بالسّرطان. لقد استغلّوني طويلاً، «ديدي» أوّلهم. شربت الويسكي خاصّتي، ركبت سيّارتي المكشوفة. الآن، تتظاهر بأنّها صديقتي الطيّبة. لكنّها لم تكلّف نفسها عناء الاتّصال بي من «كورشوفال» في هذه اللّيلة. عندما يسافر زوجها المخدوع وتشعر بالضّجر فإنّها تصحبُ عجيزتها الضّخمة حتّى لو لم أكن أرغب. لكنّه رأس السّنة وأنا أقرض نفسي. إنّها ترقص وتلهو، لم أخطر ببالها دقيقة واحدة. لا أحد يفكّر فيَّ أبداً. كما لو كنتُ قد مُحيتُ من هذا العالم. كما لو أنّي لم أوجد يوماً. هل أوجد؟ أوه! قرصتُ نفسي حتّى ازرقّ موضع القرصة.

أيّ صمت! ما من سيّارة، وما من خطوة في الشّارع، ولا صوت في البيت، سكون أموات. صمتُ غرفة الدّفن، ونظراتهم التي تدينني دون سماعي ودون دعوتي. آه! كم هم أقوياء! ألقوا على ظهري كلّ تأنيب الضّمير الذي ناؤوا بحمله، كبش الفداء المثاليّ، وأخيراً صار بمقدورهم ابتداع مُسوّغ لحقدهم. تعاستي لم تنقص منه شيئاً. وإن كنتُ أظنّ الشّيطان نفسه قد أخذته الشّفقة بي.

ستؤول إليّ الحياة في الثّانية ظهراً ذات ثلاثاء من شهر جوان/ حزيران. «الآنسة ترقد بعمق ولا يمكنني إيقاظها». قفز قلبي وأسرعتُ صارخة: «سيلڤي هل أنتِ مريضة؟» بدت كأنّها نائمة، كانت لا تزال دافئة. لقد انتهى الأمر منذ ساعات، قال لي الطّبيب. صرختُ ورحتُ أدور في غرفتي كالمجنونة. سيلڤي سيلڤي، لم فعلتِ هذا بي! رأيتُها هادئة مسترخية وأنا كنتُ شاردة، وكلمتها لوالدها لم تكن تعني شيئاً، مزّقتُها لأنّها إحدى أجزاء المسرحيّة، أنا متأكّدة، متأكّدة ـــ تعرف الأمّ ابنتها ـــ أنّها لم تشأ الموت، زوّدت الكمّية فماتت، يا للهول!

الأمر سهل بهذه المخدّرات التي يشترونها كما اتّفق؛ الفتيات يلعبن لعبة الانتحار لأجل نعم أو لا؛ سيلڤي سايرت الموضة: لم تستفق. وجاؤوا، جميعهم قبّلوا سيلڤي، لا أحد قبّلني وصرخت أمّي: «قتلتِها!» أمّي، نعم أمّي. أسكتوها لكنّي أحسستُ وطأة وجوههم وصمتهم وثقل صمتهم. نعم، لو كنتُ مثل النّساء اللّاتي تستيقظن عند السّابعة صباحاً لكانوا أنقذوا حياتها، أنا أعيش إيقاعاً آخر، هذه ليست جريمة، كيف أحدس؟ كنتُ دائماً هنا عند عودتها من المعهد، لم يكن للنّساء ما يزعمنه أكثر من ذلك، كنتُ على استعداد للتحدّث معها وسؤالها لكنّها هي من كانت تسرع إلى غرفتها وتغلقها متعلّلة بالدّروس. لم تفتقدني يوماً. وأمّي التي أهملتني وتركتني، تجرّأت! لم أعرف بماذا أجيب، كان الكلام يدور في رأسي، لم أكن أرى بوضوح. «لو أنّي قبّلتها في ذلك المساء لدى عودتها...» لكنّي احترمت نومها ثمّ إنّها بدت لي سعيدة بعد منتصف النّهار. أيّ عذاب في هذه الأيّام! اعتقدتُ عشرين مرّة بأنّي سأنهار. كان الأساتذة والرّفاق يضعون باقات الزّهور على التّابوت دون أن يوجّهوا لي كلمة؛ عندما تنتحر فتاة فإنّ أمّها هي المُذنبة؛ هكذا كُنّ يؤوّلن المسائل مدفوعين بضغينتهنّ على أمّهاتهنّ. الكاهنة. كدتُ أقع في الفخّ. بعد الدّفن مرضت. أعدتُ على نفسي: «لو أنّي استيقظتُ في السّابعة...» تراءى لي أنّ العالم بأسره سمع صرخة أمّي، لم أجرؤ على الخروج من بيتي، تغلغلتُ في الجدران وسمّرتني الشّمس إلى الأعمدة الدعائيّة، كنتُ أظنّ أنّ النّاس يحدجونني بنظرات التّوبيخ وأنّهم يتهامسون مُشيرين إليَّ بأصابعهم. كفى، كفى. أحبّذ الموت على أن أعيش تلك السّاعات ثانية. نقص وزني عشرة كيلوغرامات، هيكل عظميّ، فقدتُ توازني، وبتُّ أتعثّر. «مريضة نفسيّة» قال الطّبيب. أعطاني تريستان المال من أجل العيادة. كانت الأسئلة التي أطرحها على نفسي مجنونة بحقّ، كنتُ سأصبح مخبولة. انتحار غير مقصود، لا بدّ أنّها أرادت إغاظة أحدهم: من؟ لم أحرسها جيّداً، كان يجب ألّا أغادرها لحظة، وأن أتعقّبها، وأن أبحث وأميط القناع عن الفاعل ولداً

كان أم بنتاً، لعلّها الأستاذة العاهرة: «لا سيّدتي لم يكن في حياتها أحد». المُدلّلتان، كانتا مُصرّتين. كانت نظراتهما تذبحني؛ إنّهما تحافظان على المؤامرة حتّى بعد الموت. لكنّهما لم توقعاني في الشّرك. أعرف. مع الأعراف الرّذيلة لهذه الأيّام من المستحيل ألّا يكون هناك شخصٌ في حياتها. لعلّها وقعت في الحمل أو أنّها سقطت تحت حافر سحاقيّة أو في مجموعة فاسقين، أحدهم ابتزّها وهدّدها بإفشاء سرّها لأمّها. آه! لا أريد أن أتخيّل شيئاً. كان بإمكانك أن تقولي ما تشائين سيلفي كنتُ سأخرجك من هذه القصّة القذرة. مؤكّد أنّها كانت قصّة قذرة كي تكتب لألبير: «أبي، المعذرة لكنّي لم أعد أطيق». لم تكن تقدر على الحديث معه ولا مع الآخرين؛ كانوا يتملّقونها لكنّهم يظلّون غرباء. كان في إمكانها أن تبوح لي بما تشاء، لي، لي وحدي.

من دونهم. الأوغاد! كدتم توقعونني في الشّرك لكنّي نجوتُ. لستُ كبش فدائكم؛ هزمتُ الضّمير. كتبتُ لكم حقيقتكم، كلّ منكم سينالُ نصيبه.

لا أعبأ بحقدكم. الأوغاد! إنّهم هم من قتلوها. لقد لطّخوني بالوحل، لقّنوها أشياء كي تعادِيَني، كانوا يعاملونها كشهيدة، كان ذلك يطريها، جميع الفتيات يعشقن لعب دور الشّهيدة؛ لعبت دورها بجدّية وراحت تبدي منّي حذراً ولم تكن تروي لي شيئاً. الطّفلة المسكينة. كانت في حاجة إلى مساعدتي، وإلى نصائحي، حرموها من ذلك وحكموا عليها بالصّمت، لم تحسن الخروج من المأزق بمفردها، فابتدعت هذه الكوميديا التي أودت بحياتها. القتَلَة! قتلوا سيلفي، سيلفيتا حبيبتي. أحببتُكِ. ما من امرأة كانت متفانية مثلي؛ لم أكن أفكّر سوى في سعادتك. أفتح ألبوم الصّور لأنظر إليك في مختلف سنواتك! وجه الطّفلة المذعورة والطّفلة المراهقة. لفتاة السّابعة عشرة التي قتلوها أقول وعينَاي في عينيها: «كنتُ أفضل أمّ. كنتِ ستشكرينني لاحقاً».

ارتحتُ لمّا بكيتُ وأخذ النّوم يراودني. لا يجب أن أنام على الكنبة وإلاّ ضاع كلّ شيء في حال استيقظت. سأحشو التّحميلة في شرجي وأنام. يجب أن أعدّل المنبّه إلى منتصف النّهار كي أترك لنفسي وقتاً لأجهّز نفسي. يجب أن أربح. رجلٌ في البيت وطفلي الصّغير الذي سأقبّله في المنزل هذا المساء، كلّ تلك الرّقة التي لا تصلح لشيء. ثمّ يأتي دور إعادة التّأهيل. ماذا؟ يجب أن أنام. ستكون لطمة مباشرة على أفواههم. يحترمون تريستان لأنّه شخصيّة تستحقّ التّقدير. أريد أن يعترفوا لي: سيكونون مُجبَرين على إنصافي. سأكلّمه. سأقنعه في هذه اللّيلة بالذّات...

أنتَ من اتّصل بي... آه! ظننتُ أنّه أنتَ. المعذرة لأنّي أزعجتُك، يبدو أنّك كنتَ نائماً، لكنّي مع ذلك سعيدة بسماع صوتِك. كم هي بشعة هذه اللّيلة، لا أحد أبدى بصيص حياة، مع أنّهم يعرفون جيّداً أنّه عندما يكون المرء حزيناً جدّاً فإنّه لا يتحمّل الحفلات والصّخب والأضواء، هل لاحظت. أبداً لم تكن باريس مضاءة مثلما هو الحالُ في هذه السّنة، إنّ لديهم الأموال لتبذيرها، يجدر بهم أن يخفّضوا الضّرائب، أنا أغلق على نفسي كي لا أرى كلّ ذلك. لا أتمكنّ من النّوم، وأنا تعيسة جدّاً، ووحيدة جدّاً، ألوك أشياء كثيرة، يجب أن أتحدّث معك دون أن نتشاجر، كصديقين عزيزين، اسمَعني جيّداً، حقّاً إنّه مهمّ جدّاً ما سأقوله لك، لن يغمض لي جفن ما دامت الأمور عالقة. تسمعني؟ فكّرتُ طوال اللّيل ولم يكن لديَّ ما أفعله، أؤكّد لك أنّ الوضع غير طبيعيّ، لن نستمرّ هكذا، أخيراً نحن لا نزال متزوّجين، لِمَ كلّ تبذير المنازل، تبيع أنتَ بيتَك مقابل عشرين مليوناً على الأقلّ ولن أزعجك، لن أطرح عليك مسألة العلاقة الزّوجيّة وما إلى ذلك، لا تقلق لن يحبّ بعضنا بعضاً، سأغلق على نفسي في غرفتي وسيكون متاحاً لك أن تجلب ما شئت من الحسناوات، لن أهتمّ، لكن بما أنّنا أصدقاء فلا موجب كي لا نعيش معاً تحت سقف واحد. هذا ضروريّ بالنّسبة إلى فرنسيس. فكّر في فرنسيس، لم أنفكّ

أفكّر فيه طوال اللّيل، لقد سحقني ذلك. سيّئ بالنّسبة إلى طفل أن يكون والداه منفصلين، سيتحوّل بمرور الوقت إلى شخص غامض وخبيث وكذّاب، سيترتّب عن ذلك العقد وستتفاقم. أريد لفرنسيس أن يتفتّح كزهرة. أنتَ لا تملك الحقّ في حرمانه من بيت حقيقيّ... بلى أنت لا تزال تتهرّب، يجب أن تسمعني في هذه المرّة. أنانيّ، بل متوحّش: أن يُحرم الطّفل من أمّه وأمّ من ابنها. دون سبب. لستُ ماكرة، لا أشرب ولا أتعاطى المخدّرات وأنت تعرف بأنّي المرأة الأكثر تفانياً. إذن؟ لا تقاطعني. إن كنتَ تفكّر في حكاياتك الصّغيرة، فأنا أكرّر على مسامعك أنّي لا أمنعك من ممارسة الجنس مع من شئت من النّساء. لا تقل ثانية إنّ العيش معي لا يُحتَمَل، وبأنّي أفترسك وأستنزفك. صحيح أنّي كنتُ صعبة المراس، إنّها طبيعتي، أنت تعرف أنّي متمرّدة؛ لكن لو صبرتَ، لو أنّك حاولتَ فهمي وعرفت كيف تحدّثني بدلَ أن تتّهمني، لاختلف الأمر بيننا، لستَ قدّيساً أنتَ أيضاً، لا تُصدّق ذلك؛ راح الماضي الآن؛ لقد تغيّرتُ؛ أتدري: لقد عانيتُ، ونضجتُ، أنا أتحمّل أشياء لا أتحمّلها عادة، عني أتحدّث، لن يكون عليك أن تخشى نوباتي، سنتعايش بلطف وسيكون الطّفل سعيداً كما يحقّ له، لا أرى ما قد تعترض عليه... لِم ليست السّاعة المناسبة للحديث؟ إنّها الأنسب، على أيّ حال، يمكنك أن تضحّيَ بخمس دقائق من نومك، أنا لا أغمض عينَيَّ ما دامت المسألة لم تُسَوَّ، لا تكن أنانيّاً، أمر حيوانيّ أن نمنع النّاس من النّوم، سيُجنّون آجلاً أم عاجلاً، لا أريد أن يحدث ذلك. سبع سنوات وأنا حبيسة وحدي كملعونة والعصابة القذرة تسخر، أنت مدين لي بالقصاص، دعني أتحدّث، أنت مدين لي بالكثير ناحيتي. طريقتك في التصرّف لم تكن متحضّرة؛ جعلتني أقع في حبّك، طردتُ فلورون من حياتي وقطعتُ مع رفاقي ثمّ تخلّيتَ عنّي، أدار لي الأصدقاء ظهورهم؛ لِمَ تظاهرتَ بأنّك تحبّني؟ أحياناً يخطر لي أنّها مكيدة مُدبّرة... نعم مكيدة مُدبّرة: كان حبّاً جارفاً تلته نذالة لا تُصدَّق... ألم يخطر لك ذلك؟ ما هو؟ لا تكرّر أنّي تزوّجتُك من باب المصلحة، كان لديَّ فلورون وكان بمقدوري أن أرفس

المال رفساً، ولتعلم أنّ كوني زوجتك ليس بالأمر الذي يبهرني، لأنّي لستُ زوجة نابوليون، لا تكرّر ذلك أرجوك وإلّا فإنّي سأصرخ بأعلى صوتي، أنت لا تقول شيئاً لكنّي أسمع الكلمات ترطن على لسانك، لا تقلها، إنّها غير صحيحة، غيرُ صحيحة إلى حدّ الصّراخ، مثّلتَ عليّ دور المُتيّم المجنون، واستسلمتُ إليك... لا، لا تقل لي: اسمعي «ميريال» أحفظ أجوبتك عن ظهر قلب، كرّرتِ عليّ ذلك مئة مرّة، يكفي إشاعات مغلوطة عني لأنّها لا تنطلي ولا تتخذ سحنة القوّة هذه، نعم سحنة القوّة، أنا أراك من خلال السمّاعة. كنتَ أبشع من ألبير، كان شابّاً عندما تزوّجنا وأنت كان لديك آنذاك خمس وأربعون سنة، كان عليك أن تعي مسؤوليّاتك. لا بأس، الماضي قد مضى. أعدك بأن لا ألومك. لمَ لا نمحو كلّ شيء وننطلق من البداية بشكل جيّد ونيّة طيّبة، قد تجدني لطيفة ورقيقة إذا لم أعامل معاملة حيوانيّة. هيّا، قل لي إنّك موافق، غداً نسوّي التّفاصيل...

«وغد! تنتقم منّي، تعذّبني لأنّي لم أسيّل لعابي أمامك، لكنّ الأموال لا تبهرني، لا الأموال ولا الألحان العذبة ولا الكلمات الرنّانة. «أبداً لن أفعل مع كائن من يكون» هذا ما سنراه. سأدافع عن نفسي. سأتحدّث مع فرنسيس وسأخبره من تكون أنتَ. لو قتلتُ نفسي أمامه، هل تعتقد أنّها ستمثّل ذكرى سعيدة في حياته؟... لا، أنا لا أساوم أيّها السّافل الوسِخ، في حياة كالتي أعيشها لن يكلّفني شيئاً أن أقضي على نفسي. لا يجب أن ندفع النّاس إلى حدودهم القصوى لأنّهم يصبحون قادرين على كلّ شيء، هناك أمّهات انتحرن هنّ وأبناؤهنّ...».

الوغد! الزّبالة! أقفل الخطّ... لم يجب، ولن يجيب. الوغد. آه! يخونني قلبي، سأموت. أشعر بالألم، بألم كبير، إنّه يقتلني على نار هادئة. لم أعد قادرة، سأقتل نفسي في صالونه، سأفتح أوردتي، وعندما يأتون سيجدون بركة الدّم وأكون قد متّ... آه! ضربتُ رأسي بعنف، تصدّعت جمجمتي، بسببهم فعلتُ ذلك. رأسي على الجدار؟ لا، لا لن

أفعلها لأنّي سأبدو لهم مجنونة، لن يهزموني، سأجد أسلحة أدافع بها عن نفسي. أيّ سلاح؟ الأوغاد، الأوغاد، سأخنق نفسي وسيتوقّف قلبي، يجب أن أهدأ...

... إلهي! افعَل شيئاً كي تكون موجوداً! أوجِدْ سماءً وجحيماً، سأتجوّل في ممرّات الجنّة مع طفلي وابنتي عزيزتي وسيتقوّس جميعهم في نار الرّغبة، سأراهم يصلونها صارخين، سأضحك، سأضحك وسيضحك الأطفال لضحكي. ربّي، أنتَ مدين لي بهذا الثّأر.

أطالبُك بأن تمنحني إيّاه.

المرأة المُحَطّمة

الاثنين 13 سبتمبر. الملّاحات (Les Salines).

ديكورٌ مذهل، مشروع المدينة المُهملة هذا الذي على حدود القرية وعلى هامش القرون. ذرعتُ نصف المباني، صعدتُ سُلّم القصر الرّئيس؛ تأمّلتُ طويلاً الأبّهة الرّصينة لتلك المباني المُشيّدة بتفاصيل مُتقَنَة والتي لم تصلُح يوماً لشيء. كانت قويّة، وحقيقيّة؛ إلّا أنّ تركها للزّمن حوّلها إلى مُجسّم رائع: ممَّ يا تُرى؟ العشب الحارّ، تحت سماء الخريف، ورائحة الأوراق الميّتة تحدّثني بأنّي ما زلتُ على قيد الحياة، بأنّي لم أغادر هذا العالم، لكنّي عدتُ في الماضي مئتَيْ سنة. بحثتُ عن أغراض في السيّارة؛ وضعتُ غطاءً صوفيّاً على الأرض، ووسائد، والترانزستور، ودخّنتُ وأنا أستمع إلى موزارت. لاحظتُ هيئة أجسام خلف نافذتين مُغبّرتين أو ثلاث: هي مكاتب دون شكّ، توقّفت شاحنة أمام أحد الأبواب الثّقيلة، فتحها رجال، شحنوا أكياساً في الصّندوق الخلفيّ للعربة. لا شيء آخر أربك سكينة ما بعد الظّهيرة تلك: ما من زائر واحد.

انتهى الكونشرتو، قرأتُ. تيه مُزدوج؛ ابتعدتُ كثيراً، على حافّة نهر مجهول؛ رفعتُ عينَيَّ وإذا أنا بين حجارة بعيدة عن حياتي.

لأنّ المذهل حقّاً، هو وجودي هنا والغبطة التي ينطوي عليها الأمر. انتابني الخوفُ من العودة إلى باريس. حتّى الآن، باستثناء «موريس»، كانت الصّغيرات ترافقنني في رحلاتي. حسبتُ أنّي سأفتقد حبور «كوليت» وطلبات «موسيان» التي لا تنتهي. لكن ها أنا أشعر بنوع

منسِيّ من السّعادة. عادت حرّيتي شابّة عشرين سنة إلى الوراء، إلى درجة أنّي، حالما أغلقتُ الكتاب، بدأتُ الكتابة مثلما كنتُ أفعل في العشرين من عمري.

ما كنتُ لأترك موريس بقلب مطمئنّ. لا يدوم المؤتمر سوى أسبوع، ومع ذلك، أحسستُ بضيق في حنجرتي ونحن نسير من «موجينس» Mougins، إلى مطار «نيس». كان متأثّراً هو أيضاً. حين نودي في مضخّم الصّوت إلى مسافري روما، قبّلني بقوّة: «لا تقتلي نفسكِ في السيّارة ـــ لا تقتلي نفسكِ في الطّائرة». وقبل أن يختفي، استدار نحوي برأسه: كان في عينيه قلق تملّكني استطاع أن ينتقل إليَّ. بدا لي الإقلاع مأساويّاً. ذوات المحرّكات الأربعة كانت تحلّق بهدوء، كان توديعاً طويلاً. غادرنا الأرض ترافقنا فجاجة الوداع.

لكن سرعان ما بدأتُ أشمت. لا، لم يحزنني غياب بناتي: بل العكس. كان في وسعي السّياقة بسرعة، أو ببطء كما أشاء، الذّهاب حيثُ أريد، أو التوقّف حيثما يخطر لي. قرّرتُ قضاء الأسبوع في التسكّع. أستيقظ عند شروق الشّمس. كانت السيّارة تنتظرني في الشّارع وفي السّاحة كحيوان وفيّ؛ كانت نديّة ووردية؛ أمسحُ عينيها وأشقّ طريقي في النّهار المُشمس الذي يمتدّ أمامي. إلى جانبي، الكيس الأبيض وخرائط «ميشلان»، والدّليل الأزرق، وكتُب، وسترة صوفيّة وسجائر: ذاك الرّفيق الكتوم. لا أحد يبدي تضايقاً عندما أطلب من مالكة الفندق كيفيّة تحضير الدّجاج بجراد البحر.

حلّ المساء، لكنّ الطّقسُ لا يزالُ دافئاً.

إنّها لحظاتٌ مؤثّرة حيثُ تكون الأرض في انسجام تامّ مع النّاس، حتّى إنّه ليبدو لي من المستحيل ألّا يكون الجميع سعداء.

الثّلاثاء 14 سبتمبر.

من بين الأشياء التي تسحرُ موريس هي الطّاقة التي كان يسمّيها

«اهتمامي الخاصّ بالحياة». انتعشت صورته خلال جلستي القصيرة مع نفسي. الآن وقد تزوّجت كوليت وغادرت لوسيان إلى أمريكا، يمكنني أن أتفرّغ لمتعة تثقيف نفسي. «ستضجرين. يجب أن تأخذي معك عملاً»، قال لي موريس في موجينس. أصرّ. لكن، في الوقت الحاضر على أيّ حال، لا أتمنّى ذلك. أريد أن أعيش لنفسي قليلاً. وأن أستغلّ وحدتي الثّنائيّة مع موريس والتي طالما حُرمنا منها. لديّ كمّ هائل من المشاريع في رأسي.

الجمعة 17 سبتمبر.

هاتفتُ كوليت يوم الثّلاثاء: كانت تعاني من الزّكام. احتجّت عندما قلتُ لها إنّي آتية حالاً إلى باريس، كان «جون پيير» يهتمّ بها بأفضل ما يكون. لكنّي كنتُ قلقة، عدتُ في اليوم نفسه. وجدتُها نائمة، وكانت نحيفة جدّاً؛ كانت حرارتها ترتفع كلّ مساء. عندما صحبتها إلى الرّيف في شهر أوت/ آب، كنتُ غير مطمئنّة على صحّتها. لا أكاد أطيق صبراً كي يفحصها موريس ويفحص تالبو أيضاً.

هأنذا، ثانية، مع من يحتاج إلى حماية. عندما غادرتُ كوليت، يوم الأربعاء بعد العشاء، كان الطّقس جميلاً إلى درجة أنّي نزلتُ إلى الحيّ اللّاتيني؛ جلستُ في شرفة ودخّنتُ سيجارة. كانت إلى الطّاولة المجاورة فتاة تكادُ تلتهم بعينيها علبة «شسترفيلد»؛ طلبت منّي سيجارة. حدّثتُها؛ تجاهلت أسئلتي ونهضت كي ترحل؛ كان عمرها خمس عشرة سنة، لم تكن طالبة ولا موسماً، تحرّك فضولي ناحيتها؛ عرضتُ عليها أن أقلّها إلى بيتها بالسيّارة. رفضت، تردّدت، ثمّ انتهى بها الأمر لتعترف لي بأنّها لا تعرف أين تقضي ليلتها. كانت قد هربت هذا الصّباح من المركز حيثُ أودعتها المرشدة العموميّة. آويتُها يومين. أمّها المخبولة قليلاً ووالدها الذي كان يكرهها، تخلّيا عن حقوقهما تجاهها. وعدها القاضي الذي أمسك ملفّها بأنّه سيرسلها إلى مبيت حيثُ سيكون في وسعها أن تتعلّم حرفة. في انتظار ذلك كان عليها أن تعيش «مؤقّتاً» منذ

ستّة أشهر في هذا البيت الذي لا تخرج منه أبداً ـــ ما عدا يوم الأحد إلى الصّلاة لو رغبت في ذلك ـــ وحيثُ لا يُعهدُ إليها بشيء لتقوم به. إنّهن هنا، حوالَيْ أربعين مراهقة، تلقَين عناية ماديّة جيّدة، لكنّهن يعشن كآبة بسبب السّأم، وفقدان طعم الحياة، واليأس. في المساء يوزَّعُ عليهنّ المنوّم. يحتلنَ كي يضعنه جانباً. وفي يوم جميل، يبتلعن الحبوب كلّها دفعة واحدة. «هروب، محاولة انتحار: يجب أن يحدث ذلك كي يتذكّرنا القاضي»، قالت لي «مرغريت». الهروب سهل ومتواتر، وعندما لا يطول فإنّه لا ينجرّ عنه عقاب.

أقسمتُ لها أن أقلب السّماء والأرض كي أحصل لها على إذن تحويل إلى المبيت، واقتنعت بالعودة إلى المركز. اشتعلتُ غضباً وأنا أراها تتجاوز البوّابة، تجرّ قدميها ورأسها مطأطأ. كانت فتاة جميلة، لم تكن حمقاء، لطيفة جدّاً، لا تطلب شيئاً غير فرصة للعمل: لقد ذبحوا شبابها؛ شبابها وشباب ملايين في مثل سنّها. سأتّصل غداً بالقاضي «بارون».

كم هي قاسية باريس! تخنقني تلك القسوة حتّى في تلك الأيّام الخريفيّة الرّخوة. أشعر بالاختناق في هذا المساء. خطّطتُ لأحوّل غرفة الأطفال إلى غرفة معيشة أكثر خصوصيّة من عيادة موريس وقاعة الانتظار. وخمّنتُ أنّ لوسيان لن تعيش هنا مُطلقاً. سيصبح البيت مريحاً، لكن سريعاً. أشعر بالقلق إزاء كوليت. لحسن الحظّ فإنّ موريس يعود غداً.

الأربعاء 22 سبتمبر.

ها هو أحد الأسباب ـــ الأهمّ ـــ التي تجعلني لا ألتزم بعمل: لن أحتمل ألّا أكون مُستعدّة لمساعدة النّاس متى دعت الحاجة إلى ذلك. أقضي جلّ أيّامي بجانب سرير كوليت. الحُمّى لا تنخفض أبداً. «لا شيء خطير»، قال موريس. لكنّ تالبو طلب جملة من التّحاليل. عبرت ذهني أفكارٌ بشعة.

استقبلني القاضي بارون في هذا الصّباح. بحرارة. بدت له حالة

مرغريت مؤسفة: وهناك الآلاف مثلها. المأساة هي أنّه لا يوجد مكان لإيواء هؤلاء الأطفال، ليس ثمّة فريق مؤهّل ليعتني بهنّ كما ينبغي. لا تفعل الحكومة شيئاً. جهود قضاة الأسرة والمُرشدات الاجتماعيّات تتحطّم على الحائط. لم يكن المركز الذي يؤوي مرغريت سوى محطّة عبور؛ خلال ثلاثة أيّام أو أربعة، كان يجب إرسالها إلى مكان آخر. لكن أين؟ العدم. تظلّ تلك القاصرات هناك حيثُ لا شيء مُعدٌّ للعناية بهنّ أو للتّرفيه عنهنّ. مع أنه حاول إيجاد مكان لمرغريت. وسيصدر تعليماته لمربّيات المركز بأن يسمحن لي برؤيتها. لم يوقّع والداها الأوراق التي تجرّدهما نهائيّاً من حقوقهما إزاءها لكن لم يكن متاحاً لهما استعادتها؛ لا يريدان ذلك، وحتّى بالنّسبة إليها كان الحلّ الأسوأ على الإطلاق.

خرجتُ من القصر في غاية الغضب ضدّ سوء إدارة النّظام. مصير المنحرفين الشّبان يزداد غموضاً؛ ولم يكن المسؤولون يرون من الحلول سوى مضاعفة القسوة.

عندما وجدتُ نفسي أمام باب القدّيسة «سانت-شابيل»، دخلتُ، صعدتُ السُّلّم وأنا أعرج. كان هناك سياح غرباء وزوجان يتأمّلان النّوافذ الزّجاجيّة، يداً بيد. لم أتملَّ الأشياء جيّداً. كنتُ أفكّر في كوليت يلفّني شعور بالقلق.

كنتُ قلقة. استحالت عليَّ القراءة. لم يكن هناك أمر قد يهوّن عليَّ سوى التحدّث مع موريس: لن يأتي قبل منتصف اللّيل. منذ أن عاد من روما وهو يمضي الأمسيات في المخبر مع «تالبو» و«كوتوريي». قال إنّه يضحّي بكلّ شيء من أجل أبحاثه. لكنّها المرّة الأولى التي تعترضني مشكلة ولا يتقاسمها معي.

كانت النّافذة سوداء. توقّعتُ ذلك. قبلَ ـــ قبل ماذا؟ ـــ عندما كنتُ لسبب قاهر أخرج دون موريس، فإنّ خطّاً من الضّوء كان دائماً يقسم السّتارة الحمراء إلى نصفين. صعدتُ الطّابَقين جرياً، رننتُ الجرس، غير قادرة على الصّبر حتّى أجد مفاتيحي. صعدتُ بتأنٍّ، وأدخلتُ المفتاح.

كم أنّ البيت خاوٍ! كم هو خاوٍ! بالطّبع ما دام لا أحد في داخله. لكن لا، عادة، عندما أعود إلى البيت أجد موريس، حتّى في غيابه. فُتح البابُ هذا المساء على غرف مقفرة. الحادية عشرة. غداً نعرف نتائج التّحاليل وأشعر بالخوف. خائفة وموريس ليس هنا. أعرف. يجب أن تفضي أبحاثه إلى شيء ما. مع ذلك أنا غاضبة عليه. «أنا بحاجة إليك، وأنت لستَ هنا!» تملّكتني رغبة في أن أكتب هذه الكلمات على ورقة أتركها في الرّدهة قبل أن أخلد إلى النّوم. وإلّا فلأصمُت مثل الأمس وأوّل أمس. كان دائماً هنا عندما احتجتُ إليه.

... سقيتُ النّباتات الخضر؛ بدأتُ بترتيب المكتبة وتوقّفتُ فجأة. أذهلتني لامبالاته عندما عرضتُ عليه إقامة غرفة المعيشة. يجب أن أعترف بالحقيقة؛ أحببتُ الحقيقة دائماً، وإن كنتُ قد حصلتُ عليها فلأنّي أردتُها. إذن! تغيّر موريس. ترك نفسه لمهنته تنهشه. لم يعد يقرأ. لم يعد يسمع الموسيقى. (كم أحبّ تعابير وجهه وصمتنا ونحن ننصت إلى مونتفردي أو شارلي پاركر). لم نعد نتنزّه في باريس ولا في أحوازها. لم تعد بيننا حوارات حقيقيّة. لقد بدأ يشبه زملاءه الذين ليسوا سوى ماكينات أعمال وأرباح. المال، والنّجاح الاجتماعي، كان يسخر منهما. لكن منذ (عكس إرادتي) قرّر التخصّص قبل عشر سنوات وشيئاً فشيئاً - الأمر الذي كنتُ أخشاه حقّاً- وهو ينضب. حتّى في موجينس، هذه السّنة، بدا لي بعيداً: متلهّفاً إلى إيجاد العيادة والمخبر؛ شارداً، بل وكئيباً أيضاً. هيّا! أريد الحقيقة حتّى النّهاية. في مطار نيس أحسستُ بانقباض في قلبي بسبب العطلة الكئيبة التي خلّفتُها ورائي. وإن كنتُ قد وجدتُ في الملاّحات المهملة سعادة لا توصف فذلك أنّ موريس، على بعد مئات الكيلومترات، بدا لي قريباً. (أمر غريب كدفتر: ما نخفيه أهمّ ممّا ندوّنه). كما لو أنّ حياته الخاصّة لم تعد تعنيه أبداً. في الرّبيع الماضي، صرف النّظر ببساطة عن رحلتنا إلى ألزاس! مع ذلك تأسّف لخيبتي. قلتُ له بمرح: «الشّفاء من سرطان النّخاع يستحقّ بعض التّضحية!» لكنّ

الطبّ في نظر موريس يظلّ إنساناً من لحم ودم يتعيّن التّخفيف عنهم آلامهم. (خاب ظنّي جدّاً، واحترت، خلال تربّصي في «كوشين»، جرّاء البرود الذي في طيبة الرّؤساء الكبار، وعدم اكتراث الطّلبة: في العينين الجميلتين والغامضتين لهذا المبيت، رأيتُ قلقاً وسعاراً كالذي لدَيَّ. أعتقد أنّي أحببتُه منذ تلك الدّقيقة). أخشى أنّ مرضاه الآن مجرّد حالات. أن يعرف يهمّه أكثر من أن يُعالج. حتّى في علاقاته مع أقرانه، أصبح نظريّاً، هو الذي كان مرحاً وحيويّاً وأكثر شباباً في الخامسة والأربعين منه لمّا قابلتُه أوّل مرّة... نعم، هناك شيء ما تغيّر ما دمتُ أكتب عنه، وعنّي، وراء ظهره. لو أنّه هو من فعلها لأحسستُ بالخيانة. كان لدينا شفافيّة قصوى.

ما زال حالُنا كذلك؛ غضبنا يفرّق بيننا: كان يسارع في تبديده. كان سيسألني بقليل من الصّبر: بعد نوبات السّعار يأتي الهدوء. في السّنة الماضية كان يعمل غالباً في المساء. نعم، لكن كانت معي لوسيان. وخصوصاً لم يكن هناك أمر يشغلني. الآن، هو يعرف جيّداً أنّي لا أتمكّن من القراءة ولا من سماع أسطوانات لأنّي خائفة. لن أترك كلمات في الرّدهة، لكنّي سأحدّثه. بعد عشرين، أو اثنتين وعشرين سنة من الزّواج. عادة، نحنُ نتعلّق كثيراً بالصّمت: هذا خطير. أظنّ أنّي بالغتُ في الاهتمام بالصّغيرات خلال السّنوات الماضية: كانت كوليت لذيذة جدّاً ولوسيان صعبة المراس. لم أكن حاضرة مثلما كان موريس يتمنّى. كان يجب أن يلفت انتباهي بدل انغماسه في العمل الذي قطعه عنّي الآن. كان علينا أن نفسّر لبعضنا بعضاً.

في منتصف اللّيل. أشتاق إلى لقائه، إلى إخماد هذا الغضب الذي يزمجر في داخلي والذي يجعل عينَيَّ مُثبّتتين على ساعة الحائط. لم تكن العقارب تتحرّك؛ توتّرتُ. تشظّت صورة موريس: ما الجمالُ الذي في أن تكافح ضدّ المرض والألم وأن تخطئ في حقّ زوجتك؟ إنّها اللّامبالاة. إنّها القسوة. لا طائل من الغضب. كفى. لو اتّضح أنّ تحاليل كوليت سيّئة فسأحتاج إلى كلّ برودة الدّم التي أملك. يجب أن أحاول النّوم، إذن.

الأحد 26 سبتمبر.

هكذا حدث كلّ شيء. حدث لي.

الاثنين 27 سبتمبر.

حسناً، نعم! لقد حدث لي. هذا طبيعي. يجب أن أعي ذلك وأن أكبح هذا الغضب الذي طوّح بي طوال يوم أمس. لقد كذب عليَّ موريس، نعم؛ هذا أيضاً طبيعيّ. كان بإمكانه أن يواصل بدل أن يكلّمني. حتّى متأخّراً. كنتُ سأتأكّد من صدقه.

نمتُ أخيراً، يوم السّبت: كنتُ أمدّ يدي إلى سرير التّوأمين من حين إلى آخر: كان الغطاءُ مُسطّحاً. (أحبّ في أحلامي أن أنام معه فيما هو يعمل في العيادة، أسمع الماء يجري، أشعر برائحة الكولونيا الخفيفة، أمدّ يدي، جسمه يملأ الغطاء وأغوص في غبطة عارمة). أُطبق باب المدخل بعنف. صرخت: «موريس!» كانت الثّالثة صباحاً. لم يعمل إلى الثّالثة، لقد شرب وصخب. انتصبتُ في السّرير:

- أيّ ساعة عدتَ فيها؟ من أين جئت؟

جلس على كنبة. كان ماسكاً بكأس ويسكي في يده.

- إنّها الثّالثة، أعرف.

- كوليت مريضة، أنا أموت جزعاً عليها، وأنتَ تعود في الثّالثة. لمْ تعمل إلى حدّ هذه السّاعة.

- حالُ كوليت يسوء؟

- إنّها لا تتحسّن. أنت لا تهتمّ! طبعاً حين نحمل على عاتقنا صحة البشريّة بأسرها فإنّ فتاة مريضة تعود بلا وزن.

- لا تكوني عدائيّة.

رمقني بعمق حزين نوعاً ما، وذبتُ كما أذوب دائماً عندما يحتويني بنوره الدّاكن والحارّ. سألتُ بلطف:

- قل لي، لمَ صرتَ تعود متأخّراً.

لم يردَّ.

- شربتَ؟ لعبتَ البوكر؟ خرجتَ؟ نسيت السّاعة؟

استغرق في صمته، بنوع من الإصرار، مُحرّكا كأسه بين يديه. ألقيتُ أمامه كلمات عبثيّة كي أجعله يخرج من قفّازيْه وأنتزع منه إجابة:

- ماذا يجري؟ هناك امرأة في حياتِك؟

دون أن يغادرني بعينيه، قال:

- نعم، مونيك، هناك امرأة في حياتي.

(كان كلّ شيء أزرق فوق رأسينا وتحت أقدامنا؛ آنذاك كان في وسعنا أن نرى مضيق السّاحل الأفريقيّ. ضمّني إليه. «لو خنتَني فسأقتل نفسي. - لو خنتَني، فلن يكون ثمّة داعٍ لأقتل نفسي، لأنّي سأموت كمداً». كان ذلك منذ خمسة عشر عاماً. بهذه السّرعة؟ ما هي خمسة عشر عاماً؟ اثنان مع اثنان يساوي أربعة. أحبّك، لا أحبّ سواك. الحقيقة لا تُهدَم، الزّمن لا يغيّر شيئاً في الحقيقة).

- من؟

- نُويلي غيرار.

- نُويلي! لماذا؟

هزّ كتفيه. بالتّأكيد. أعرف الإجابة: جميلة، متألّقة، مُغوية. نوع المغامرات الذي لا خطر من ورائه والذي يجعل الرّجل يشعر بالفخر. هل كان في حاجة إلى الشّعور بالفخر؟

ابتسم لي:

- أنا سعيد لأنّك سألتِني عن ذلك. أكره أن أكذب عليكِ.

- منذ متى وأنت تكذب عليَّ؟

بالكاد تردّد.

- كذبتُ عليك في موجينس. ومنذ عودتي.

هذا يعني أنّه كان يكذب منذ خمسة أسابيع. هل كان يفكّر فيها وهو في موجينس؟

- نمتَ معها عندما بقيتَ وحدَك في باريس؟

- نعم.

- تراها بانتظام؟

- أوه! لا! تعلمين أنّي أعمل...

طلبتُ تفاصيل. أمسيتان وفترة ما بعد ظهيرة منذ عودته، أرى أنّه انتظام.

- لِمَاذا لم تخبرني فوراً؟

رمقني بحياء وقال بندم في صوته:

- قلتِ إنّك ستموتين كمداً...

- نقول ذلك.

تملّكتني رغبة مفاجئة في البكاء: لن أموت، هذا هو المحزن في الأمر. من خلال بخار أزرق راقبنا أفريقيا، من بعيد، والكلمات التي نطقنا بها كانت مجرّد كلمات. ألقيتُ برأسي إلى الوراء. لقد أغشتني الصّدمة. أفرغ الذّهول رأسي. كان لا بدّ من فترة كي أفهم ما يحدث لي. «لننَم الآن». قلتُ.

أيقظني السّخط باكراً. كم كان يبدو بريئاً، بشعره المبعثر على جبينه، وقد ازداد شباباً في نومه. (في شهر أوت/ آب، خلال غيابي، استيقَظتْ بجانبه: لا أصدّق! لماذا رافقتُ كوليت إلى الجبل؟ لم تكن راغبة، كنتُ أنا من ألحَّ عليها). كذب عليَّ طوال خمسة أسابيع! «تقدّمنا خطوة إلى الأمام هذا المساء». وعاد من عند نُويلي. رغبتُ في أن أرجّه، أن أشتمه وأصرخ في وجهه. لكنّي سيطرتُ على نفسي. تركتُ كلمة على وسادته: «نلتقي في المساء»، موقنة تماماً أنّ غيابي سينفذ إليه أكثر من أيّ لوم؛

خلال الغياب لا يمكننا الردّ. مشيتُ كما اتّفق في الطّرقات، مسكونة بهذه الكلمات: «كذب عليَّ». مرّ أمامي شريط من الصّور: النّظرة، وابتسامة موريس لنُويلي. طردتُها من مُخيّلتي. لا ينظر إليها كما ينظر إليَّ. لا أريد أن أتألّم، أنا فعلاً لا أتألّم، لكنّ الضّغينة تخنقني: «كَذب عليَّ!» كنتُ أقول: «أموتُ كمداً»؛ نعم، لكنّه هو من يجعلني أقول ذلك. لقد أبدى حماساً أكثر منّي فيما يتعلّق بعهدنا: لا تسوية ولا عقد. كنّا نسير في الطّريق الصّغير لـ«سان-برتران-دي-كومينج» وهتف: «هل سأكفيكِ دائماً؟» وغضب لأنّي لم أجبه بالتوهّج نفسه الذي ذكر به الكلمات. (لكن أيّ مصالحة في غرفة الفندق القديمة حيثُ رائحة الأوراق الميّتة القادمة من النّافذة! كان ذاك قبل عشرين سنة: بالأمس فقط). كفاني، لم أعش إلّا له، وهو خان قسمنا من أجل نزوة. قلتُ لنفسي: سأطالبه بأن يقطع، فوراً... كنتُ عند كوليت؛ اعتنيتُ بها طوال اليوم، لكنّي كنتُ أغلي في أعماقي. عدتُ إلى المنزل خائرة القُوى. «سأطالبه بأن يقطع». لكن ماذا تعني كلمة «مُطالبة» بعد عمر من الحبّ والتّفاهم؟ لم أطلب أكثر من السّهر عليه.

أخذني بين ذراعيه بسحنة شاردة. هاتفني مرّات عديدة عند كوليت. ولا أحد أجابه (عطّلتُ الرّنين حتّى لا أزعجها). جُنَّ لشدّة القلق.

- لن يخطر لك على أيّ حال أنّي كنتُ سأقضي على نفسي؟

- تخيّلتُ كلّ شيء.

أثّر قلقه في قلبي واستمعتُ إليه دون عداوة. طبعاً ما كان يجب أن يكذب عليَّ لكن، أخيراً، يجب أن أفهم؛ التردّد الأوّل كان بمثابة كرة الثّلج: لا نجرؤ على الاعتراف، لأنّه علينا أيضاً أن نعترف بأنّنا كذبنا. لا تزال العقبة أكبر من يتخطّاها أناسٌ مثلنا، ممّن يظنّون أنّ النّزاهة أمر مهمّ. (أعترف: بأيّ غضب كنتُ سأكذب كي أخفي كذبة). لم أترك مجالاً للكذب كي يخطر لي. كذب كوليت ولوسيان في بداياتهما قطّع أطرافي. لم يكن من السّهل أن أصدّق بأنّ كلّ الأبناء يكذبون على أمّهاتهم. ليس

عليَّ! لستُ الأمّ التي يكذب عليها أبناؤها؛ ولا المرأة التي يُكذَبُ عليها. غرور أحمق. كلّ النّساء تعتقدن أنّهنّ مختلفات؛ كلّهنّ تعتقدن أنّ هناك أشياء لن تحدث معهنّ، وكلّهنّ مخطئات.

اليوم، فكّرتُ كثيراً. (حظّ كبير أن تكون لوسيان في أمريكا. كلّفني أن ألعب معها الكوميديا. لم تكن لتتركني بسلام). وحدّثتُ إيزابيل. ساعدتني، كعادتها. خشيتُ أن تسيء فهمي، لأنّها وشارل راهنا على الحريّة لا مثلنا أنا وموريس اللذين راهنا على الوفاء. لكنّ هذا لم يمنعها من أن تغضب على زوجها في بعض المناسبات، ولا أن تشعر بأنّها في خطر معه: قبل خمس سنوات، ظنّت أنّه سيهجرها. نصحتني بالصّبر. كانت تحترم موريس. كانت تجد أن من الطّبيعي أن يشتهي خوض مغامرة، وهو معذور لأنّه أراد إخفاءها؛ لكنّه كان سيتعب بسرعة. ما يمنح النّكهة لمثل هذه القضايا هي أنّها جديدة؛ الوقت ليس إلى جانب نُويلي، الأبّهة التي تظهرها أمام عينَيْ موريس تتساقط. فقط، لو أنّي أردتُ لعلاقتنا أن تنجو من هذه المحنة فلا يجب أن ألعب دور الضحيّة أو السّليطة. «كوني متفهّمة، كوني مرحة. وقبل كلّ شيء، كوني صديقة». قالت لي. هكذا احتلّت قلب شارل ثانية. الصّبرُ ليس فضيلتي المهيمنة. لكن يجب أن أفرضه على نفسي. ليس من باب التكتيك فقط، بل من الجانب الأخلاقيّ. حظيتُ بالحياة التي أتمنّاها: أستحقّ هذا الفضل. لو أنّي أتراجع منذ أوّل وقفة فلن يكون رأيي في نفسي سوى وهم. أنا متعنّتة، ورثتُ ذلك عن أبي، وموريس كان يحترم هذا الجانب؛ لكن مع ذلك ينبغي أن أفهم الآخر وأتكيّف معه. أن يخوض رجل مغامرة غراميّة بعد اثنتين وعشرين سنة من الزّواج، هو أمر طبيعيّ، إيزابيل مُحقّة. سيكون العيب فيَّ أنا -صبيانيّة على العموم- لو لم أتقبّل ذلك.

عندما غادرتُ إيزابيل، لم أرغب في رؤية مرغريت؛ لكنّها كتبت لي رسالة مؤثّرة، لم أشأ أن أخيّبها. يا لغرفة الزوّار الحزينة، والمراهقة المقهورة. أرتني رسوماً، ليست سيّئة. كانت تريد القيام بالدّيكور؛ أو على

الأقلّ عارضة. أن تعمل في مجمل الأحوال. كرّرتُ على مسامعها وعود القاضي. شرحتُ لها ما كان فعله كي أحصل على ترخيص يمكّنني من الخروج بها يوم الأحد. كان لديها ثقة كبيرة فِيَّ، كانت تحبّني، ستصبر: لكن ليس دون حدود.

سأخرج هذا المساء مع موريس. إنّها نصيحة إيزابيل وساعي القلب: كي تستعيدي زوجَكِ، كوني مرحة، وأنيقة، واخرُجي معه بمفردكما. لا يجب استعادته: لأني لم أفقده. لكن هناك أسئلة عديدة يجب أن أوجّهها إليه، وستكون المحادثة في منتهى الأريحيّة لو تناولنا العشاء خارجاً. لا أرغب فعلاً في أن يشبه الأمر رجوعاً إلى بيت الزّوجيّة.

جزئيّة غبيّة تشغلني: لماذا كان يحمل كأس ويسكي في يده؟ نادَيتُ: موريس! ظنّ أنّي سأحقّق معه عندما استيقظتُ في الثّالثة صباحاً. عادة، لم يكن يصفق الباب بعنف لدى عودته.

28 سبتمبر 2019

شربتُ كثيراً؛ لكنّ موريس كان يضحك وقال إنّي كنتُ جذّابة. هذا غريب: كان لا بدّ أن يضلّلني كي نُحيِيَ ليالي شبابنا. لا شيء أفظع من الرّوتين: الصّدمات تُفيق. سان-جرمان-دي بري تغيّر منذ 1946: الجمهور مختلف. «إنّها حقبة أخرى»، قال موريس بقليل من الحزن. لكنّ قدمي لم تطأ علبة ليليّة منذ خمس عشرة سنة، ورقّ قلبي لكلّ شيء. رقصنا. قال لي في لحظة وهو يضمّني بقوّة: «لا شيء تغيّر بيننا». وتحدّثنا دون تشنّج: لكنّي كنتُ ثملة ووردية اللّون، ونسيتُ قليلاً ما قال لي. عموماً، ما أتوقّعه؛ كانت نُويلي محامية متألّقة وطافحة بالحماس؛ كانت امرأة وحيدة -مُطلّقة تعيش معها ابنتها- ذات عادات متحرّرة جدّاً، وراقية، ومنطلقة: عكسي تماماً. أراد موريس أن يعرف ما إذا كان بإمكانه أن يعجب هذا النّوع من النّساء. «لو أردتُ...»: تساءلتُ عندما غازلتُ «كيون»؛ مغازلتي الوحيدة وسُرعان ما توقّفت. داخل موريس، مثلما هو

الحالُ بالنّسبة إلى الأغلبيّة، هناك مراهق ينامُ في زاوية ما غير واثق تماماً من نفسه. نُويلي منحته تلك الثّقة في النّفس. ثمّ إلى جانب ذلك إنّها مسألة بشرة، فقد كانت لذيذة.

الأربعاء 29 سبتمبر.

إنّها المرّة الأولى حسب علمي، التي يمضي فيها موريس الأمسية مع نُويلي. خرجتُ مع إيزابيل، وشاهدنا فيلماً قديماً لـــ«برغمان» وأكلنا في الـــ«هوشبوت» صلصة بورغينيون. أنشرح معها دائماً. لقد حافظت على أصالة مراهقتنا، عندما كان كلّ فيلم، وكلّ كتاب، وكلّ لوحة ذات قيمة كبيرة؛ الآن وقد غادرتني بناتي، فأنا أصحبها إلى المعارض والحفلات. هي أيضاً، أوقفت دراستها بعد زواجها، لكنّها حافظت على حياة ثقافيّة متوهّجة أفضل منّي. يجب القول إنّ لديها ابناً واحداً لا بنتَيْنِ مثلي. ثمّ إنّها ليست مثلي، في ضيق بسبب «الكلاب المُبتَلّة»؛ مع زوج مُهندس، ما من فرص كثيرة كي يحدث لها ما يحدث لي. قلتُ لها إنّي أعتمد تكتيك الابتسامة دون عناء، لأنّي مقتنعة بأنّها حكاية لا تعني الكثير بالنّسبة إلى موريس. «لا شيء تغيّر بيننا» قال لي أوّل أمس.

في الواقع، لقد انزعجتُ أكثر قبل عشر سنوات: إن كانت لديه طموحات جديدة، إن كان عمله في «سيمكا» -بروتينه، وقلّة أجره والذي رغم ذلك يقوم به بإخلاص- لا يكفيه، فذلك لأنّه يضجر في البيت، فلأنّ مشاعره ناحيتي انعرجت. (أثبت لي المستقبل عكس ذلك. نادمة، فقط، لأنّي لم أشاركه ما يقوم به. كان يحدّثني عن أمراضه، يطلعني على حالات يمكنني فيها المساعدة. الآن هو يقصيني من أبحاثه ولم يعد زبائن البوليتكنيك بحاجة إليَّ). كانت إيزابيل ناجعة بالنّسبة إليَّ آنذاك. أقنعتني باحترام حرّية موريس. كان ذلك يعني سقوط المُثل التي لقّنني إيّاها والدي الذي ظلّ حيّاً في داخلي. كان ذلك أقسى من إغماض العينيْن على تهوّر.

سألتُ إيزابيل ما إذا كانت سعيدة:

- أنا لا أطرح الأسئلة على نفسي، لكن، حسناً، أظنّ أنّه نعم.

كانت تستفيق سعيدة على أيّ حال. بدا لي مفهوماً جيّداً للسّعادة! أنا أيضاً، عندما أستيقظ، فإنّي أبتسم.

في هذا الصّباح أيضاً، تناولتُ المهدّئات قبل أن أخلد إلى النّوم. نمتُ فوراً. قال لي موريس إنّه عاد عند الواحدة. لم أطرح عليه أيّ سؤال.

ما نفعني هو أنّي لم أكن غيورة جسديّاً. لم يعد لي جسم الثّلاثين، موريس أيضاً مثلي. كان جسدانا يلتحمان بنشوة، لكن-نادراً، في الحقيقة- لكن دون حُمّى. أوه! أنا لا أخدع نفسي. نُويلي تجسّد الجديد؛ يعود موريس شابّاً في فراشه. يتركني ذلك على الحياد. أبدو امرأة قد تمنح موريس شيئاً. لكنّ لقاءاتي بنُويلي وما سمعتُه عنها كانت كافياً كي أعرف الحقيقة. كانت تجسّد ما نكرهه: الانتهازيّة، وطعم المال، وهوس الظّهور. لم تكن صاحبة فكرة أبداً، كانت الرقّة تنقصها: كانت عاكفة على الموضة. كان هناك الكثير من الطّيش والفجور في غرورها حتّى إنّي أتساءل ألا تكون باردة.

الخميس 30 سبتمبر.

كانت حرارة كوليت 39,9 درجة في هذا الصّباح، نهضت. قال موريس إنّه مرض يجوب باريس: حمّى، ونحافة، ثمّ يُشفى المريض. لا أدري لماذا وأنا أراها تذرع الشقّة الصّغيرة جيئة وذهاباً فهمتُ ندم موريس قليلاً. لم تكن أقلّ ذكاءً من أختها؛ كانت مهتمّة بالكيمياء، تسير دراستها على أحسن وجه، من المؤسف أنّها توقّفت. ماذا ستفعل في أيّامها؟ يجب أن أشجّعها، لقد اختارت تخصّصي نفسه: لكن، عندي موريس. وكان لها جان بيير. لا يمكن أن نتخيّل بأنّ رجلاً لا نحبّه قد يملأ علينا الحياة.

رسالة طويلة من لوسيان تعبّر فيها عن شغفها بالدّراسة في أمريكا.

البحثُ عن طاولة لغرفة المعيشة. المرور لزيارة مشلولة «باغنولي».

لِمَ قد أستمرّ في هذا الدّفتر ما دمت لا أجد ما أدوّن؟ شرعتُ في الكتابة عندما أدهشتني وحدتي؛ واصلتُ كتابته بسبب الشعور بالأسى،

لأنّ تصرّف موريس يربكني. لكنّ الوعكة تبدّدت الآن وقد صرتُ أرى الأشياء بوضوح، وأعتقد أنّي سأهجر هذا الدّفتر.

الجمعة 1 أكتوبر.

تصرّفتُ بطيش للمرّة الأولى. ونحن نتناول فطور الصّباح، قال لي موريس إنّه لو خرج مع نُويلي في المساء فسيقضي اللّيلة معها في بيتها. إنّ ذلك محتشم لكلينا، ادّعى.

– ما دمتِ تقبلين بهذه القصّة، اتركيني أعيشها كاملة.

لو وضعنا جانباً عدد الأمسيات التي يقضيها في العمل، وأوقات الغداء التي يغيبها عن البيت، فإنّه يفرد وقتاً لنُويلي أكثر ممّا يفعل معي. انقلبتُ ضدّ نفسي. لقد غشّاني بالحسابات. وبعدّ السّاعات، كان غالباً معي. لكن هناك وقت كثير يقضيه في العمل وتصفّح المجلّات؛ أو أنّنا نرى أصدقاءنا. عندما يكون مع نُويلي لم يهتمّ بسواها.

انتهى بي الأمر لأرضخ. ما دمتُ قد تبنّيتُ أسلوب التفهّم، والصّلح، فإنّه يجب التشبّث بذلك. يجب ألّا أحطّم جبهتي. لو أنّي اخترتُ إفساد مغامرته، ستبدو له أجمل، وسيصيبه النّدم. عندما أسمح له بالحياة، فإنّه سيتعب بسرعة. هذا ما أكّدته لي إيزابيل. كرّرتُ على نفسي: «صبراً».

لكن مع ذلك يجب الإقرار بأنّ بشرة ناعمة في عمر موريس أمر له قيمة كبيرة. في موجينس، كان يفكّر في نُويلي، بالطّبع. أفهم ذلك القلق في عينيه ونحنُ في مطار «نيس»: كان يتساءل ما إذا كنتُ أشكّ في شيء ما. أو إنّه خجل من كذبه عليَّ؟ هل كان الخجل وليس القلق؟ أرى وجهه لكنّي لا أفكّ لغزه.

السّبت 2 أكتوبر. صباحاً.

كانا في بيجاما يحتسيان الشّاي، كانا يبتسمان... ذلك المشهد يؤلمني. حين نرتطم بصخرة فهي الصّدمة أوّلاً، ثمّ يأتي الألم: بدأتُ

أعاني بعد أسبوع من التّأخير. فيما مضى كنتُ مذهولة، وأفكر بعقلانيّة. أزحتُ الألم الذي تملّكني منذ الصّباح: الصُّوَر. رحتُ ألُفّ في البيت: كنتُ أعقب الخطوة بالأخرى. فتحتُ دولابه. جُستُ بنظري في بيجاماته وقمصانه وملابسه الدّاخليّة؛ وانخرطتُ في البكاء. لم أحتمل فكرة أن تلامس أخرى ملابسه بخدّها هذا الحرير النّاعم، وحنان هذا المعطف.

نقص انتباهي. فكّرتُ في أنّ موريس كبر في السنّ، أنّه يعمل بشكل مبالَغ، وبأنّه عليّ التّأقلم مع فتوره. بدأ يعاملني كأنّي أخته. أيقظت نُويلي الرّغبة لديه. أن تكون ساخنة أم لا، على أيّ حال، لا بدّ أنّها تعرف كيف تتعامل في الفراش. لقد وجد السعادة التي يمنحها إشباع امرأة. حدثت بينهما الحميميّة التي لا أحد يملكها غيري. هل كان يميل رأسها إلى كتفه عندما يستيقظ وهو يهمس لها بـ«غزالي»، «عصفوري الغابيّ»؟ أم إنّه ابتدع لها أسماء ينطقها بالصّوت نفسه؟ أو لعلّه ابتدع صوتاً آخر؟ كان يحلق لحيته، وهو يبتسم لها، عيناه داكنتان وبرّاقتان، الفم عارٍ بفعل رغوة الصّابون البيضاء. يبدو في الضّوء المتدفّق من فتحة الباب، وفي يده ورق ملفوف من السلوفان، باقة كبيرة من الورد الأحمر: هل كان يحمل لها زهوراً؟

شطر قلبي بمنشار أسنانه الحادّة.

السّبت مساءً.

انتزعني مجيء السيّدة دوروي ممّا تلبّسني. ثرثرنا وقدّمتُ لها ولابنتها الأغراض التي لم تأخذها لوسيان معها. بعد المعينة نصف العمياء والمهووسة التي خنقتني بحكاياتها المأساويّة، والأخرى التي تسرق، أحببتُ هذه المرأة النّزيهة والمتوازنة: الوحيدة التي لم أنتدبها خدمة لها.

تسوّقتُ. عادة، أتسكّع وقتاً طويلاً في ذاك الشّارع المليء بالرّوائح والأصوات والابتسامات. حاولتُ اختلاق رغبات متنوّعة أخرى عدا الفواكه، والخضر، والأجبان، والپاتي: الأسماء. من بائع الزّهور كنتُ

أشتري الخريف بغُمر اليدين. حركاتي اليوم، أراها آليّة. ملأتُ قفّتي بسرعة. شعور لم أعهده من قبل: انشراح الآخرين أجده ثقيلاً.

قلتُ لموريس في أثناء الغداء:

- على العموم، نحن لم نتحدّث، أنا لا أعرف شيئاً عن نُويلي.

- بلى، لقد قلتُ لك المُهمّ.

صحيح أنّه حدّثني عنها في نادي 46: ندمتُ لكوني لم أصغِ إليه جيّداً.

- ما زلتُ، مع ذلك، لا أفهم ما الذي تجده استثنائيّاً فيها: هناك عدد هائل من النّساء الجميلات.

فكّر:

- لديها ميزة ينبغي أن تعجبك: طريقتها في الاندفاع بكلّ ما تملك في كلّ ما يجب القيام به.

- هي طموحة، أعلم.

- شيء آخر، عدا الطّموح.

توقّف متضايقاً بالطّبع لأنّه يثني على نُويلي أمامي. عليّ القول إنّه ليس عليّ أن أبدو كأنّي أشجّعه.

الثّلاثاء 5 أكتوبر.

الآن وقد تعافت قليلاً، صرتُ أمضي القليل من الوقت إلى جانب كوليت. رغم لطفها، أخشى أن يدفعها التزامي إلى ما يشبه الانتهازيّة. يصعب أن يعيش المرء لنفسه بعد عمر من خدمة الآخرين. وألّا يسقط في فخّ الإخلاص: أعلم جيّداً أنّ كِلِمَتَيْ أعطى وأخذ هما كلمتان تتناوبان وكم أشعر بالحاجة إلى حاجة بناتي إليّ. في هذا المضمار لم أغشّ أبداً. «أنتِ رائعة»، قال لي موريس -كان يقول لي ذلك دائماً، تحت هذه الحجّة أو الأخرى- «لأنّ إسعاد الآخرين، يسعدك أوّلاً». كنتُ أضحك: «نعم، إنّه شكل من أشكال حبّ الذّات». الحنانُ الذي في عينيه: «الأشهى على الإطلاق».

الأربعاء 6 أكتوبر.

شحنوا لي الطّاولة التي وجدتُها يوم الأحد في المعرض؛ طاولة ريف حقيقيّة بخشب سميك، قليل التّجميع، ثقيلة وواسعة. بيت الفطور هذا أجمل من غرفتنا. رغم حزني، بالأمس مساءً -سينما، منوّم، ريجيم تعوّدتُ عليه- استمتعتُ بجمال هذا الصّباح. وحقيقة لقد انشرحتُ. لكن ماذا؟ منذ عشر سنوات رتّبتُ هذه الغرفة في أثناء زيارة قام بها لأمّه المريضة. أذكُر وجهه وصوته: «كم سيكون رائعاً أن يكون المرء سعيداً هنا!» أشعل نار حطب كبيرة، واشترى الشمبانيا؛ حمل إليَّ ورداً أحمر. كان في ذلك الصّباح ينظر، ويبدي بسحنة -ماذا يُقال؟ - إرادة طيّبة.

هل تبدّل فعلاً؟ من جهة، طمأنني اعترافه: لديه قصّة، كلّ شيء يُفَسَّر. لكن هل كانت لتصير لديه حكاية لو أنّه ظلّ الشّخص الذي أعرفه؟ حدستُ ذلك وكانت تلك إحدى الأسباب الغامضة لاعتراضي: لا يمكن للمرء تغيير حياته ما لم يغيّر ما بنفسه. المال، الأوساط الرّاقية: يشمئزّ من ذلك. كان ذكائي يسحره عندما كنّا نسحب الشّيطان من ذيله: «أنتِ رائعة!» زهرة بسيطة، وفاكهة جميلة، وكنزة صنعتُها له بنفسي: كانت كنوزاً عظيمة. غرفة الفطور التي رتّبتُها بحبّ كبير، حسناً! لم يكن فيها شيء خارق مقارنة بمنزل آل «تالبو». ومنزل نُويلي؟ كيف هو؟ لا بدّ أنّه أكثر رفاهاً من بيتنا.

الخميس 7 أكتوبر.

في العُمق، ماذا جنيتُ من قوله الحقيقة؟ إنّه يقضي ليالي معها الآن: هذا يناسبهما. أتساءل... لكنّه أمر بدهيّ. الباب الذي صفقه وكأس الويسكي في يده: كلّ شيء مُضمَر. لقد جرّني لأسأله. وأنا الغبيّة التّافهة، ظننتُ أنّه يحدّثني بنُبل...

--- إلهي! كم أنّ الغضب موجع. اعتقدتُ أنّي أستطيع التّماسُك حتّى مجيئه. في الواقع، ما من سبب يجعلني أتّخذ هذه السّحنة. لم يعرف

كيف يتصرّف، احتال كي يجد مخرجاً من متاعبه: هذه ليست جريمة. فقط أريد أن أعرف إن كان قد حدّثني في ذلك لأجلي أم لصالحه الخاص.

السبت 9 أكتوبر.

أحسستُ بالغبطة إزاء نفسي، لأنّي قضيتُ يومين هادئين. كتبتُ رسالة جديدة للمرشدة التي أشار عليَّ بها السيّد بارون والتي لم تُجبني. أشعلتُ نار حطب جيّدة، وشرعتُ في صنع فستان لي. رنّ الهاتف حوالي السّاعة العاشرة والنّصف. كان تالبو يريد موريس.

قلتُ:

- هو في المخبر. اعتقدتُ أنّك في المخبر أيضاً.

-... يعني... كان يجب الذّهاب لكنّي مصاب بنزلة برد. ظننتُ أنّ لاكومب لا بدّ أن يكون قد خرج، سأتّصل به في المخبر، المعذرة على الإزعاج.

الجُمل الأخيرة سريعة ومتكلّفة. لم أسمع سوى هذا الصّمت: «... يعني». ثمّ صمت بعده. بقيتُ دون حركة، نظراتي مركّزة على الهاتف. كرّرتُ عشر مرّات العبارَتَين كأسطوانة مُتعَبة: «أنّكَ في المخبر أيضاً -... يعني...» ودون تخلّف، ذاك الصّمت.

الأحد 10 أكتوبر.

عاد قبل منتصف اللّيل بقليل. قلتُ له:

- اتّصل تالبو. اعتقدتُ أنّه معك في المخبر.

أجابني دون أن ينظر ناحيتي:

- لم يأتِ.

قلتُ:

- وأنتَ أيضاً.

ساد صمتٌ قصير:

- نعم. كنتُ في بيت نُويلي. توسّلت إليَّ كي أمرّ لأراها.

- أن تمرّ! بقيت ثلاث ساعات. حدث من قبل أن مررتَ إلى بيتها عندما كنتَ تقول لي إنّك ذاهب إلى العمل؟

- كيف؟ لكنّها المرّة الأولى، قال لي بلهجة سخط كما لو أنّه لم يكذب عليَّ من قبل أبداً.

- إنّها مرّة إضافيّة. وما فائدة قول الحقيقة، ما دمتَ مستمرّاً في الكذب عليَّ؟

- معكِ حقّ. لكنّي لم أجرؤ...

جعلتني تلك الجملة أثب من مكاني: غضب حبيس وجهد خرافيّ كي أحافظ على ظاهر هادئ.

- لم تجرؤ؟ هل أنا امرأة متوحّشة! اذكُر لي امرأة سلسة الطّباع مثلي! أصبح صوتُه سيّئاً.

- لم أجرؤ لأنّك بدأت تجرين الحسابات في ذلك اليوم: عدد كذا ساعات لنُويلي، عدد كذا ساعات لي...

- مثلاً! أنتَ من شوّشني بالحسابات!

تردّد لحظة وقال بنبرة استسلام:

- حسناً أعترف بأنّي مذنب. لن أكذب أبداً في المستقبل.

سألتُه لماذا تمسّكت نُويلي برؤيته إلى هذا الحدّ.

- لم يكن الوضعُ مريحاً بالنّسبة إليها، أجابني.

سيطر عليَّ الغضب:

- إنّها قمّة! تعرف أنّي موجودة وهي معك!

- لا يمكنها أن تنسى ذلك: هذا ما يؤرّقها.

- أزعجها؟ تريدك لها وحدَها؟

- هي متعلّقة بي...

نُويلي غيرار، هذه الأصوليّة الباردة، لا بدّ من الإقرار بأنّه ماكر أن يلعب المرء على وتر الحبّ!

- يمكنني أن أختفي، إن كان هذا يريحك! قلتُ له.

وضع يده على ذراعي:

- أرجوكِ، مونيك، لا تتعاملي مع الأمور بهذا الشّكل!

كانت سحنته متعبة وحزينة - أنا التي أُجَنُّ من أجل تنهيدة منه- لم أكن في مزاج يسمح لي بأن أرقّ. قلتُ بحدّة:

- وكيف تريدني أن أتعامل مع الأمور؟

- دون عدائيّة. حسناً، أخطأتُ بدخولي في قصّة مماثلة، يجب أن أحاول العثور على مخرج دون إيذاء أحد.

- لا أطلب منك الشّفقة.

- المسألة ليست مسألة شفقة! بل بالتسبّب لك في الألم بدافع أنانيّة، هذا يعصف بي. لكن افهمي أنّه يجب أخذ جانب نُويلي بعين الاعتبار.

نهضتُ، أحسستُ بأنّي لا أتحكّم في نفسي.

- لنخلُد إلى النّوم.

وفي هذا المساء، فكّرتُ في أنّ موريس ربّما يكون قد روى لنُويلي محادثتنا. لماذا لم أفكّر في ذلك؟ هما يتحدّثان في شأنهما إذن في شأني. ثمّة تواطؤ بينهما مثل الذي بيني وبين موريس. نُويلي ليست فقط مجرّد عقبة في حياتنا: أنا في قصّتهما الرّومانسيّة مأزق، وعثرة. بالنّسبة إليها هي لا ترى أنّ ما بينهما نزوة عابرة، بل تطمح إلى علاقة جادّة مع موريس. وهي ماهرة في تصرّفاتها. ردّة فعلي الأولى هي الأصوب؛ كان عليّ أن أصرخ في وجه موريس: إمّا أنا أو هي. كان سيؤاخذني على ذلك فترة، لكن بعد ذلك سيشكرني دون شكّ. لم أقدر على ذلك. رغباتي وإرادتي ومصالحي لم تختلف يوماً عن رغباته ومصالحه وإرادته.

المرّات النّادرة التي اعترضتُه فيها كانت تصبّ في صالحه. الآن، يجب أن أقف في مواجهته قولاً وفعلاً. ليست لديّ القوة الكافية لأشعل هذه الحرب. لكنّي لستُ متأكّدة إن كان صبري صفاقة. المرير هو أنّ موريس لا يدري بما يجول في خاطري. أعتقد أنّه بالقليل من «لامنطق» الرّجال سينجح أخيراً في إقناعي بندمه تجاهي. هل يجب أن أكون متفهّمة ولامبالية ومبتسمة؟ آه! لا أدري. لم أتردّد يوماً في تصرّف عليّ اتّباعه. بلى! في شأن لوسيان. عندها أطلب النّصح من موريس. والآن أجد نفسي وحدي في مواجهته.

الخميس 14 أكتوبر.

وجدتُ نفسي ضحيّة مناورة. من يقودها؟ موريس، نُويلي، كلاهما؟ لا أعرف كيف أبطلها، هل بالتّخاذل، أم بالمقاومة. وأين يأخذني؟

بالأمس، ونحن عائدان من السّينما، قال لي موريس بنبرة حذرة بأنّه سيطلب منّي خدمة: يريد قضاء عطلة نهاية السبوع مع نُويلي. في المقابل، سيرتّب الأشياء كي لا يعمل مساءً، على نحو يسمح لنا بقضاء وقت أطول مع بعضنا بعضاً. انتفضتُ ثائرة. تصلّبت قسماتُ وجهه: «لن نتحدّث في ذلك». عاد إليه الودّ لكنّي كنتُ متضايقة لأنّي رفضتُ له طلباً. قرّر بأنّي تافهة، أو على الأقلّ عدائيّة. لن يتردّد في الكذب عليَّ في الأسبوع المقبل: سيكون الانفصال قائماً بيننا... «حاولي أن تعيشي معه هذه القصّة»، قالت لي إيزابيل.

قبل الذّهاب إلى النّوم، قلتُ له إنّي ندمتُ على تصرّفي بعد تفكير عميق: تركتُ له حرّيته. لم يبدُ فرحاً، بل العكس، بدا لي أنّي رأيتُ الأسى في عينيه:

- أعرف أنّي أطلب منك الكثير؛ أشياء فوق الطّاقة. لا تظنّي أنّي لا أملك ضميراً.

- أوه! الضّمير! لماذا يصلُح؟

- لأجل لاشيء طبعاً. أقول لك ذلك هكذا. لعلّه أكثر عفّة أن يكون لنا ضمير.

بقيتُ مستيقظة وقتاً طويلاً؛ هو أيضاً على ما أظنّ. فيمَ كان يُفكّر؟ تساءلتُ إن كانت لي أسباب تجعلني أستسلم. إلى أين وأنا أنتقل من عزوف إلى آخر؟ وفي الوقت الحاضر أنا لا أستفيد شيئاً. ما زال الوقتُ مبكّراً بلا ريب. قبل أن تتعفّن هذه العلاقة، يجب أن أتركها تنضج أوّلاً. كرّرتُ ذلك على نفسي. أرى أحياناً أنّي متعقّلة وأرى في أحيان أخرى أنّي جبانة. في الواقع، كنتُ عزلاء تماماً، لأنّي لم أتخيّل يوماً أنّ لي حقوقاً. أنتظر الكثير من الأناس الذين أحبّهم - الكثير ربّما. أنتظر وربّما أطالب. لكنّي لا أعرف كيف أكون متطلّبة.

الجمعة 15 أكتوبر.

مضى وقتٌ طويل لم أرَ فيه موريس منشرحاً وسعيداً بهذا الشّكل. أفرد لي ساعتين بعد الظّهيرة ليصحبني إلى معرض فنّ أناضولي. أراد دون شكّ مصالحة حياتنا مع مغامرته: أتمنّى ألّا يدوم ذلك طويلاً.

الأحد 17 أكتوبر.

بالأمس انسحب من الفراش قبل الثّامنة صباحاً. تناهت إليَّ رائحة عطره. أغلق باب الغرفة وباب المنزل برفق. رأيتُه من النّافذة يلمّع سيّارته بسرور؛ بدا لي يغنّي.

كانت السّماءُ صيفيّة ناعمة، فوق آخر أوراق الخريف. (المطر الذّهبيّة لأوراق الأكاسيا على الطّريق الورديّة والرّماديّة، في طريق العودة من نانسي). صعد إلى السيّارة. شغّل المحرّك ونظرتُ إلى مكاني بجانبه؛ مكاني الذي ستجلس فيه نُويلي. انطلق بالسيّارة وأحسستُ بأنّي قلبي انفطر. سار بسرعة. اختفى. إلى الأبد. لن يعود. لن يكون هو من عاد.

قتلتُ الوقت ما استطعتُ. كوليت، إزابيل. شاهدتُ شريطين: برغمان

مرّتين لفرط ما شدّني. هذا المساء، وضعتُ أسطوانة جاز، أشعلتُ ناراً في الموقد، حِكتُ وأنا أراقب اللّهب. عادة، لا ترعبني الوحدة. بل إنّها تريحني بمقادير قليلة: الحضور العزيز على قلبي يتعب قلبي: أجزع من أجل خطّ تجاعيد، أو خفقة رمش. وحتّى لا أكون ثقيلة -أو ساذجة- ينبغي أن أكتم ما أخشاه، وأن أكبح وثباتي. أن أفكّر فيهما، من بعيد، إنّها هدنة مريحة. في السّنة الماضية عندما كان موريس في ندوة في جينيف، بدت لي الأيّام قصيرة: عطلة نهاية الأسبوع هذه لا تنتهي. أهملتُ الحياكة لأنّها لم تكن تحميني: ماذا يفعلان؟ أين هما، ماذا يقول بعضهما لبعض، كيف ينظران أحدهما إلى الآخر؟ ظننتُ أنّي منيعة ضدّ الغيرة: لكن لا. فتّشتُ في جيوبه وأوراقه دون جدوى بالطّبع. من المؤكّد أنّها كتبت له عندما كان في موجينس: كان حريصاً على إخفاء بريده المتخلّف. وأخفاه في مكان ما من عيادته. لو طلبتُ منه أن أقرأه هل كان ليمدّني به؟

أطلب منه... ممّن؟ من الرّجل الذي يتنزّه مع نُويلي، الذي لا أريد أن أتخيّل -بل لا أقدر- وجهه وحديثه؟ من الرّجل الذي أحبّه ويحبّني؟ هل كان هو نفسه؟ لم أعد أعرف. ولا أدري إن كنتُ أجعل من الجبل كومة تراب بجانب حفرة خلد أم العكس.

... بحثتُ عن ملجأ في ماضينا. نشرتُ العلب المليئة بالصّور أمام النّار. وجدتُ صورة موريس وسط الاكتظاظ: يومئذ كنّا معاً قرب جادة «غران-أوغستين» Grands-Augustins، كنّا نسعف الـ F.F.I[1] الجرحى. في هذه الصورة نحن في طريق «كاپ كورس»، على متن تلك السيّارة الدّافعة القديمة التي أعطتنا إيّاها أمّه. أذكر تلك اللّيلة قريباً من «كورت» حيثُ وقعنا في عُطل. بقينا بلا حركة، مُحرجين بسبب الصّمت والعزلة. قلتُ: «يجب أن نحاول إصلاحها. ـــ قبّليني أوّلاً»، قال لي موريس. واستغرقنا في قبلة قويّة وطويلة وبدا لنا أنّه لا البرد ولا التّعب ولا أيّ شيء في العالم في وسعه أن يحدث لنا.

1- F F I : قوّات الأمن الدّاخلي.

هذا غريب. هل يعني ذلك شيئاً؟ كلّ الصّور التي لامست قلبي، مضى عليها أكثر من عشر سنوات: قمّة أوروبا، وتحرير باريس، وعودة نانسي، والعُطل في طريق «كورت». يمكنني ذكر المزيد: أصيافنا الأخيرة في موجينس، وفينيسيا، وعيد ميلادي الأربعون. إنّها لا تؤثّر فيَّ بالدّرجة نفسها. ربّما لاحت الذّكريات البعيدة أجمل.

تعبتُ من طرح الأسئلة، من تجاهل الأجوبة. زلّت قدمي. لم أعد أعرف المنزل. تبدو الأغراض تقليداً لأنفسها. الطّاولة الثّقيلة لغرفة الفطور محفورة. كما لو أنّه قد قُذف بالبيت وبي في بعد رابع. لن أندهش لو أنّي وجدتُ نفسي في غابة من عصور ما قبل التّاريخ، أو في مدينة من العام 3000.

الثّلاثاء 19 أكتوبر.

بيننا توتّر. هل كان خطئي أم خطأه؟ استقبلتُه بشكل طبيعيّ للغاية؛ حدّثني عن عطلة نهاية الأسبوع. كانا في «سولونْي». (هل راق لها ذلك؟) انتفضتُ حين قال إنّهما تناولا العشاء وناما في فندق «فورنفيل»:

- في هذا المكان الرّاقي والباذخ؟

- جميل جدّاً، قال موريس.

- قالت لي إيزابيل إنّ زخرفه من النّوع الذي يحبّذه الأمريكان: حافل بالنّباتات الخضر والعصافير والأشياء العتيقة المزيّفة.

- هناك نباتات خضر وعصافير وأشياء قديمة حقيقيّة وأخرى مزيّفة. لكنّه ديكور جميل جدّاً.

لم ألحَّ أكثر. أحسستُ بتصلّب في صوته. في العادة، ما يعجب موريس هو أن يكتشف حانة صغيرة بلا تصنّع حيثُ يمكن أن نأكل، والفندق المعزول في مكان جميل غير مأهول. حسناً، أقرّ أنّه أبدى عزوفاً من نُويلي: لكنّه لم يكن في حاجة إلى زعم تذوّقه للهمجيّة التي كانت تفتنها. إلّا إذا كانت قد أصبحت مؤثّرة عليه. شاهد آخر أفلام برغمان معها في شهر أوت/ آب، في عرض خاصّ (نُويلي لم تكن تحضر سوى

العروض الخاصّة أو الحفلات) ولم يرق له الفيلم. لا بدّ أنّها قالت له إنّ برغمان لم يعد يساير العصر، ليس لديها ما تقوله خلاف ذلك. تبهره لأنّها توهمه بأنّها على اطّلاع على كلّ جديد. رأيتُها في السّنة الماضية خلال العشاء عند ديانا. ألقت درساً عن المسرحيّات الرّاقصة. ثمّ أسهبت في الحديث عن محاكمة «رومپال» Rampal [2]، التي ربحتها. استعراض سخيف حقّاً. بدت «لوس كوتوريي» مشمئزّة وطرفت لي بعينها تعبيراً عن تواطئها معي. لكنّ الرّجال كانوا يصغون إليها بأفواه فاغرة: بينهم موريس. رغم أنّه لم يكن من النّوع الذي ينساق إلى الكذب.

لا يجدر بي أن أهاجم نُويلي، لكن أحياناً يكون ذلك غصباً عنّي. لم أناقش موضوع برغمان. لكن في المساء، في أثناء العشاء، تخاصمتُ مع موريس لأنّه دافع عن إمكانيّة شرب النّبيذ الأحمر مع السّمك. ردّة فعل نُويلي المُنتظرة: عارفة كبيرة بالأطعمة التي لا تتماشى بعضها مع بعض. فدافعتُ عن قاعدة الجمع بين النّبيذ الأبيض وبين السّمك. سخن الجوّ بيننا. يا للشّفقة! على أيّ حال أنا لا أحبّ السّمك.

الأربعاء 20 أكتوبر.

اعتقدتُ أنّ عليّ تخطّي وضع مزعج إنّما نزيه، عندما حدّثني موريس ليلاً. كنتُ أجهل أين وصلتُ، وما الذي يجب أن أناضل ضده ولماذا؟ في أوضاع مشابهة هل كانت نساء أخريات ستحترن؟ إيزابيل ظلّت تردّد بأنّ الوقت في صالحي. أريد أن أصدّقها. أمّا ديانا فلم يعد يهمّها إن كان زوجها يخونها أم لا منذ أن أصبح يعتني بها وبأولادها بلطف. لم تعد أهلاً لتقدّم لي النّصح. مع ذلك، اتّصلتُ بها كي أسألها عن معلومات تخصّ نُويلي: كانت تعرفها وتكرهها. (عرضت نُويلي تسبقات على «لوميرسيي» ورفض؛ لم يعجبها ذلك). سألتها منذ متى وهي على علم بعلاقتها بموريس. فتظاهرت بالمفاجأة وقالت إنّ نُويلي لم تحدّثها عن

2- «رومپال» Rampal: عازف فلوت فرنسي ولد سنة 1922.

شيء: ليست مقرّبة منها مطلقاً. حدّثتني بأنّ نُويلي قد تزوّجت برجل غنيّ جدّاً في العشرين من عمرها. طلّقها زوجها -مؤكّد لأنّه ضاق ذرعاً بخيانتها- وحازت على غرامة محترمة؛ كانت تسلبه بعض الهدايا الفاخرة؛ جرى التّفاهم يسيراً بينها وبين المرأة الجديدة وكانت تقيم في بعض الأيّام في ڤيلا «لا ناپول». ضاجعت أشخاصاً كثيرين -مهمّين لمسيرتها المهنيّة، عادة- والآن هي في حاجة إلى علاقة متينة. لكنّها ستهجر موريس حالما تعثر على رجل ثريّ وأكثر شهرة منه. (أحبّذ لو أنّه يبادر). ابنتها عمرها أربعة عشر عاماً وتربّت في وسط راقٍ جدّاً: ركوب خيل، ويوچا، وفساتين «ڤيرجيني». تدرس في المدرسة الألزاسيّة مع ابنة ديانا الثّانية وهي تتباهى بشكل لا يُصدّق. وتشكو من إهمال أمّها لها في الوقت نفسه. تقول ديانا إنّها كانت تطلب من حرفائها أجوراً فاحشة، وإنّها تولي عناية كبيرة بالدّعاية، وإنّها على استعداد لفعل أيّ شيء من أجل أن تنجح. في السّنة الماضية، تحدّثنا عن غرورها. كان من السّخيف أن تخفّف عنّي تلك المذبحة. بدا ذلك شبيهاً بجاذبيّة سحريّة: حيثُ نغرز الإبر يكون الغريم مُشوّهاً وسيرى العاشق الجروح القبيحة. من المستحيل ألّا يكون موريس قد لاحظ ما رسمناه لنُويلي. (ثمّة أمر سأقوله له: ليست هي من رافعت في قضيّة «رومبال».)

الخميس 21 أكتوبر.

اتّخذ موريس جانب المدافع:

- أسمعُ ديانا! إنّها تكره نُويلي!

- صحيح، قلتُ. لكن ما دامت نُويلي تعرف ذلك فلماذا تستمرّ في مخالطتها؟

- ولِمَ قد تلتقي ديانا نُويلي؟ إنّها علاقات راقية. إذن؟ قال لي بتحدٍّ. ماذا روت لك ديانا؟

- ستقول إنّه إضمار شرّير.

– هذا؛ بالتّأكيد: النّساء اللّاتي لا يفعلن شيئاً لا يمكنهنّ استساغة النّساء المتفوّقات. (النّساء اللّاتي لا يفعلن شيئاً: علقت الكلمة في قلبي. ليست كلمة من موريس).

– ولا تحبّ النّساءُ المتزوّجات أن نرتمي في أعناق أزواجهنّ، قلتُ.

– آه! على طريقة ديانا؟ قال لي موريس بمرح.

– تدّعي نُويلي العكس، بالطّبع. كلّ منّا له حقيقته...

نظرتُ إلى موريس.

–وفي حالتك، من ارتمى في عنق الآخر؟

– رويتُ لكِ كيف حدث ذلك.

نعم لقد حدّثني في حانة 46، لكن بشكل مُشوّش. جلبت له نُويلي ابنتها المُصابة بفقر الدّم، واقترح عليها قضاء أمسية معها، ووافقت، وجدا نفسيهما في الفراش. أوه! لا فرق عندي. أردفتُ:

– إذا أردتَ أن تعرف، قـرّرت ديانا أنّ نُويلي مُهتمّة بك، انتهازيّة ومتكبّرة.

مكتبة
t.me/t_pdf

– وصدّقتها؟

– على أيّ حال هي كاذبة.

تحدّثتُ عن قضيّة «رومبال» التي ادّعت أنّها رافعت فيها، والحالُ أنّها ساعدت فيها السيّد «بريڤان».

– لكنّها لم تقل العكس. اعتبرتها قضيّتها بحكم أنّها اشتغلت عليها كثيراً، هذا كلّ ما في الأمر.

إمّا أنّه يكذب أو أنّه دلّس ذكرياته. أنا على يقين من أنّها تحدّثت عن مرافعة.

– على أيّ حال هي تنسب نجاح القضيّة لنفسها.

– اسمعي، قال منشرحاً، إن كان لديها كلّ العيوب التي ذكرتِها، كيف تفسّرين أن أقضي معها خمس دقائق؟

- أنا لا أفسّر.

- لن أمجّدها لكِ. لكنّي أؤكّد لها أنّها امرأة محترمة.

كلّ ما أقوله ضدّ نُويلي، يعتبره موريس دليلاً عن غيرتي. هذا أحسن من أن ألزم الصّمت. لكنّها مسيئة لي جدّاً. إنّها تذكّرني بأختي: الثّقة في النّفس، والبلاغة نفسها في الحديث، والأناقة المُهمَلة بشكل متعمّد. أعتقد أنّ هذا المزيج من الغنج والقسوة يعجب الرّجال. عندما كان عمري ستّ عشرة وعمرها ثماني عشرة كانت تسلب منّي المعجبين بي. حتّى إنّي كنتُ في قمّة القلق وأنا أقدّم لها موريس. حلمتُ بكابوس رهيب، رأيته فيه يقع في حبّها. غضِبَ. «إنّها سطحيّة جدّاً! ومزيّفة وتزعم الهيبة! لمعان مغلوط! أنتِ هي الجوهرة الحقيقيّة». أصليّة: كلمة على الموضة، في تلك الفترة. قال إنّي أصليّة. على أيّ حال، أنا من يحبّ، ولم أؤاخذ أختي على شيء، كنتُ سعيدة بما أنا عليه. فكيف يحترم نُويلي التي هي من صنف «ماريس»؟ فاتني أنّه قد يجد راحة مع شخص لا أجد معه راحة ـــ شخص ينبغي أن ينفّره لو كان حقّاً وفيّاً لشفرتنا. لقد تغيّر. إنّه ينساق وراء القيم المُزيّفة التي طالما حقدنا عليها. أو أنّه يستغلّ نُويلي. أريده أن يُبصِر. بدأ صبري ينفد.

«النّساء اللّاتي لا يفعلن شيئاً لا يمكنهنّ استساغة النّساء المتفوّقات». فاجأتني العبارة وجرحتني. يرى موريس أنّ المرأة العاملة شيء جيّد؛ تحسّر كثيراً لأنّ كوليت اختارت الزواج والعيش في البيت، بل لقد لامني لأنّي لم أؤثّر عليها كي تغيّر قرارها. لكنّه يعترف أنّ لدى المرأة وسائل أخرى تثبت بها جدارتها. لم يخطر له أنّي «لا أفعل شيئاً»؛ بالعكس، كان مستغرباً من كوني أعتني بجدّية بالحالات التي يشير عليَّ بها إضافة إلى اهتمامي بالبنتَين وبالبيت؛ دون أن يبدو الجوّ مشحوناً أو مسبّباً للإرهاق. تبدو له بقيّة النّساء إمّا سلبيّات جدّاً أو مضطربات جدّاً. أنا، كانت لي حياة متوازنة؛ بل لقد قال إنّها متناغمة. «كلّ شيء متناغم في بيتِكِ.» لاح لي غير مُحتَمَل أن يمجّد تفوّق نُويلي على النّساء «اللّاتي لا يفعلن شيئاً».

الأحد 24 أكتوبر.

بدأتُ أرى بوضوح في عينَيْ نُويلي: تريد أن تختزلني في امرأة البيت المُحبّة والمُعدّة كي نتركها في البيت. أودّ الجلوس مع موريس في زاوية قريباً من النّار؛ لكنّي أرى أن من المُدمّر أن تكون هي من يأخذها إلى الحفلات والمسارح. ثرتُ، يوم الجمعة، لمّا قال لي إنّه كان معها في حفلة تدشين:

- أنتِ تكرهين حفلات التّدشين! أجابني.

- لكنّي أحبّ الرّسم.

- إذا ثبت أنّ الرّسوم جيّدة، فسأصحبك إليها.

من السّهل قولُ ذلك. تعيره نُويلي الكتب؛ إنّها تلعب دور المُثقّفة. أعرف الأدب والموسيقى العصريّة أقلّ منها، هذا صحيح. لكنّي إجمالاً، لستُ أقلّ منها ثقافة أو ذكاءً. قال لي موريس يوماً، إنّه يعوّل على رأيي كثيراً لأنّه «متبصّر وسخيف». أحاول التّعبير عمّا أفكّر فيه، وفيما أحسّه: هو أيضاً؛ ولا شيء يبدو في نظرنا نفيساً أكثر من تلك النّزاهة. لا ينبغي أن أسمح لنُويلي بأن تبهر موريس باستعراضاتها، طلبتُ من إيزابيل المُساعدة. خلسة عن موريس، طبعاً، وإلّا لسخر منّي.

ظلّت تحثّني على الصّبر؛ أكّدت لي أنّ موريس لا يزال جديراً بالاحترام والصّداقة. راق لي أن تقول عنه ذلك؛ لأنّه بدأ يبدو في نظري غريباً عنّي، لشدّة ما سألتُ نفسي في شأنه، والارتياب من جهته، وتأنيبه. صحيح أنّه في سنواتنا الأولى، بين عيادته وبين البيت حيثُ يصرخ الأطفال، كانت حياته ستتحوّل إلى شيء كئيب لولا الحبّ الذي يجمع بيننا. قالت لي إنّه أحجم عن إقامته الجامعيّة الدّاخليّة لأجلي؛ وكان في مستطاعه أن يلومني على ذلك. أعارضها في هذه النّقطة. أخّرته الحرب، تراكمت عليه الدّروس، وتمنّى حياة كبار. كان كلانا مسؤولاً عن الحمل، ولم يكن من الحكمة المجازفة بالإجهاض. لا، كان ذلك سيخلّف ضغينة نحنُ في غنى عنها. جعله زواجنا سعيداً أكثر منّي. ولعلّها من ميزاتي أنّي

أظهرتُ غبطة، ورقّة في ظروف سيّئة، بل وصعبة للغاية. إلى أن ظهرت هذه الحكاية، لم يكن هناك ظلّ لوم ألقيتُه عليه.

منحني حوارنا الشّجاعة: طلبتُ من موريس قضاء عطلة نهاية الأسبوع القادمة معاً. أردتُ أن يجد معي الغبطة والحميميّة التي نسيها؛ وأن يتذكّر ماضينا. اقترحتُ عليه العودة إلى نانسي. اتّخذ سحنة المتضايق والمُحرَج لأنّ هناك أشياء في انتظاره في مكان آخر. (تمنّيتُ أن يثبت له الموقف أنّ المشاركة مستحيلة).

لم يجب بلا ولا بنعم: الأمر رهين مكتبة المرضى.

الأربعاء 27 أكتوبر.

طبعاً، لا يمكنه مغادرة باريس في نهاية الأسبوع هذا. هذا يعني أنّ نُويلي عارضت. ثرتُ؛ بكيتُ أمامه للمرّة الأولى. بدا مذعوراً: «أوه! لا تبكي. سأحاول إيجاد من يعوّضني!» وانتهى به الأمر ليبرهن لي إنّه سيتصرّف: هو أيضاً يرغب في نهاية الأسبوع هذه. صحيح أم لا. لكن الأكيد هو أنّ دموعي قد بعثَرته.

أمضيتُ ساعة في محادثة مع مرغريت. بدأ صبرُها ينفد. كم هي طويلة هذه الأيّام! المرشدة لطيفة، لكنّها لا تسمح لها بالخروج معي دون إذن لا يأتي أبداً. دون شكّ، بسبب إهمال محض، لأنّي قدّمتُ كلّ الضّمانات الأخلاقيّة.

الخميس 28 أكتوبر.

إذن، خرجنا معاً يوم السّبت والأحد. «تصرّفتُ!» قال لي بنبرة ظفر. كان فخوراً لأنّه عاند نُويلي: فخوراً جدّاً. هذا يعني أنّ الصّراع كان حامياً، أي إنّها تعني الكثير بالنّسبة إليه. كان متوتّراً طيلة المساء. احتسى كأسيْ ويسكي بدل واحدة ودخّن دون توقّف. كان مبتهجاً بإعادة المعابر بيننا لكنّ تحفّظي خيّب ظنّه:

- لستِ سعيدة؟

- بلى بالطّبع.

كنتُ نصف سعيدة. هل احتلّت نُويلي مكاناً مهمّاً في حياته إلى درجة أنّه يجب الدّخول معها في صراع كي يأخذني في عطلة نهاية الأسبوع؟ وأنا نفسي، هل أنا على وشك اعتبارها غريمتي؟ لا. أرفض الشّكوى، والحسابات والغدر والانتصارات والهزائم. سأحذّر موريس: «لن أتعارك مع نُويلي من أجلك».

الاثنين 1 نوفمبر.

هذا يشبه الماضي بشكل كبير: بل لقد خُيّل إليَّ أنّ الماضي سيولد من جديد من رحم ذلك الشّبه. سرنا في الضّباب ثمّ تحت شمس جميلة وباردة. في حانة «لو دوك»، في سان ميهيال، رأينا بالعاطفة القديمة نفسها أعمال «ليجيي ريشي» Ligier Richier؛ أنا من عرّفته عليها؛ ثمّ منذ ذلك الوقت سافرنا كثيراً، وشاهدنا أفلاماً كثيرة، وفيلم «النّحيف» Décharné هزّنا بشكلٍ خاصّ. في نانسي، أمام قضبان ساحة «ستانيسلاس»، أحسستُ بوخزة في قلبي: سعادة مؤلمة إلى حدّ جعل منها أمراً غريباً. كنتُ أضغط بذراعي على ذراعه؛ وأحياناً كان يحيطني بذراعيه.

تحدّثنا عن كلّ شيء، عن لاشيء، عن بناتنا. لم يصدّق بعدُ أنّ كوليت قد تزوّجت «جون-پيير»؛ كيمياء، وبيولوجيا، كان لديه فكرة مستقبل باهر لها، في المقابل تركنا لها حرّيتها العاطفيّة والجنسيّة، هي تعرف ذلك. لِمَ عشقت هذا الولد السّخيف إلى حدّ التضحية بمستقبلها من أجله؟

- هي سعيدة هكذا، قلتُ.

- وددتُ لو كانت سعيدة بشكل مغاير.

ما زال رحيل لوسيان، المفضّلة لديه، يحزنه إلى اليوم. أرادها أن تبقى في باريس، أن تكمل دراسة الطبّ لمساعدته في العيادة، أراد ذلك مع ترك حريّة الاختيار لها.

- إذن، لم تكن ستعيش حرّيتها.

- بلى. كانت ستعيش حياتها الخاصّة وهي تعمل معي.

لا يحصل الآباء على البنات اللّاتي يبنين حولهنّ تصوّرات مُعيّنة يجب أن ينطوين تحتها. الأمّهات يقبلنهنّ على ما هنّ عليه. كانت كوليت في حاجة قبل كلّ شيء إلى الحماية ولوسيان إلى الحرّية؛ أفهمهما. كلّ بطريقتها، كوليت عاطفيّة جدّاً وإنسانيّة، ولوسيان حيويّة ومتألّقة، أرى أنّ كلتيهما قد نجحتا.

نزلنا في الفندق نفسه الذي أوينا إليه قبل عشرين سنة وربّما -الغرفة نفسها- لكن في طابق آخر. ذهبتُ إلى النّوم قبله، ورحتُ أراقبه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ببيجامته الزّرقاء، حافياً على الموكيت المهترئ. لم يكن يبدو سعيداً ولا حزيناً. وأعمتني الصّورة، مئة مرّة أستحضرُها، مذهولة، لكنّها لم يصبح مُستهلكة، جديدة وبرّاقة: موريس وهو يمشي حافياً فوق هذا الموكيت، في بيجامته السّوداء؛ رفع ياقته، زاويتاها تحدّان وجهه، كان يتحدّث من هنا وهناك بحماس طفل. فهمتُ أنّي جئتُ إلى هنا بحثاً عن الرّجل الهائم في الحبّ: لم ألتقيه منذ سنوات وسنوات، رغم أنّ هذه الذّكرى تراودني دائماً، مثل غربال. في هذا المساء، تحديداً لأنّ الظّرف كان مُطابقاً، سقطت الصّورة هباءً في مواجهة رجل من لحم وعظام يُدخّن سيجارة. كان لي اعتراف مُدمّر: *الوقتُ يمرّ*. انخرطتُ في البكاء. جلس على حافّة السّرير وعانقني بحنان:

- عزيزتي، صغيرتي، لا تبكي، لماذا تبكين؟

داعب شعري. قبّلني قبلات خفيفة على صدغي.

- لا بأس، انتهى، قلتُ. أنا بخير.

كنتُ في أحسن حال، كانت الغرفة تسبح في ظلال وديعة، كانت شفتا موريس ويداه رقيقتين؛ وضعتُ شفتَيَّ على شفتيه، دسستُ يدي تحت قميص نومه. فجأة وقف، دفعني بقفزة واحدة. همستُ:

- هل أقرفك إلى هذا الحدّ؟

- أنتِ مجنونة عزيزتي! لكنّي ميّت من شدّة التّعب. طقسُ المشي العظيم. أنا في حاجة إلى النّوم. نام. أطفأ النّور. أحسستُ بأنّي في قاع قبر، دمي متوقّف في عروقي، غير قادرة على الحركة أو البكاء. لم نمارس الحبّ منذ موجينس؛ هذا إذا كان ذلك يُسمّى ممارسة الحبّ... نمتُ عند الرّابعة صباحاً. حين استيقظتُ، دخل إلى الغرفة، مرتدياً ملابسه، كانت التّاسعة تقريباً. سألتُه من أين جاء.

- كنتُ أستنشق الهواء في الخارج. لكن في الخارج، كان المطر ينزل، ولم يكن يرتدي معطفه الواقي؛ لم يكن مُبلّلاً: كان يجب أن يهاتف نُويلي. لا بدّ أنّها فرضت عليه محادثتها؛ لم تكن حتّى بالكرم الذي يجعلها تتركه لي في عطلة نهاية أسبوع واحدة بائسة. لم أفُه بشيء. اكتشف كلانا أنّ الآخر يقوم بمجهود خاصّ كي يبدو سعيداً ولطيفاً. اتّفقنا على العشاء في باريس وإنهاء الأمسية في السّينما.

لماذا صدّني؟ ما زال هناك من يتحرّش بي في الطّريق، وهناك من يحاول لمسي بركبته في السّينما؛ زاد عرضي: لكن ليس كثيراً. تهدّل نهداي بعد ولادة لوسيان؛ لكن قبل عشر سنوات كان موريس لا يزال يجدهما مُثيرين. و«كيّون»، قبل سنتين، يكاد يموت لشدّة رغبته في النّوم معي. لا. لم ينتفض موريس إلّا لأنّ نُويلي تسكن تحت جلده؛ لم يعد يحتمل مضاجعة غيرها. لو أنّها حقّاً تسكن تحت جلده ويترك نفسه ينبهر بها في الوقت نفسه، فإنّ الأوضاع لا تنبئ بخير.

الأربعاء 3 نوفمبر.

شقّت عليَّ رقّة موريس: ندم على حادثة نانسي. لكنّه لم يقبّل شفتيّ أبداً منذ ذلك الحين. أشعر بأنّي بائسة تماماً.

الجمعة 5 نوفمبر.

ضبطتُ نفسي، لكن بأيّ مجهود! لحسن الحظّ أنّ موريس أخبرني. (فعل حسناً، أنا من أصرّ على فكرة أنّه كان يجب منعه من المجيء).

قصّرتُ ببقائي في البيت؛ ألحّ، لم نكن نخرج كثيراً، لن أحرم نفسي من ذلك الكوكتيل، لن يخوضوا كثيراً في غيابي. أيعتقد أنّهم سيتساءلون عنه بشكل جيّد؟ أرى آل «كوتوريي»، وآل «تالبو»، كلّ هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يزورونا في المنزل وأتساءل إلى أيّ مدى كانوا على علم بما يجري، بما أنّ مرويس ونُويلي كانا يستقبلانهم أحياناً. تالبو وموريس ليسا حميمين؛ لكن بالتّأكيد منذ اللّيلة التي ارتكب فيها الهفوة على الهاتف، حدس أنّ أشياءً تحدث وراء ظهري. موريس لم يكن يخفي شيئاً عن كوتوريي. أسمع صوته المتواطئ: «يُفتَرض أنّي معك في المخبر». والآخرون، هل كانوا يشكّون في شيء؟ آه! كنتُ فخورة بعلاقتنا: زوجان نموذجيّان. برهنّا أنّ حبّاً يمكن أن يعيش دون تعب. كم مرّة لعبتُ دور البطلة في الوفاء الخالص! في الخفاء الزّوجان المثاليّان! زوجٌ يخون زوجته، وزوجة مُهمَلَة يُكذَبُ عليها، هذا ما بقيَ. نُويلي هي التي ألحقت بي هذه الإهانة. يكاد يبدو لي ذلك غير قابل للتّصديق. نعم، ربّما تكون جذّابة، لكن دون روح، أيّ تصنّع! ابتسامتها من زاوية فمها، الرّأس المائل قليلاً، تلك الطّريقة في تلقّف الحديث من أفواه محاوريها وفجأة الرّأس مرميٌّ إلى الخلف وتلك الضّحكة الدُّرّية. امرأة قويّة في منتهى الأنوثة. كانت مع موريس مثلما كانت معه السّنة الماضية عند ديانا: محايدة وخجولة، وكانت عليه سحنة الإعجاب الغبيّ ذاتُها. ومثل السّنة الماضية، كانت الحمقاء لوس كوتوريي ترمقني بالنّظرات المتضايقة نفسها. (هل كان موريس منجذباً إلى نُويلي في السّنة الماضية؟ هل يُلاحَظُ ذلك؟ انتبهتُ إلى سحنته المنبهرة، نعم، لكن دون التّفكير في أنّ ذلك قد يفضي إلى نتيجة ما). قلتُ له مازحة:

- أجد نُويلي غير جذّابة. موريس ذوّاق.

حملقت بعينيها:

- آه! أنتِ على علم؟

- بالتّأكيد!

دعوتها لاحتساء كأس في بيتي في الأسبوع القادم. أردتُ أن أعرف من على علم ومن ليس على علم، ومنذ متى. هل يشعرون بالشّفقة تجاهي؟ هل يهزؤون بي؟ ربّما أكون تافهة أريدهم أن يموتوا جميعاً لتتحطّم الصّورة المُثيرة للشّفقة التي في أعماقهم عنّي.

السبت 6 نوفمبر.

تركتني المحادثة مع موريس منزعجة لأنّه كان هادئاً، وودوداً وبدت لي نيّته جيّدة. قلتُ له في شأن كوكتيل الأمس، وبنيّة طيّبة أيضاً، ما يضايقني في نُويلي. أوّلاً لا تعجبني مهنة المحاماة؛ ندافع عن شخص ضدّ آخر لأجل المال، حتّى لو كان الأخير هو المُحقّ. هذا منافٍ للأخلاق. أجاب موريس أنّ نُويلي تمارس مهنتها بكثير من التّعاطف؛ وأنّها لا تقبل كلّ القضايا، وأنّها تطلب أجرة باهظة من الأثرياء، نعم، لكنّها ترافع عن أناس كثيرين مقابل لاشيء. غير صحيح أنّها مهتمّة بجمع المال. ساعدها زوجها في شراء المكتب: لِمَ لا والعلاقة بينهما ظلّت جيّدة؟ (لكن لِمَ لا تكون قد حافظت على علاقتها به كي يموّل مكتبها؟) تريد أن تصل: لا عيب في ذلك ما دام المرء يتوخّى سُبلاً جيّدة. هنا، لم أعد أستطيع الحفاظ على هدوئي:

- أنت تقول هذا؛ ولم يهمّك يوماً أن تبلغ مراتب كبيرة.

- عندما قرّرتُ التخصّص، قرّرتُ ضمنيّاً عدم الإذعان للجمود.

- أنت لست جامداً.

- ذهنيّاً، بلى. كنتُ أبعد من أن أنتزع من نفسي ما أريده حقّاً.

- ليكن. لكنّك لم تتصرّف من باب الأصوليّة: أردتَ أن تتطوّر معرفيّاً في مسائل مُعيّنة. لم تكن بالنّسبة إليك مسألة مال أو مسيرة لامعة.

- حتّى بالنّسبة إلى المحامي، أن يصل، لا يعني المال والشّهرة؛ هم يترافعون في قضايا مُهمّة أكثر فأكثر.

قلتُ في كلّ الحالات، إنّ الرُّقيّ يعني الكثير بالنّسبة إلى نُويلي.

– هي تعمل كثيراً، وتحتاج إلى راحة. أجابني.

– لكن لماذا الحفلات، والعلب اللّيليّة التي على الموضة، يبدو لي هذا غريباً.

– غريباً؟ بالنّسبة إلى ماذا؟ جميع وسائل التّرفيه فيها جانب غريب.

ذبحني بهذه الكلمة. هو الذي يكره أكثر منّي الأوساط الرّاقية!

– أخيراً، يكفي أن نسمعها تتكلّم خمس دقائق كي نتأكّد من أنّها ليست أصليّة.

– أصليّة... ماذا يعني هذا؟ إنّه مُصطلح مستهلَك.

– أنتَ أوّل من استعمله.

لم يرُدّ. ألححتُ:

– تذكّرني نُويلي بماريز.

– لكن لا.

– أؤكّد لك أنّها تشبهها؛ إنّهما من نوع البشر الذين لا يتوقّفون أبداً لمشاهدة غروب شمس.

ضحِك:

– ماذا لو قلتُ لكِ إنّ هذا يحدث معي أحياناً كثيرة.

– هيّا! كفى! أنتَ تحبّ الطّبيعة مثلما أُحبّها.

– لنفرض. لكنّي لا أرى ما يجبر النّاس على أن يتذوّقوا الأشياء مثلنا.

سوء نيّته جعلني أثور:

– اسمع، قلتُ، يجب أن أخبرك بشيء: لن أشارك نُويلي فيك؛ إن كنتَ تفضّلها فهذا شأنُك. لن أصارع.

– من حدّثك عن صراع وما إلى ذلك؟

لن أعارك. لكنّي في لحظات أشعر بالخوف. هل يُعقَلُ أن يفضّلها عليَّ موريس؟ لم تخطر لي هذه الفكرة. أعرف أنّ لي ـــــ حسناً،

لنُسقِط كلمة *أصليّة* والذي هو ربّما مُتحذلق ـــ صفة لا تملكها هي. «أنتِ من معدن جيّد»، كان أبي يقول لي بفخر. وموريس أيضاً، لكن بعبارة أخرى. إنها الصّفة التي أختال بها أمام كلّ هؤلاء النّاس، أمام موريس وإيزابيل وموريس يشبهني. لا. مستحيل أن يفضّل عليَّ شخصاً فاسداً مثل نُويلي. هي رخيصة كما يُقال. يقلقني أن يقبل منها أشياء أحكم أنّها غير مقبولة. خلُصتُ للمرّة الأولى إلى أنّ هوّة اتّسعت بيننا.

الأربعاء 10 نوفمبر.

هاتفتُ «كيون» أوّل من أمس. أوه! لستُ فخورة بنفسي. أردتُ التأكّد من أنّ هناك رجلاً يجدني حسب ذوقه. برهن لي على ذلك فوراً. فماذا جنيتُ؟ لم أستعد إقبالي على نفسي.

لم أقرّر بعدُ أن يجمعني وإيّاه فراش واحد: ولا العكس. أمضيتُ وقتاً في الحمّام: سكبتُ أملاحاً مُعطّرة في الحوض وطليتُ أظفار قدميَّ. كان ذلك مُبكياً! لم يكبر في السنّ بعد سنتين بل رقّت ملامحه، كان وجهه أهمّ. لا أذكر أنّه كان أكثر وسامة. ليس بداعي أنّه لا يعجب أن يكون قد ألحّ على مجيئي لمقابلته. ربّما تكون صورتي المرسومة في مخيّلته هي التي جعلته يفعل، أخشى ـــ أخشى كثيراً ـــ أن يخيب ظنّه. لكن لا.

- أنتَ سعيدٌ إجمالاً؟

- أكون سعيداً لو رأيتُك أكثر من مرّة.

كان ذلك في مطعم جميل خلف ال ـــ «پانتيون» Panthéon [3]: أسطوانات قديمة من «نوڤيل-أورليانز»، فنّانون ظرفاء، مغنّون ذوو مسيرة جيّدة، فوضويّون. كان «كيون» يعرف الجميع في القاعة: رسّامين مثله، نحّاتين، موسيقيّين، شباباً في العموم. غنّى بنفسه مرافقاً بالقيثارة. يذكر جيّداً أيّ أغانٍ أحبّ وأيّ أكلات أحبّ؛ اشترى لي وردة؛ لديه عنّي ألف ناحية تؤدّي إليَّ ولاحظتُ كم أنّ موريس يفتقر إليها. وكان يغازلني

3- «پانتيون» Panthéon: (معلم أثريّ في قلب الحيّ اللّاتيني).

بطريقة سخيفة نوعاً ما لم أعد أسمعها منذ زمن: عن يديَّ وابتسامتي وصوتي. رويداً استسلمتُ لتلك الرقّة. نسيتُ أنّ موريس لا بدّ أنّه يبتسم الآن لنُويلي. في النّهاية، أنا أيضاً لديّ نصيبي من الابتسامة. رسم صورة جميلة لي على منديل ورقيّ: لم أبدُ عجوزاً في الصّورة. شربتُ قليلاً، ليس كثيراً. وعندما طلب منّي أن يحتسي كأساً أخيرة عندي في البيت قبلتُ. (قلتُ إنّ موريس في الرّيف). جهّزتُ كأسَيْ ويسكي. لم يتحرّك لكنّ عينيه كانت تحرساني. بدا لي أمراً غريباً أن يجلس في المكان الذي اعتاد موريس الجلوس فيه؛ غادرتني نشوتي. ارتجفتُ.

- تشعرين بالبرد. سأشعل لك ناراً كبيرة.

تعثّر ناحية الموقد، باندفاع أخرق، حتّى إنّه أسقط التّمثال الخشبيّ الذي اشتريناه أنا وموريس من مصر والذي أحبّه كثيراً. ندّت عنّي صرخة: تكسّرت!

- سأصلحها لكِ، قال لي، الأمر في غاية السّهولة.

لكنّه بدا مذهولاً: بسبب صراخي العالي، دون شكّ. بعد برهة، قلتُ إنّي متعبة وأرغب في النّوم.

- متى نلتقي ثانية؟

- سأتّصل بك.

- لن تتّصلي. لنحدد موعداً الآن حالاً.

عيّنتُ تاريخاً بشكل عشوائيّ. سأخلفه. غادر ولبثتُ سخيفة، بقطعة من تمثالي في كلّ يد. وانخرطتُ في البكاء.

أعتقد أنّ موريس طرف بعينه لمّا قلتُ له إنّي التقيتُ «كِيون».

السّبت 13 نوفمبر.

في كلّ مرّة أظنّ أنّي لامستُ القاع. ثمّ أغوص أكثر فأكثر في الشكّ والبؤس. تركت لوس كوتوريي نفسها تنقاد كطفلة؛ إلى درجة

أنّي تساءلت إن كانت قامت بذلك عمداً... دامت الحكاية أكثر من سنة. ونُويلي كانت معه في روما خلال شهر أكتوبر! فهمتُ الآن وجه موريس، في مطار نيس: تأنيب الضّمير، والخجل، والخشية من أن يُكتَشف أمره. ننزعُ دائماً إلى شحذ حدس بعد وقوع الصّدمات. لكن هنا، لستُ أبتكر شيئاً. اشتممتُ شيئاً بما أنّ إقلاع الطّائرة انتزع قلبي. نطوي تحت الصّمت قلقاً وضيقاً لا نجد الكلمات التي تعبّر عنه، لكنّه ضيق موجود.

عندما افترقنا أنا ولوس مشيتُ طويلاً دون هدف. كنتُ غبيّة. انتبهتُ إلى ذلك الآن: لم يدهشني أنّ موريس ينام مع امرأة أخرى. لم أطرح السّؤال من قبيل الصّدفة: هل هناك امرأة في حياتك؟ دون أن يعلمني أحد بما يجري من حولي، كانت فرضيّة أنّه يخونني مشوّشة وعصيّة على الإمساك، ولاحت مُجوّفة من خلال تشتّت موريس وغيابه وبروده. ربّما كان سيبدو مبالغاً فيه لو قلتُ إنّي أشكّ في شيء ما. لكنّي، أخيراً، لم يُسقَط في يدي. بينما كانت لوس تحدّثني، كنتُ أسقط وأسقط ووجدتُ نفسي مُحطّمة تماماً. كان يجب أن أنظر إلى هذه السّنة من خلال ضوء هذا الاكتشاف: موريس يضاجع نُويلي. إنّها علاقة طويلة. رحلة الألزاس التي لم نقم بها. قلتُ: «سأضحّي من أجل علاج سرطان الدّم. الحمقاء المسكينة! إنّها نُويلي من يُبقيه في باريس. في أثناء العشاء عند ديانا كانا حبيبَيْن بعدُ، ولوس كانت تعرف ذلك. وديانا؟ سأحاول استنطاقها. من يدري، لعلّ هذه القصّة أقدم ممّا أتصوّر؟ كانت نُويلي مع لويس برنارد، منذ سنتين؛ لكن لعلّها كانت تجمع بينهما. حين أفكّر في أنّي كتلة فرضيّات! إنّه أنا وموريس! كان كلّ الأصدقاء على علم! أوه! هل هذا هيّن؟ لم أعد أكترث بـ «ماذا سيقول النّاس؟» لقد انتهيتُ جذريّاً. لم تعد صورتي في أنظار النّاس تهمّني في شيء. ما يهمّني في الوقت الحاضر هو البقاء على قيد الحياة. «لا شيء تغيّر بيننا!» أيّ وهم بنيتُه على هذه الجملة. هل يقصد أنّ شيئاً لم يتغيّر بما أنّه يخونني منذ سنة؟ أو أنّه لا يرغب في قول شيء على الإطلاق؟

لماذا كذب عليَّ؟ أيظنّ أنّي غير قادرة على تحمّل وقع الحقيقة؟ أو أنّه استحى؟ إذن لماذا حدّثني؟ دون شكّ لأنّ نُويلي ضاقت ذرعاً بالتخفّي؟

على أيّ حال، ما يحدث لي فظيع.

الأحد 14 نوفمبر.

آه! ربّما لو سكتُّ لكان أفضل. لكنّه لم يكن لديَّ ما أخفيه على موريس؛ أخيراً، لا شيء جادّ في الأمر. لم أستطع أن أحفظ في قلبي كذبه ويأسي. ضرب على الطّاولة: «كلّ هذه الأقاويل!» أرعبني وجهه. أعرف وجه الغضب هذا؛ حين تُطلَبُ تسوية من موريس، يتقلّص فمه وتقسو نظراته. لكن هذه المرّة أنا المُستهدَفَةُ أو تقريباً. لا، نُويلي لم تكن معه في روما. لا، لم يُقم معها علاقة جنسيّة قبل شهر أوت/ آب. كان يراها من وقت إلى آخر، كان في إمكاننا أن نلتقيها معاً، ما من عواقب على ذلك.

– لا أحد روى لك شيئاً؛ لكنّك بُحت بما لديك لكوتوريي الذي حدّث بدوره لوس عن كلّ شيء.

– قلتُ إنّي أرى نُويلي، ولم أقل إنّي أنام معها في فراش واحد. لقد حرّفت لوس كلّ شيء. اتّصلي بكوتوريي الآن واطلُبي منه الحقيقة.

– أنت تعرف أنّ هذا مستحيل.

بكيتُ. عاهدتُ نفسي على عدم البكاء، لكنّي بكيت. قلتُ:

– أرى أنّه من الأفضل أن تروي لي كلّ شيء. لو كنتُ أعرف ما يدور من حولي لحاولتُ مجابهة الموقف. لكن أن يحيط بي الشكّ دون علم فهذا غير مقبول. إن كنتَ تكتفي برؤية نُويلي، لماذا إذن تخفيها عنّي؟

– حسناً. سأخبرك بالحقيقة كاملة. لكن صدّقيني. مارستُ الحبّ مع نُويلي ثلاث مرّات في السّنة الماضية وهذا لا يُساوي شيئاً. لم أصحبها إلى روما. هل تُصدّقينني؟

– لا أدري. لقد كذبتَ عليّ مراراً!

قام بحركة تنمّ عن يأسه:

- ماذا تريدين أن أفعل كي أقنعك؟
- لا تستطيع فعل أيّ شيء.

الثّلاثاء 16 نوفمبر.

عندما يدخل ويبتسم ويُقبّلني قائلاً: «مرحباً عزيزتي»، فإنّه موريس؛ إنّها حركاته، ووجهه، وحرارته، ورائحته. وفي داخلي تستقرّ الرقّة لحظة حضوره. أأظلّ هكذا؟ دون معرفة أيّ شيء: بالكاد فهمتُ ديانا. لكنّه أمر فوق طاقتي. أريد أن أعرف ما يجري. أوّلاً، متى يذهب إلى المخبر حقيقة؟ في المساء؟ متى يذهب إليها؟ لا أستطيع الاتّصال، سيعلم بذلك وستثور ثائرته. أأتعقّبه؟ أؤجّر سيّارة وأتعقّبه؟ أم أكتفي بمعرفة المكان الذي يركن فيه سيّارته؟ هذا بشع، إنّها السّفالة بعينها. لكنّي في حاجة إلى الرّؤية بوضوح.

تزعم ديانا أنّها لا تعرف شيئاً. طلبتُ منها أن تسأل نُويلي:

- إنّها ماكرة جدّاً؛ لن تروي لي شيئاً.

- أنتم على علم بعلاقتها مع موريس، لو حدّثتموها في الأمر لاضطرّت إلى البوح.

وعدتني بجمع المعلومات عن نُويلي: كانت لهما علاقات مُشتركة. لو أكتشف أشياء تُدمّرها في عينَيْ موريس!

لا فائدة تُرجى من لوس وكوتوريي. لا بدّ أنّ موريس قد لقّنهما الدّروس جيّداً. وسيقول كوتوريي لموريس إنّه تحدّث معي... لا، سيكون ذلك أخرق من جهتي.

الخميس 18 نوفمبر.

خلال المرّة الأولى التي راقبتُ فيها موريس أمام المخبر، كانت سيّارته في المرآب. في الثّانية، لا. تركتُ نفسي أنقاد إلى بيت نُويلي. لم أبحث طويلاً: أيّ طعنة في القلب. كنتُ أحبّ سيّارتنا، ذلك الحيوان الوفيّ والأليف، حضور حارٌّ وباعثٌ على الطّمأنينة؛ وفجأة راحت

تساعد على خيانتي؛ كرهتُها. مكثتُ أمام بوّابة، مذهولة. أردتُ الظّهور أمام موريس وهو يخرج من عندها. لن يفيد ذلك. سيجعله يغضب فحسب، لكنّي كنتُ مشوّشة إلى درجة أنّه يجب القيام بشيء ما، أيّ شيء. عقّلتُ نفسي. قلتُ في نفسي: لا بدّ أنّه يكذب كي لا يخسرني. ما دام يسعى إلى مغالطتي فهذا يعني أنّه متعلّق بوجودي في حياته. من ناحية ما، هذا صحيح، سيكون الأمر أخطر لو أنّه لم يكترث. كدتُ أنجحُ في إقناع نفسي، حين تلقّيتُ طعنة أخرى في القلب: خرجا معاً. اختبأتُ. لم يرياني. مشيا على الأقدام في الشّارع إلى غاية مقهى كبير. كانا يمشيان بأذرع متشابكة، بسرعة ضاحِكَيْن. كان في استطاعتي أن أتخيّلهما مئة مرّة يسيران بأذرع متشابكة، ضاحِكَيْن. لكنّي لم أفعل ذلك. ليس أكثر من تخيّلهما في فراش واحد، لم أجد الشّجاعة. والأمر مختلف تماماً عن رؤية ذاك. ارتجفتُ. جلستُ على مقعد رغم البرد. ارتعدتُ وقتاً لا بأس به. حين عدتُ، ونمتُ ولمّا جاء موريس عند منتصف اللّيل، تظاهرتُ بالنّوم.

لكن لمّا قال لي أمسِ مساءً: «أنا ذاهب إلى المخبر»، سألتُ:

- حقّاً؟

- طبعاً.

- كنتَ عند نُويلي يوم السّبت.

رمقني بنظرة باردة مُخيفة أكثر من نظرات غضبه:

- تتجسّسين عليَّ!

ملأتِ الدّموع عينَيَّ:

- إنّها حياتي، وسعادتي. أريد الحقيقة. وأنت تواصل في كذبك!

- أحاول تفادي المشاهد، قال بسحنة غضب.

- أنا لا أختلق المشاهد.

- لا؟

كان يُسمّي مشهداً كلّ تفسير يطرأ بيننا. عندها، ولأنّي احتججتُ،

علا صوتي وحدث بيننا مشهد. حدّثتُه عن روما من جديد. أنكر ثانية. ألم تذهب معه؟ أم إنّها كانت في جينيف هي أيضاً؟ ينهشني جهلي بالوقائع.

السّبت 20 نوفمبر.

مشاهد، لا. لكنّي خرقاء. أسيطر على نفسي بشكل سيّئ، أقول له ملاحظات تزعجه. يجب أن أعترف، لم يُبدِ يوماً رأياً إلّا وعارضتُه، متخيّلة أنّها هي من أوحى إليه به. في الواقع أنا لا أكره فنون الخدع البصريّة. إلّا أنّ مجاملة موريس بخصوص هذه «السّاديّة البصريّة» أغضبتني: دون شكّ هي نُويلي من نصحه بحضور المعرض. أصرّيتُ على أنّها ليست من الرّسم في شيء، وحين ناقش الأمر معي هاجمتُه: هل يظنّ أنّه بمجاراة الموضة يكون قد عاد في سنّه إلى الوراء؟

- أنتِ مخطئة بغضبك.

- أغضبُ لأنّك تجاري كلّ ريح وتخسر حسَّ النّقد.

هزّ كتفيه دون إجابة. رأيتُ مرغريت. وأمضيتُ وقتاً مع كوليت. ولكنّي لا أجد ما أقول بشأنهما.

الأحد 21 نوفمبر.

في شأن علاقتها بموريس، نُويلي -على الأقلّ حسب رأي ديانا التي لا أثق فيها كثيراً- لم تقل سوى بلاهة. الظّرف قاسٍ على الجميع، لكنّنا سنصل حتماً إلى إيجاد التّوازن. أنا، دون شكّ، امرأة جيّدة، لكنّ التنوّع يروق للرّجال. كيف ترى المُستقبل؟ أجابت: «من يعش يرَ»، أو تقريباً. كانت محترسة.

روت لي ديانا حكاية، لكنّها غامضة حتّى أستخدمها. كادت نُويلي تُلاحَقُ من طرف مجلس التّأديب لأنّها حوّلت لصالحها ثقة أحد موكّلي زميلاتها. زبون كبير سحب قضيّته من الأخرى ليعهد بها إلى نُويلي. إنّها إجراءات غير مقبولة في القضاء، اعتادت نُويلي على

اللّجوء إليها. لكنّ موريس أجابني: «إشاعات!» قلتُ له إنّ ابنة نُويلي تشكو من إهمال أمّها لها.

- كلّ الفتيات يشكين من إهمال أمّهاتهنّ لهنّ، في مثل سنّها: ألا تذكرين متاعبك مع لوسيان. ثمّ إنّ نُويلي لم تهمل ابنتها أبداً. كانت تعلّمها الاعتماد على نفسها، والعيش بمفردها، وهي مُحقّة.

كانت تلك صخرة في حديقتي. كان دائماً يهزأ من كوني أمّاً دجاجة. حتّى إنّ خصومات نشبت بيننا في هذا الشّأن.

- ألا يزعج هذه الفتاة أن يقضي رجلٌ بعض اللّيالي في فراش أمّها؟

البيت فسيح ونُويلي تحتاط كثيراً. ثمّ إنّها لم تخفِ عنها وجود رجال في حياتها منذ طلاقها.

- ثقة غريبة من أمّ لابنتها. صدقاً، ألا ترى معي أنّ هذا صادم قليلاً؟

- لا.

- لم أتخيّل يوماً أن تجمعني بلوسيان أو كوليت علاقة مشابهة.

لم يُجب؛ كان صمتُه يعني أنّ طريقة نُويلي في تربية ابنتها أفضل من طريقتي. جرحني ذلك: كان واضحاً أنّ نُويلي كانت تتصرّف بالشّكل الذي يلائمها أكثر، دون اكتراث بفائدة الطّفل. فيما قمتُ أنا بالعكس دائماً.

- عموماً، ما تقوم به نُويلي مثاليّ، قلتُ.

قام بحركة نفاد صبر:

- آه! لا تُحدّثيني عن نُويلي طوال الوقت!

- كيف تمنعني؟ إنّها في حياتك وحياتُكَ تعنيني.

- أوه! تأخذين منها ما تأخذين وتتركين ما تتركين.

- كيف؟

- حياتي المهنيّة: لا يبدو أنّها تهمّكِ. أنتِ لا تسألينني عنها أبداً.

كان هجوماً مُضادّاً غير عادل. كان يعرف جيّداً، أنّه بتخصّصه صار يمشي في أرض حيث لم أعد قادرة على مجاراته فيها.

- ما الذي قد أقوله لك؟ أبحاثُك تتجاوزني تماماً.

- حتّى مقالاتي حول نشر الهمجيّة، أنتِ لا تقرئينها.

- لم يستهوِني الطبّ أبداً كواحد من العلوم. العلاقة مع المريض هي ما أحبّ بشغف.

- كان في الإمكان أن يبدر منك القليل من الفضول في شأن ما أفعله.

كان في صوته نوع من الغِلّ. ابتسمتُ له بحنان.

- يكفي أنّي أحبّك وأحترمك بعيداً عمّا أنت قادر على إنجازه. لو أنّك أصبحتَ عالماً كبيراً، ومشهوراً وما إلى ذلك، لما استغربتُ لأنّك قادر على ذلك. لكنّي أعترف أنّ ذلك لا يضيف إلى صورتك في عينَيَّ شيئاً. ألا تفهمني؟

ابتسم أيضاً:

- بلى، طبعاً.

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يشكو فيها عدم اكتراثي بمسيرته المهنيّة، وحتّى الآن لم أكن قد وعيتُ تماماً أنّ ذلك مصدر إزعاج بالنّسبة إليه. أقول أحياناً إنّها خرقاء، نُويلي تقرأ مقالاته، ثمّ تعلّق عليها، برأس مائل، وابتسامة إعجاب على شفتيها. لكن كيف أغيّر طباعي؟ سيكون ذلك نوعاً من الخياطة بخيط أبيض. أرهقني الحوار. أنا متأكّدة من أنّ نُويلي ليست أمّاً جيّدة. امرأة قاسية وجافّة، ولا يمكنها تقديم التّضحيات التي قدّمتُها لبناتي.

الاثنين 22 نوفمبر.

لا، لا ينبغي أن أقتفيَ أثر نُويلي في أرضها، بل أن أخوض معركتي على أرضي. كان موريس حسّاساً إزاء العناية التي أحفّه بها، أنا أتجاهله. أمضيتُ اليوم أرتّب دولاب الملابس. تقريباً، وضعتُ كلّ ملابس الصّيف جانباً، أخرجتُ النّفتالين وقمتُ بتهوية ملابس الشّتاء، وقمتُ

بجرد كامل. غداً أخرج لأشتري له الجوارب والكنزات والبيجامات التي سيحتاج إليها. يلزمه أيضاً زوج أحذية: سنختاره معاً حالما يجد الوقت لذلك. أمر مريح أن ترى دولاباً مليئاً بالملابس حيثُ كلّ شيء مُرتّب في مكانه. الوفرةُ والأمان... أعمدة المناديل الورقيّة والقطنيّة تعطيني انطباعاً بأنّ المستقبل لا يخذلني.

الثّلاثاء 23 نوفمبر.

أنا مريضة من شدّة الخجل. كان يجب التّفكير مُسبقاً. كان وجه موريس متعكّراً في الأيّام التي عاد فيها لتناول الغداء. قال لي:

- أخطأتِ عندما وضعتِ ثقتك في ديانا. نقلوا لنُويلي أنّها تجري تحقيقاً حولها، في وسط المُحامين وفي علاقاتهما الشّخصيّة المُشتركة. وقالت للجميع في كلّ مكان إنّكِ أنتِ من كلّفها بذلك.

احمرَّ وجهي وأحسستُ بالألم. لم يكن موريس يحاكمني أبداً، كان هو حمايتي: وهأنا ذا أمامه أعترف بأنّي مذنبة، يا للشّقاء!

- أردتُ فقط معرفة من هي نُويلي.

- كان عليك أن تطلبي منّي ذلك بدل القيل والقال. أتعتقدين أنّي لا أرى نُويلي كما هي عليه؟ أنتِ مُخطئة. أعرف عيوبها كما أعرف خصالها. لستُ مراهقاً عاشقاً.

- مع ذلك أعتقد أنّ رأيك فيها ليس موضوعيّاً.

- وتعتقدين أنّ ديانا ورفيقاتها موضوعيّات؟ هنّ الشرّ نفسه. يمكن التأكّد من أنّهن لا يستثنينكِ أنتِ أيضاً.

- حسناً، قلتُ، سأقول لديانا بأن تُمسك لسانها.

- أنصحكِ بذلك!

قام بجهد كي يغيّر موضوع النّقاش. تحدّثنا بأدب. لكنّ الخجل كان يحرقني. أنا من سقط في نظره.

الجمعة 26 نوفمبر.

أمام موريس لم أكن قادرة على منع نفسي من التّفكير بأنّي أمام قاضٍ. إنّه يتصوّر عنّي أشياء لا يقولها: يصيبني ذلك بالدّوار. كنتُ أرى نفسي مطمئنّة في عينيه. لم أكن أرى نفسي إلّا بعينيه: ربّما كانت صورة مُحسّنة جدّاً، حيثُ، إجمالاً، كنتُ أتعرّف إلى نفسي. الآن أتساءل: من يرى؟ هل يظنّ بأنّي تافهة، غيورة، لا سرّ لي وربّما وغير منصفة بما أنّي أتجسّس عليه؟ هذا ليس عادلاً. ألا يمكنه أن يتفهّم قلقي إزاء نُويلي هو الذي يتجاوز عن أشياء كثيرة في شأنها؟ أكره القيل والقال، أثرتُه، ليكن، لكنّ لي أعذاري. حتّى إنّه لم يلمّح إلى ذلك مُجدّداً؛ موريس لطيف جدّاً. لكنّي لاحظتُ أنّه لم يعد يفتح لي قلبه في الحديث. يتراءى لي أحياناً أنّي أقرأ في عينيْه... ليس الشّفقة بشكل خاصّ؛ أقول: سخرية خفيفة؟ (تلك النّظرة الغريبة التي رمقني بها لحظة لمّا أخبرته عن خروجي مع «كِيون».) نعم، كما لو أنّه اخترقني بنظرته فوجد بأنّي ساذجة ومثيرة للشّفقة. مثلاً، عندما باغتني بصدد سماع «ستوكهوسين» Stockhausen؛ بدرت عنه نبرة لا تُفسّر وهو يسألني:

- هكذا إذن! تسمعين الموسيقى العصريّة؟

- إيزابيل مرّرت لي بعض الأسطوانات التي تحبّها.

- أتُحبّ ستوكهوسين؟ هذا جديد.

- جديد، نعم. يحدث أن تتطوّر الأذواق أيضاً.

- وأنت، هل يعجبُك؟

- لا. لا أفهم منه شيئاً.

ضحك، قبّلني كما لو أنّ صراحتي طمأنته. في الواقع كانت محسوبة. فهمتُ أنّه فهم لماذا أسمع هذه الموسيقى ولم يكن ليُصدّقني لو أنّي قلتُ له بأنّي أتذوّقها.

النّتيجة: لم أجرؤ على إخباره بآخر ما قرأتُ، رغم أنّ عدداً من تلك

«الرّوايات الجديدة» أعجبني. سيفكّر في أنّي أحاول التفوّق على نُويلي. كم تتعقّد الأمور حالما تتشكّل لدينا خلفيّة!

تبرير ديانا كان غائماً. أقسمت أنّها لم تخبر أحداً بأنّها تجمع المعلومات لصالحي. هو استنتاج توصلّت إليه نُويلي. اعترفت أنّها أسرّت لصديقة: «نعم، في هذه الفترة، أنا مهتمّة بنُويلي غيرارد». لكن لم يكن بالأمر الذي يسعدني. كانت حركة خرقاءَ من جانبها. طلبتُ منها أن تنسى الأمر. اتّخذت سحنة امرأة مجروحة.

السّبت 27 نوفمبر.

يجب أن أتعلّم السّيطرة على نفسي، ومراقبة نفسي، لكن هذا بسيط في طبيعتي! كنتُ دائماً تلقائيّة، وشفّافة؛ وهادئة أيضاً، فيما يعجّ قلبي بالقلق والضّغينة الآن. عندما فتح مجلّة، فكّرتُ: «إنّه لا يفعل هذا في بيت نُويلي»، وكان ذلك أقوى منّي، إذ قلتُ بعنف:

- لا تفعلُ هذا عند نُويلي!

مرّ وميض في عينيه.

- أردتُ فقط إلقاء نظرة على مقال، قال لي برصانة. لا تثوري هكذا من أجل لاشيء.

- إنّه ليس ذنبي: كلّ شيء يثير الأعصاب.

ساد صمتٌ بيننا ثم رويتُ له يومي، ولم أجد ما أقوله له. قام بمجهود:

- أكملتِ رسائل أوسكار وايلد؟

- لا. لم أستمرّ.

- قلتِ إنّها مهمّة...

- لو تعرف كم أنا متقلّبة بشأن وايلد، وكم أنّ رغبتي فاترة في الخوض فيه معك!

تناولتُ أسطوانة من رفّ الأسطوانات:

- ألا ترغب في أن نسمع التّرانيم التي أحضرتَها؟

- حسناً.

لم أسمع طويلاً؛ أحسستُ بالبكاء في حنجرتي؛ لم تكن الموسيقى سوى ذريعة. لم يعد لنا ما نقوله، بِتنا فقط مسكونَيْن بالقصّة نفسها التي لا يريد التحدّث عنها. سألني بصوت صبور:

- لماذا تبكين؟

- لأنّك تسأم معي. لأنّنا لم نعد نتكلّم. لقد أقمتَ حواجز بيننا.

- أنتِ من أقام الحواجز: أنتِ لا تنفكّين تنبشين في الأقاويل.

كنتُ أزداد نقمة عليه كلّما مرّ الوقت. لم أعد أرغب فيه. لكنّ جزءاً منّي ما زال متعلّقاً به. عندما يكون مرحاً وغير آبه، كنتُ أقول: «سهل للغاية» وكلّ ذريعة كانت جيّدة لأفسد راحته.

الاثنين 30 نوفمبر.

يدهشني أنّ موريس لم يتحدّث بعدُ عن رياضات الشّتاء. ونحنُ عائدان من السّينما، أمسِ مساءً، سألتُه أين يريد السّفر في هذا العالم. أجابني بشكل مُشوّش بأنّه لم يفكّر في الأمر بعدُ. أصبح حدسي قويّاً. بدأتُ أشتمّ رائحة ما، ثمّ إنّ المسألة لم تكن صعبة: هناك دائماً روائح تفوح. ألححتُ. قال بسرعة دون أن ينظر إليّ:

- نذهب حيثُ تشائين؛ لكن يجب إخبارك أنّي سأقضي أيّاماً في «كورشوفيل» مع نُويلي.

توقّعتُ الأسوأ دائماً؛ وكانت الأمور أكثر سوءاً ممّا أتوقّع:

- كم من يوماً؟

- عشرة.

- وكم ستبقى معي؟

- عشرة أيّام.

- هذا كثير! تأخذ منّي نصف عطلتنا لتقدمّها لنُويلي!

قطع الغضبُ صوتي. نجحتُ في أن أقول:

- قرّرتُما ذلك دون أخذ رأيي؟

- لا، لم أحدّثها في الأمر بعد، قال لي.

قلتُ:

- هكذا! تابع! لا تحدّثها في شيء.

قال لي بصوت هادئ: «أرغب في قضاء عشرة أيّام معها». كان في صوته تهديد خفيّ: إذا حرمتني منها، فإنّ إقامتنا في الجبل ستكون جحيماً. أحسستُ بالاشمئزاز من فكرة أنّي سأرضخ إلى هذه المساومة. كفى تنازلاً! أنا لا أتقدّم وهذا يقرفني. يجب أن أواجه الأشياء. هذه ليست مجرّد مغامرة. يعيش جانبين في حياته وأنا لا أعيش أفضلهما. كفى. سأقول له بعد قليل: «إمّا هي أو أنا».

الثّلاثاء 1 ديسمبر.

لم أغالط نفسي: لقد راوغني كثيراً. قبل البلوغ بي إلى اعتراف كامل، «أنهكني» أوّلاً كما ينهكون ثور مصارعة. هل يجب أن أصدّقه؟ لم أشعر بالعمى ثمانية أعوام كاملة. قال لي بعد ذلك إنّ كلّ شيء خطأ. أو إنّه كان يكذب حينها؟ أين الحقيقة؟ هل توجد بعدُ؟

في أيّ سخط خبّأتُ الحقيقة؟ هل حقّاً كنتُ شرّيرة؟ لا أحد يذكر الأشياء التي يقولها بالضّبط، خصوصاً في وضع مثل وضعي. أردتُ أن أجرحه، هذا أكيد؛ لعلّي نجحتُ نجاحاً باهراً.

لماذا بدأتُ بتعقّل كبير: «لا أريد اقتسام رجل مع امرأة، يجب أن تختار».

بدا مرتبكاً مثل من يقول: «ها قد وصلنا إلى هذه النّقطة! ما العمل الآن؟» اتّخذ صوته الأكثر بهجة:

- أرجوكِ. لا تطلبي منّي القطع مع نُويلي. ليس الآن.

- بلى، الآن. دامت هذه القصّة كثيراً؛ لقد سمحتُ بها طويلاً.

رمقتُه بتحدٍّ:

- أخيراً، بمن أنتَ متعلّق أكثر؟ بي أم بها؟

- بك طبعاً، قال بصوت محايد. وأردف: ـــــ لكنّي متعلّق بنُويلي أيضاً.

لاحت الدّنيا حمراء في عَيْنَيَّ:

- اعترف بالحقيقة. أنت متعلّق بها أكثر! إذن! الحق بها. اخرج من هنا. اخرج حالاً. خذ أغراضك، وغادر الآن.

أخرجتُ حقيبته من الدّولاب، رميتُ بملابسه كما اتّفق، انتزعتُ المشاجب. أخذني من ذراعي: «توقّفي!» تابعتُ. أردتُه أن يرحل؛ أردتُ ذلك حقّاً، كنتُ نزيهة مع نفسي. نزيهة لأنّي لم أصدّق ما أفعله. كان ذلك كنوبة نفسيّة دراميّة حيثُ يتظاهر المرء بالحقيقة. كانت الحقيقة لكنّنا مثّلناها. صرختُ:

- اذهب والتحق بتلك العاهرة، تلك المثيرة للاهتمام، تلك المحامية الصّغيرة المتعفّنة.

أمسكني من معصمي:

- اسحبي ما قلتِه الآن.

- لا. امرأة قذرة. أوقعتك في شباكها بمدح نفسها. أنتَ تفضّلها بدافع غرور. ضحيّتَ بحبّنا لأجل الغرور.

كرّر: «اصمُتي». لكنّي واصلتُ. قلتُ كما اتّفق ما أفكّر في نُويلي وفيه أيضاً. نعم، أذكُر بشكل مُشوّش. قلتُ إنّه يسمح بأن يُكذب عليه كحقير، بأنّه تحوّل إلى انتهازيّ متكبّر، بأنّه لم يعد الرّجل الذي أحببتُه، بأنّه كان يملك قلباً فيما مضى، وها هو الآن يبيع نفسه للآخر؛ صار الآن خاوياً، أنانيّاً، ولا شيء يهمّه سوى مسيرته المهنيّة.

- من الأنانيّ؟ صرخ.

وانتزع منّي الكلمة. كنتُ أنا الأنانيّة التي لم أتأخّر في أن أجعله يخرج من القسم الدّاخلي، والتي أرادت دائماً أن تبقيَه كامل حياته في الرّداءة كي تحافظ عليه في البيت، لكن هل كنتُ غيورة من عمله: أنا خصيتُه...

صرختُ. ترك القسم الدّاخلي عن طواعية. كان يحبّني. نعم، لكنّه لم يرغب في الزّواج فوراً، أعرف ذلك، وكنّا سنتصرّف بشأن الطّفل.

- اخرس! كنّا سعداء، شغوفين ببعضنا، كنّا سعداء للغاية: كنتَ تقول إنّك لا تعيش إلّا لحبّنا.

- كان ذلك صحيحاً: لم تتركي غير ذلك. كان عليك أن تفكّري بأنّي سأتألّم يوماً. وحين أردتُ الهرب، فعلتِ كلّ شيء كي تمنعيني من ذلك.

لم أعد أذكر الجمل تحديداً، لكن كان المعنى يصبّ في هذا في تلك الواقعة الوضيعة. كنتُ متملّكة، إمبرياليّة، غازية، مع بناتي مثلما كنتُ معه.

- دفعتِ كوليت للارتباط بزواج غبيّ؛ ولوسيان رحلت هرباً منك.

أفقدني كلامُه صوابي؛ صرختُ وبكيتُ. في لحظة قلتُ:

- إن كنتَ تظنّ بي ذلك، كيف تستمرّ في حبّي؟

وصرخ في وجهي:

- لكنّي لم أعد أحبّكِ. منذ حوادث العشر سنين التي مضت، انقطعتُ عن حبّك!

- أنتَ كاذب! أنتَ تكذب كي تعذّبني!

- أنتِ من يكذب على نفسك. تزعمين أنّك تحبّين الحقيقة: اسمعيها منّي. وبعد ذلك سنتّخذ ما شئنا من القرارات.

هذا يعني أنّه توقّف عن حبّي منذ ثمانية أعوام ونام مع نساء أخريات؛ مع الصّغيرة «بيلران»، منذ سنتين؛ مع زبونة أمريكيّة لاتينيّة لا أعرفها، مع ممرّضة في المصحّة، أخيراً منذ عشرة أشهر مع نُويلي. صرختُ، كنتُ على وشك الانهيار. عندها قدّم لي مهدّئاً، تغيّر صوتُه:

- اسمعي، أنا لا أفكّر في كلّ ما قلتُه. لكنّك مخطئة إلى درجة أنّك دفعتِني إلى الغلط!

خانني، نعم، هذا صحيح. لكنّه أبداً لم يقطع معي. طلبتُ منه الذّهاب. لبثتُ محدّقة في الفراغ، محاولة فهم ما جرى، فرز الصّواب من الخطأ.

عادت إليَّ ذكرى. عدتُ دون أن يسمعني، منذ ثلاث سنوات. كان يضحك في الهاتف: تلك الضّحكة العذبة والمتواطئة التي أعرفها جيّداً. لم أسمع الكلمات: ما عدا تلك النّغمة المتواطئة في صوته. انسلّت الأرض من تحتِ قدَمَيَّ: كنتُ في حياة أخرى، حيث موريس يخونني ووجدتُ مشقّة في الصّراخ. اقتربتُ محدثة ضجّة:

- من يكلّمك؟

- ممرّضتي.

- أنتَ تحدّثها بحميميّة كبيرة.

- آه! إنّها فتاة في منتهى الحيويّة، أحبّها، قال لي بصورة طبيعيّة.

وجدتُ نفسي في حياتي، بجوار الرّجل الذي يحبّني. حتّى إنّي لو رأيتُه في فراش مع امرأة أخرى، لم أكن لأصدّق عينَيَّ. (مع ذلك الذّكرى تعود، كما هي، مؤلمة.)

نام مع هؤلاء النّساء؛ لكن هل توقّف عن حبّي؟ وفيمَ كان صائباً في عتابه؟ يعرف جيّداً أنّه بشأن الإقامة في المستشفى وزواجنا، كنّا قد قرّرنا كلّ شيء معاً: قبل هذا الصّباح، لم يدّع عكس ذلك. اخترع تلك الأقاويل كي يدفع عن نفسه تهمة الخيانة: هو أقلّ تعمّداً حسب ما فهمتُ. لكن لِمَ اختار هذه الأقاويل بالذّات؟ لِمَ تلك الجملة القاتلة بشأن البنات؟ أنا فخورة جدّاً لأنّي تمكّنتُ من إنجاح حياتيهما، كلّ منهما، حسب طبيعتها. كوليت كانت مثلي ذات توجّه منزليّ: باسم ماذا كنتُ سأعارضها؟ لوسيان أرادت الطّيران بأجنحتي: لم أمنعها. لِمَ كلّ هذه الضّغينة الظّالمة لدى موريس؟ اشتدّت آلام رأسي، ولم أعد أرى بوضوح.

هاتفتُ كوليت. غادرتني للتوّ: منتصف اللّيل. نفعتني وآذتني، لم أعد أميّز بين الجيّد والسيّئ. لا، لم أكن متسلّطة، ومتملّكة، ومُستبدّة؛ أكّدت لي بإسهاب بأنّي كنتُ دائماً أمّاً مثاليّة وأنّي ووالدها نعيش التّفاهم في أرقى صورة له. كانت الحياة ثقيلة في نظر لوسيان مثل كثير من الشّباب، لم يكن ذلك ذنبي. (علاقة لوسيان بي كانت معقّدة لأنّها كانت تحبّ والدها جدّاً، عقدة أوديب كلاسيكيّة: هذا لا يثبت شيئاً ضدّي). ثارت:

- أرى بأنّه مقرف ما قاله لك أبي.

لكنّها كانت غيورة من موريس، بسبب لوسيان؛ هي عنيفة إزاءه، متعجّلة دائماً لإيجاد خطأ له. مُتعجّلة جدّاً لتقدّم ما يسعدني. لوسيان كانت ستخبرني بالحقيقة أفضل من كوليت رغم قسوتها الحادّة. تحدّثتُ ساعات مع كوليت ولم أتقدّم.

وجدتُ نفسي في طريق مسدود. إن كان موريس وغداً، فقد أهدرتُ حياتي في حبّه. لكن ربّما لديه أسباب جعلته لم يعد قادراً على تحمّلي. هذا يعني أنّه يجب التّفكير في احتمال أن أكون مقيتة، وسيّئة، دون معرفة لماذا. الاحتمالان فظيعان.

الأربعاء 2 ديسمبر.

إيزابيل تفكّر ـــ على أيّ حال قالت ـــ إنّ موريس لم يكن يقصد سوى ربع ما قاله. كان لديه مغامرات لم يبح بها: هذا بدهيّ. كرّرت على مسامعي دائماً أنّ وفاء رجل مدّة عشرين سنة، هو أمر مستحيل. كان من الأفضل لموريس أن يحدّثني لكنّه أحسّ بأنّه مُكبّل بعهوده. هل اخترع أقاويله ضدّي: إن كان قد تزوّجني من خارج قلبه، لكنتُ تفطّنتُ، ولما كنّا سعداء فترة طويلة. نصحتني بابتلاع الإسفنجة. أصرّت على أنّي أنا من يمسك بالطّرف الأهمّ. الرّجالُ يختارون الأسهل دائماً: البقاء مع الزّوجة أسهل من المجازفة بمغامرة مجهولة العواقب. أخذت لي موعداً مع صديقة قديمة من صديقاتها، طبيبة نساء، تعرف مشاكل

الأزواج عن ظهر قلب ويمكنها مساعدتي، وجعلي أرى قصّتي بشكل أوضح، حسب رأيِها.

كان موريس مؤدّباً كثيراً منذ الاثنين، كعادته عندما كان يبتعد كثيراً. ليكن.

- لمَ جعلتني أعيش في دائرة من الكذب ثماني سنوات بأسرها؟

- لم أحتمل إيذاءكِ.

- كان في وسعك أن تصارحني بأنّك لم تعد تحبّني.

- لكن، هذا غير صحيح: قلتُ ذلك مدفوعاً بالغضب؛ تعلّقتُ بكِ دائماً. ولا أزال.

- لا يجدر أن تكون متعلّقاً بي طالما أنتَ تظنّ بي نصف ما قلتَه لي. أتعتقد حقّاً أنّي امرأة تعسّفيّة؟

بالتّأكيد، كانت تلك هي الكلمة الأقسى والتي جعلتني أثور.

- متعسّفة، هذا مبالغ فيه.

- لكن؟

- قلتُ لكِ إنّك تحضنين البنتَيْن كثيراً. كانت ردّة فعل كوليت هي أن تتطابق معكِ بسهولة ولوسيان بمعارضتها لك، والتي كانت شاقّة عليكِ.

- لكن، أخيراً، من ساعدها على أن تحقّق ذاتها؟ هي سعيدة بمصيرها وكوليت أيضاً: ماذا تريد أكثر؟

- إن كانتا حقّاً سعيدتين...

لم أصرّ. كان رأسُه مليئاً بالأفكار المُسبقة. لكن هناك أجوبة لا أقوى على سماعها: لا أطرحُ الأسئلة.

الجمعة 4 ديسمبر.

ذكريات صارمة. كيف نجحتُ في طردها، وفي إلغائها؟ بنظرة معيّنة، منذ سنتين، في «ميكونوس» Mykonos، حين قال لي: «اشتري لنفسِك بدلة سباحة ذات قطعة واحدة». أعرف، كنتُ أعرف: القليل من الشّحوم

في الفخذين، أمّا البطن فكان مُسطّحاً. لكنّي أظنّ أنّه لا يهتمّ. عندما كانت لوسيان تسخر من الجدّات البدينات في بيكيني، كان موريس يحتجّ: «ماذا في ذلك؟ لم قد ننزعج نحن؟ ليس لأنّهن عجائز فإنّ عليهنّ حرمان أجسادهنّ من الهواء والشّمس». وكنتُ في حاجة إلى الشّمس والهواء، أنا لا أزعج أحداً. مع ذلك ربّما بسبب الفتيات الجميلات على الشّاطئ ـــ قال لي هذا: «اشتري لنفسِك بدلة سباحة ذات قطعة واحدة». لم أفعل.

ثمّ جاءت تلك المُشاجرة، خلال السّنة الأخيرة، في ذلك المساء الذي تناولت فيه عائلة تالبو العشاء مع عائلة كوتوريي. كالرّئيس الكبير، هنّأ تالبو موريس على البحث الذي أجراه حول بعض الفيروسات، وأحسّ موريس بالإطراء مثل تلميذ يُسندون له جائزة التميّز. ضايقني ذلك لأنّي لم أكن أحبّ تالبو؛ عندما كان يقول لأحدهم: «هذه قيمة!»، سأصفعُه. بعد رحيلهم قلتُ لموريس ضاحكة:

- قريباً سيقول عنك تالبو: هذه قيمة! أنتَ محظوظ!

غضِب. عاتبني أكثر من المعتاد على أنّي لا أهتمّ أبداً بما ينجزه واتّهمني بأنّي أبغض نجاحاته. قال لي إنّه لا يهتمّ بكونه مُحترَماً في المُجمَل إن كنتُ غير معنيّة بواحدة على الأقلّ من تفاصيل عمله. كان في صوته نوع من المرارة التي جمّدتني:

- كم أنتِ عدائيّة!

قلت بحدّة:

- لا تقل حماقات!

ثمّ أقنعني بأنّها خصومة عاديّة شأن خصومات كثيرة. لكنّي شعرتُ بالبرودة القاتلة.

غيورة من عمله: يجب أن أعترف بأنّ هذا صحيح. منذ عشر سنوات قمتُ من خلال موريس بتجربة ساحرة: علاقة الطّبيب بالمريض؛ كنتُ

أشاركه، وأنصحه. أراد أن يُدمّر تلك الرّابطة بيننا، والمهمّة جدّاً في نظري. هذا يعني أن أتفرّج من بعيد، وبسلبيّة، على تطوّره، أعترف أنّي لم أُبدِ حماساً كبيراً للقيام بذلك! يجعلني محايدة، نعم: أنا أحترم الإنسان الذي في داخله، لا الباحث. لكن أن أكون قد بترتُه، فاللّفظ غير صحيح. أنا فقط رفضتُ تصنّع حماسٍ لم يبدر منّي حقيقة: كان يحبّ نزاهتي. لا أصدّق أنّها جرحت غروره. لم يكن موريس صبيانيّاً. أو أنّه كذلك وعرفت نُويلي كيف تستغلّها؟ فكرة مُريعة. تشوّش كلّ شيء في رأسي. اعتقدتُ أنّي أعرف من أكون، من يكون: فجأة، اكتشفتُ أنّي لا أتعرّف على كلينا أبداً.

الأحد 6 ديسمبر.

حين تحدث الأشياء للآخرين فإنّها تبدو سهلة التّطويق والتّجاوز. ونجد أنفسنا وحيدين أمام تجربة مُذهلة لم يتصوّرها الخيال.

كنتُ خائفة من النّوم ومن قلّته خلال اللّيالي التي كان فيها موريس ينام في فراش نُويلي. هذا السّرير الفارغ بجواري، هذ الغطاء البارد المُسطّح... تناولتُ أدوية مُنوّمة، وحلمتُ. أحياناً كان يُغمى عليَّ في الحُلم من شدّة الأسى. كنتُ أظلُّ هناك تحت عينَيْ موريس، مشلولة، وعلى وجهي حزن العالم. أنتظر أن يهرَع إليَّ. يُلقي نظرة غير مبالية ويبتعد. استيقظت، كان اللّيل لا يزال جاثماً؛ أحسستُ بوزن الظّلام؛ كنتُ محشورة في ممرّ، يزداد ضيقاً شيئاً فشيئاً، كنتُ بالكاد قادرة على التنفّس؛ سيتحتّم عليّ الزّحف بعد قليل ثمّ بقيتُ محصورة إلى أن اختنقت. صرختُ. ورحتُ أناديه بصوت خافت وأنا أبكي. كنتُ أناديه كلّ ليلة؛ ليس هو: الآخر، الذي يُحبّني. وتساءلتُ إن كنتُ أفضّل موتَه. قلتُ لنفسي: الموتُ هو الفاجعة الوحيدة التي لا يمكن تدارُكُها؛ لو غادرني فسأشفى. كانت فاجعة الموتُ رهيبة لأنّها مُحتَمَلة، كانت القطيعة في نظري أمراً يمكنني تحمّله لأنّي لا أتخيّلها. لكن، في الواقع، قلتُ، لو أنّه مات، فعلى الأقلّ سأعرف من فقدتُ ومن أنا. لم أعرف

شيئاً. تهاوت حياتي التي خلّفتُها ورائي، كما في تلك الهزّات الأرضيّة حيثُ يلتهم التّراب بعضاً؛ يزدرد بعضه بعضاً كلّما هربتَ. لا مجال هناك للعودة. اختفى المنزل، والقرية والضّيعة برمّتها. حتّى لو أنّكَ نجوتَ فإنّ شيئاً لم يبقَ، ولا حتّى المكان الذي شغلتَه على الأرض.

كنتُ مُحطّمة في الصّباح، حتّى إنّي كنتُ سألبث في الفراش لو لم تأتِ المُعينة عند العاشرة ـــ كما أفعل يوم الأحد ـــ إلى غاية ما بعد الظّهيرة، أو ربّما، إن لم يعد موريس للغداء، اليوم بأسره. حدست السيّدة «دورموي» أنّ هناك خطباً. وهي تحمل طبق الفطور، قالت معاتبة:

- لم تأكُلي شيئاً!

أصرّت، وكنتُ أحياناً أبتلع رشفة، كي أنعم بالسّلام. لكنّ اللّقمة لم تكن تمرّ.

لماذا لم يعد يحبُّني. يجب أوّلاً أن أعرف لماذا أحبّني. نحنُ لا نتساءل عادة في هذا الشّأن. حتّى لو لم نكن متفاخرين أو نرجسيّين، فهو رائع دائماً أن نكون أنفسَنا، أنفسنا فحسب، إنّك تشعر بنفسك منفرداً أمام نفسك بشكل طبيعيّ يوحي أيضاً بأنّك منفرد في عيون الآخرين. كان يحبّني وكفى. وإلى الأبد، ما دمتُ سأظلّ نفسي إلى الأبد. (وتعجّبتُ لدى النّساء الأخريات من هذا العمى. غريب ألّا تفهم إحداهنّ حكايتها الخاصّة إلّا بمساعدة تجارب الآخرين ـــ والتي هي ليست تجربتها ولا يمكن أن تصلح لها في شيء).

أوهامٌ غبيّة. كان في فيلم شاهدتُه عندما كنتُ صغيرة. حيثُ ذهبت زوجة للقاء عشيقة زوجها: «بالنسبة إليكِ هذه مجرّد نزوة. أمّا أنا فأحبّه!» العشيقة متأثّرة، دعت الزّوجة لحضور الموعد بدلاً عنها في اللّيل. أخذها الزّوج بين ذراعيه ظنّاً منه أنّها الأخرى وفي الصّباح عاد إليها في منتهى الخجل. كان شريطاً قديماً وصامتاً، أبداه الاستوديو من زاوية هزليّة لكنّه أثار عاطفتي كثيراً. كنتُ أستعيد مشهد الفستان الطّويل للمرأة، دون مشابك شعر.

هل أتحدّث مع نُويلي؟ لكن بالنّسبة إليها المسألة ليست مجرّد نزوة: إنّها مؤسّسة. ستقول لي إنّها تُحبّه؛ وطبعاً ستتمسّك بكلّ ما يمنحه لامرأة هذه الأيّام. أنا أحببتُه حين كان يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة، ومستقبل مجهول، ومصاعب. أحببتُه دون ضمانات؛ بل لقد قطعتُ على نفسي الطّريق لأكوّن مسيرة مهنيّة. ولستُ نادمة على شيء.

الاثنين 7 ديسمبر.

كوليت، ديانا، إيزابيل: أنا التي لا تحبّ الاستماع إلى قصص الآخرين! وهذه الظّهيرة، السيّدة «لومبير». كانت لها تجربة كبيرة. أردتُ أن تنير لي الطّريق.

ما خرجتُ به من جلستنا الطّويلة، هو مدى عدم فهمي الشّخصيّ لقصّتي. أعرف ماضِيَّ جيّداً، ثمّ في لحظة لم أعد أفهم شيئاً. طلبت منّي مُلخّصاً مكتوباً. لنحاول.

الطبّ، كما مارسه والدي في عيادة «بانيولي»: لم أتخيّل أنّ هناك مهنة أجمل. لكن خلال سنتي الأولى كنتُ منزعجة، متقزّزة طافحة بهلع يوميّ. ضعفتُ مرّات عدة. كان موريس غير مُقيم، ومنذ النّظرة الأولى رأيتُ في وجهه شيئاً مؤثّراً. لم يكن لكلينا سوى مغامرات قصيرة. أحبّ أحدنا الآخر. كان حبّاً مجنوناً، حبّاً متعقّلاً: الحبّ. كان غير عادل قولُه إنّي منعتُه من دخول نظام الطّلبة المُقيمين: حتّى ذلك الحين كان قد تحمّل مسؤوليّة قراراته بالكامل. لقد ضاق ذرعاً من كونه طالباً. رغب في حياة الكبار، في بيت. كان متمسّكاً أكثر منّي بعهدنا الذي قطعناه على أنفسنا لأنّ زواج أمّه خلّف له عقدة فراق مرضيّة، عقدة قطيعة. تزوّجنا صيف سنة 44، وصادفت بداية سعادتنا أفراح التحرّر. كان موريس منجذباً للطبّ الاجتماعيّ. وجد مكانته لدى «سيمكا». كان أقلّ التزاماً ممّا لو كان طبيباً في حيّ شعبيّ وكان يحبّ زبائنه العُمّال.

خيّبه واقع ما بعد الحرب. بدأ عمله مع «سيمكا» يسبّب له الضّيق. كوتوريي ـــ الذي نجح في سنوات الإقامة ـــ أقنعه بدخول پلويتكنيك

عائلة تالبو، أن يعمل ضمن فريقه، أن يختصّ. دون شكّ ـــــ ماري لومبير جعلتني أحسّ بذلك ـــــ أأكون قد عارضتُ مشيئته بعنف، ها قد مرّت عشرُ سنوات؛ لعلّي أظهرتُ له بأنّي لم أذعن من أعماق قلبي. لكنّه ليس سبباً كافياً كي يتوقّف عن حُبّي. أيّ علاقة بين التغيّر الذي طرأ على حياته وبين تبدّل مشاعره؟

سألتني إن كان يلومني أحياناً، إن كان ينتقدني. أوه! كنّا نتخاصم، كلانا كان دمُه حامياً. لكن لا شيء خطير، على العموم. على الأقلّ بالنّسبة إليَّ.

حياتنا الجنسيّة؟ لا أدري منذ متى فقدت حرارتها؟ من منّا انسحب أوّلاً؟ حدث أن وخزتني لامبالاته: وهذا ما يفسّر مغازلتي لـ ـــــ «كيون». لكن ألا تكون برودتي هي التي خيّبته؟ يبدو لي ذلك ثانويّاً. هذا يفسّر علاقاته بنساء أخريات، لا أن يكون قد تملّص منّي. ولا أن يكون قد لجأ إلى نُويلي.

لماذا هي؟ لو أنّها كانت حقّاً جميلة، وشابّة، أو ذكيّة بشكل لافت، كنتُ سأفهم. سأعاني، لكنّي كنتُ على الأقلّ سأفهم. لديها ثمانٍ وثلاثون سنة، لا بدّ أنّها مقبولة فقط، وسطحيّة فوق ذلك. إذن لماذا؟ قلتُ لماري لومبير:

- أنا متأكّدة من أنّي أساوي أكثر منها.

ابتسمت:

- المسألة ليست هنا.

ما القضيّة إذن؟ ما عدا الجِدَّة والجسم الجميل، ما الذي قد تقدّمه نُويلي لموريس لم أقدر أنا على توفيره له؟ قالت:

- لا يمكننا أبداً أن نفهم حبّ الآخرين.

لكن لديّ قناعة لم أعبّر عنها جيّداً. معي، كانت لموريس علاقة عميقة، تفجّر ما هو روحيّ وغير قابل للكسر فيه. لم يكن مرتبطاً بنُويلي سوى من الخارج: كلاهما كان في إمكانه أن يحبّ شخصاً آخر. أنا

وموريس ملتحمان. الشّرخ، هو أنّ علاقتنا ليست غير قابلة للكسر ما دام قد حطّمها. هل كانت كذلك منذ البداية؟ ألا يكون مجرّد افتتان بنُويلي يتراءى حبّاً ثمّ ما يفتأ يتلاشى رويداً؟ آه! جذوة أمل تعبر قلبي من وقت إلى آخر، أكثر وجعاً من اليأس نفسه.

هناك سؤال آخر يدور في رأسي، لم يُجب عنه: لماذا حدّثني الآن؟ وليس قبل الآن؟ كان يجب أن يخبرني. لكنتُ خضتُ قصصاً أنا أيضاً. ولكنتُ اشتغلت؛ منذ ثماني سنوات، مؤكّد أنّي كنتُ سأجد الشّجاعة الكافية للقيام بشيء ما؛ لن يكون هناك هذا الخواء من حولي. هذا ما صدم ماري لومبير أكثر: أن يكون موريس قد منعني من مواجهة القطيعة وأنا مُسلّحة. كان يجب أن يحثّني على أن أعيش حياة مُستقلّة عنه، ما إن شكّ في مشاعره. افترضت، وأنا أيضاً، أنّ موريس صمت كي يضمن بيتاً سعيداً لابنتيه. عندما هنّأتُ نفسي بغياب لوسيان، بعد أوّل اعترافاتها، كنتُ مُخطئة: لم تكن صدفة. لكن، إذن، الأمر فظيع: اختار الفترة التي أكون فيها وحدي دون أحد من بناتي بجواري ليتركني.

لن أصدّق أبداً أنّي قضيتُ حياتي في حبّ رجل أنانيّ. لا يمكن أن أكون صائبة! قالت لي ماري لومبير: «يجب أن يعرف المرء وجهة نظره. الحكايات التي ترويها النّساء، لا أحد يفهم منها شيئاً. إنّه «اللّغز الذّكوريّ»، الذي يمكن اختراقه أفضل من «اللّغز الأنثويّ»». اقترحت عليها التحدّث إلى موريس؛ رفضت؛ ما كنتُ لأضع فيها ثقتي لو كانت تعرفه. كانت ودودة جدّاً: لكن مع القليل من التحفّظ والتردّد.

طبعاً، الشّخصُ الذي قد ينفعني أكثر من غيره هي لوسيان، بحسّها النّقديّ الحادّ؛ عاشت حياتها في نصف عدائيّة إزائي، قد تتيح لها إضاءة الطّريق أمامي. لكن في الرّسائل لم تكن لتقول لي سوى أشياء سخيفة.

الخميس 10 ديسمبر.

في الطّريق إلى كوتوريي الذي يسكن غير بعيد عن نُويلي، ظننتُ أنّي تعرّفتُ على السيّارة. لا. لكن في كلّ مرّة أصادف فيها «دي. أس.» DS

خضراء داكنة، بسقف رماديّ وفي الدّاخل كسوة خضراء وحمراء، يُخيّلُ إليَّ أنّ ما كنتُ أسمّيها سيّارتنا والتي هي سيّارته خانتني بما أنّ حياتنا لم تعد واحدة. أبديتُ قلقاً. قديماً، كنتُ أعرف مكانه تحديداً، وماذا كان يفعل. الآن يمكن أن يكون في أيّ مكان: هناك مثلاً حيثُ لمحتُ السيّارة.

ليس مناسباً أن أزور كوتوريي الذي بدا منزعجاً في مكالمته معي عندما أنبأتُه بمجيئي. لم آتِ لأجمع الأخبار: لكن فقط، ليشرح لي الأوضاع من وجهة نظر رجاليّة.

بدا مرتاحاً. لكنّه لم يطلعني على شيء أبداً. الرّجال كالنّساء تماماً في حاجة إلى التّغيير. وفاء دام أربع عشرة سنة، هذا في حدّ ذاته نادر. من الطّبيعيّ أن يكذب: لم يكن ليسبّب لي الألم. وعندما نكون في حالة احتقان فإنّنا نقول ما لا نفكّر فيه. موريس ما زال يحبّني دون شكّ: يمكن أن يحبّ المرء شخصين بطريقتين مختلفتين...

سيفسّر لك الجميع ما هو عاديّ، أي ما يحدث للآخرين. وأنا أحاول استعمال هذا المفتاح الكونيّ! كما لو كان موريس ليس محور الحكاية، أنا، وما هو استثنائيّ في علاقة الحبّ التي جمعت بيننا.

أمن الضّروريّ أن أسقط إلى الأسفل! أختذني رعشة أمل وأنا أقرأ جريدة أسبوعيّة بأنّ مواليد برج القوس ينتظرهم انتصار مهمّ. لكنّي حزنتُ عندما وجدتُ لدى ديانا كتاب أبراج فلكيّة: يبدو أنّ القوس والحمل غيرُ متّفقين. سألتُ ديانا إن كانت تعرف برج نُويلي. لا. ظلّت تؤاخذني منذ نقاشنا السيّئ ولذّ لها أن تخبرني بأنّ نُويلي حدّثتها عن موريس مُطوّلاً. لن تتخلّى عنه أبداً. ولا هو عنها. أنا، امرأة جيّدة جدّاً (يبدو أنّها متمسّكة بهذه القاعدة) لكنّي لا أرى في موريس قيمته الحقيقيّة. ضبطتُ نفسي بمشقّة وأنا أسمع هذه الجملة. أيعني هذا أنّ موريس قد اشتكاني إلى نُويلي؟ «أنتِ على الأقلّ تهتمّين بمسيرتي». لا، لا يمكنه أن يقول ذلك، لا أصدّق. قيمته الحقيقيّة... قيمة موريس لا تُختَزَلُ في نجاحه الاجتماعيّ، هو يعرف ذلك، ما يصله بالنّاس أمر

آخر تماماً. هل أخطأتُ التّقدير؟ هل فيه جانب طائش، ومُرفّه، ولا يتفتّح سوى مع نُويلي؟ اجتهدتُ كي أضحك. ثمّ قلتُ إنّي أريد معرفة ما الذي يجده الرّجالُ في نُويلي. أوحت لي ديانا بفكرة: أن أحلّل كتاباتنا؛ أشارت إليَّ بعنوان، وأعطتني رسالة ـــ بلا قيمة ـــ من نُويلي. رحتُ أبحث عن آخر رسائل موريس، وكتبتُ لخبير الخطوط فقرة أطلب فيها إجابة وسلّمتُها لحاجبته.

السّبت 12.

اندهشتُ من نتائج الخبير. الخطّ الأهمّ حسب رأيه هو خطّ موريس: ذكاء خارق، وثقافة واسعة، وقدرة فائقة على تحمّل العمل، وإصرار، وحساسيّة مفرطة، ومزيج من الكبرياء واهتزاز الثّقة في النّفس، ومنفتح بشكل سطحيّ، ولكنّه كاتم أسرار في أعماقه(ألخّص). وجد فيَّ الكثير من الخصال: الاتّزان، والمرح، والصّراحة، واهتماماً بالآخرين؛ ولاحظ حرصاً مبالغاً من شأنه أن يجعل منّي ثقيلة على المحيطين بي. هذا يتّفق مع ما يؤاخذني من أجله موريس: مُستبدّة، ومتملّكة. أعرف أنّي أملك هذه النّزعة: لكنّي حاربتها بكلّ قوّتي! قمتُ بجهد كبير كي أمنح كوليت ولوسيان حرّيتهما، ألّا أحاصرهما بالأسئلة، أن أحترم أسرارهما. وموريس: طالما قمعتُ قلقي، وسيطرتُ على اندفاعي، كثيراً ما امتنعتُ عن دخول مكتبه رغم رغبتي الشّديدة في أن أحضنه بعَيْنَيَّ وهو يقرأ بجانبي! أردتُ أن أكون بالنّسبة إليهم حاضرة وخفيفة: هل فشلتُ؟ يكشف الخطّ عن النّزعة أكثر من كونه يكشف السّلوك. وموريس هاجمني في نوبة غضب. ظلّ حكمُه يتراءى لي مشكوكاً في أمره. على أيّ حال، حتّى لو كنتُ مبالِغة نوعاً ما، وكثيرة الشّرح والانتباه، وباختصار، صاخبة قليلاً، لكنّها ليست أسباباً كافية تجعل موريس يفضّل عليَّ نُويلي.

أمّا هي، فلو كانت شخصيّتها أدنى منّي ولديها العديد من العيوب، فإنّ هذا مصدر إطراء بالنّسبة إليَّ لا أكثر. طموحة، وتحبّ الظّهور، إلّا

أنّ لديها حساسيّة متدرّجة الألوان، وطاقة كبيرة، وسخيّة وذكيّة وحيويّة. لا أزعم أنّي شخصٌ خارق؛ لكنّ نُويلي سطحيّة إلى درجة يستحيل معها تفوّقها عليَّ مهما كان ذكاؤها. لا بدّ أن أقوم باختبار مُضاد. الخطّ ليس علماً صحيحاً على أيّ حال.

أقلق. كيف يراني النّاس؟ ومن أنا بكلّ موضوعيّة؟ هل أنا أقلّ ذكاءً ممّا أتصوّر؟ هذا، هو نوع الأسئلة التي لا يجب طرحُه، لا أحد سيجرؤ على إجابتي بأنّي حمقاء. لكن كيف سأعرف؟ يعتقد كلّ النّاس أنّهم أذكياء، حتّى الذي يبدون أغبياء في نظري. هذا ما يُفسّر حساسيّة المرأة إزاء الإطراء الذي يُقال لها بشأن جسمها على حساب عقلها: بالنّسبة إلى عقلها فإنّ لديها قناعاتها الرّاسخة، التي لدى الجميع والتي - كنتيجة حتميّة - لا تثبتُ شيئاً. كي تعرف حدودك عليك أن تتجاوزها: أن تقفز فوق ظلّك. أفهم دائماً ما يُقال لي، وما أقرأ: لكن لعلّي أفهم بسرعة، عن نقص في تحصيل الثّراء والتّعقيد الكامنين في فكرة ما. هل هو قصوري ما يمنعني من ملاحظة تفوّق نُويلي؟

السّبت مساءً.

هل هو الحظّ الذي وُعد به مواليد برج القوس في هذا الأسبوع؟ أخبرتني ديانا بأمر في الهاتف، قد تكون له أهمّية مصيريّة: نُويلي ستنام مع النّاشر «جاك ڤالان». السيّدة ڤالان هي التي أخبرت صديقة ديانا: أمسكت رسائل وهي تكره نُويلي. كيف أجعل موريس يعلم؟ هو متأكّد من حبّ نُويلي له، سيسقط في يده. فقط، لن يُصدّقني. أحتاج إلى براهين. لن أذهب إلى السيّدة ڤالان على أيّ حال، لأطلب منها الرّسائل. ڤالان ثريّ للغاية. بينه وبين موريس هو من تختار لو وعدها بطلاق زوجته. يا للماكرة! لو أنّي أستطيع احترامها لخفّت معاناتي. (أعلم. امرأة أخرى كانت ستقول في غريمتها: لو استطعتُ أن أكرهها لخفّت معاناتي. فكرّتُ أنا نفسي: أحترمها قليلاً جدّاً كي أتألّم.)

الأحد 13.

أطلعتُ إيزابيل على نتائج خبير الخطّ: لم تبدُ مُقتنعة لأنّها لا تؤمن بقراءة الشّخصيّة عن طريق الخطّ. مع ذلك فإنّ الهيمنة القويّة التي تحدّثت عنها النّتائج فيما يخصّني تقاطعت مع ما آخذني عليه موريس في ذلك اليوم، لاحظتُها. وأعرف أنّي أنتظر من النّاس الكثير؛ وربّما طلبتُ منهم الكثير.

- بالطّبع. كما أنّك تعيش كثيراً للآخرين فإنّك تعيش كثيراً بهم، قالت لي. لكنّ الحبّ والصّداقة هو هذا: نوع من التّكافُل.

- لكن هل أنا ثقيلة الظلّ على من يرفض التّكافُل؟

- نبدو ثقيلين في نظر أناس لا يعنيهم أمرنا كثيراً، فهي مسألة ظرفيّة وليس مسألة مبدأ.

طلبتُ منها أن تقوم بمجهود كي تخبرني بما أبدو عليه في نظرها، ماذا ترى في شأني. ابتسمت:

- أنتِ صديقتي وأنتِ هنا.

قالت عندما لا يكون هناك رهان، إمّا أنّنا نعجب النّاس أو أنّنا لا نعجبهم لكنّنا لا نحمل عنهم أفكاراً. نحنُ صديقتان وهذا كلّ شيء.

- لكن، صراحة، هل تجدينني ذكيّة؟

- بالتّأكيد. ما عدا حين تطرحين عليَّ هذا السّؤال. إن كنا غبيّتين، فإنّنا إحدانا ستجد الأخرى ذكيّة: هل يدلّ هذا على شيء؟

كرّرت لي أنّه في مسائل مشابهة، لا الخصال ولا العيوب تدخل في الاعتبار: الجديد هو الذي اجتذب موريس؛ ثمانية عشر شهراً: ما زالت جديدة.

الاثنين 14.

السّقوط الفظيع في الحزن. منذ اللّحظة التي نصاب فيها بالحزن فإنّنا لا نستطيع القيام بأيّ شيء مُبهج. لم أعد أضع أسطوانة حال استيقاظي.

لم أعد أسمع موسيقى أبداً، لم أعد أرتاد السّينما، لا أشتري شيئاً جميلاً. نهضتُ وأنا أنتظر مجيء السيّدة «دورموي». احتسيتُ الشّاي، أخذتُ رشفة لإرضائها. ورحتُ أتأمّل هذا اليوم الذي يجب أن أعيشه. وقلتُ في نفسي...

هناك من رنّ الجرس. ساعٍ وضع في ذراعي باقة ليلَك وورد ترافقها كلمة: «عيد ميلاد سعيد. موريس». انخرطتُ في البكاء حالما أُغلق الباب. دافعتُ عن نفسي بالدّموع والاضطراب، مشاريع سود، وبعض الكراهية: وهذه الزّهور التي جاءت تذكّرني بالسّعادة الضّائعة، خرّبت كلّ دفاعاتي.

عند الواحدة دار المفتاح في القفل وصعد إلى حنجرتي الطّعمُ المرّ للخوف. (نفسُه عندما رحتُ أزور أبي في المصحّة وهو يموت). ذاك الحضور المألوف، مثل صورتي تماماً، سبب حياتي، وسعادتي، إنّها الآن هذا الغريب، هذا القاضي، هذا العدُوّ: خفق قلبي بشدّة لمّا دفع الباب. تقدّم نحوي بسرعة، ابتسم لي وأخذني بين ذراعيه:

- عيد ميلاد سعيد، حبيبتي.

بكيتُ على كتفه، بهدوء. داعب شعري:

- لا تبكي. لا أريدك أن تكوني حزينة. أنا متعلّق بك كثيراً.

- قلتَ لي إنّك توقّفت عن حبّي منذ ثماني سنوات.

- لا. وقلتُ بعد ذلك إنّ هذا غير صحيح. أنا متمسّك بك.

- لكنّك لا تكنّ لي الحبّ؟

- هناك أنواع عديدة من الحبّ.

جلسنا، وتحدّثنا. حدّثتُه مثلما كنتُ أفعل مع إيزابيل أو ماري لومبير، بثقة، وبودّ، وبرابطة متينة: كما لو أنّ المسألة لم تكن تخصّنا. كنّا نناقش مُشكلة، دون انحياز وبشكل عفويّ، كما ناقشنا مواضيع أخرى غيرها. اندهشتُ مُجدّداً من صمته طوال ثماني سنوات. أعاد:

- قلتِ إنّك كنتِ ستموتين كمداً...

- أنتَ جعلتني أقول ذلك: كانت فكرة الخيانة تزعجك من الأساس...

- نعم هي تزعجني. لهذا صمتُّ: كي تمرّ الأشياء كما لو أنّي لا أخونكِ... كان نوعاً من السّحر... وطبعاً كنتُ أشعر بالخجل من نفسي...

قلتُ له إنّي أودّ معرفة السّبب الذي جعله يتكلّم في هذه السّنة بالذّات. اعترف بأنّ علاقته بنُويلي هي التي تطلّبت ذلك، لكن أيضاً، قال، إنّ من حقّي معرفة الحقيقة.

- لكنّك لم تقل الحقيقة.

- لأنّ الكذب مُخجل.

غمرني بتلك النّظرة الغامضة والحارّة التي يبدو أنّه يفتح لي بها قلبه حتّى الأعماق، كاملاً، مُسلّماً لي وحدي، بريئاً وحنوناً، كذي قبل.

- غلطُك الكبير، قلتُ، هو أنّك تركتني سابحة في الثّقة. وها أنا في الرّابعة والأربعين، خاوية اليدين، دون مهنة، دون اهتمام سواك في هذا الوجود. لو أخبرتني منذ ثماني سنوات، لكنتُ استقللت بحياتي ولقبلتُ المسائل بشكل أيسر.

- لكن، مونيك! قال لي مذهولاً. ألححتُ عليك كثيراً منذ سبع سنوات، بأن تقبلي وظيفة سكرتيرة في «المجلّة الطبّية». إنّها ضمن مهاراتك ومؤكّد أنّك كنتِ ستبلغين منزلة مهمّة: لم تشئي!

كنتُ قد نسيتُ ذلك العرض، لشدّة ما بدا لي غير مناسب:

- لم أرَ جدوى من قضاء اليوم بعيداً عن بيتي وبناتي من أجل مئة ألف فرنك، قلتُ.

- هكذا كانت إجابتك آنذاك. ألححتُ عليكِ كثيراً.

- لو صارحتني بأنّك لم تعد كلّ شيء بالنّسبة إليَّ وأنّه يجب أخذ مسافاتي، لكنتُ قبلتُ.

- عرضتُ عليك العمل مرّة أخرى، في موجينس. ورفضتِ أيضاً!

- في تلك الفترة كان حبّك يكفيني.

- ما زال الوقتُ أمامك، قلتُ. بإمكاني أن أجد لكِ شغلاً بسهولة.

– أتظنّ أنّ ذلك قد يواسيني؟ ربّما كان سيبدو لي الأمر أقلّ غرابة قبل ثماني سنوات؛ كانت حظوظي أوفر لبلوغ مكانة ما. لكن الآن!...

تعثّرنا كثيراً هنا. أعتقد أنّ ضميره كان سيرتاح لو أنّه أتاح لي فرصة عمل.

عدتُ إلى نقاشنا يوم 1 ديسمبر: تاريخ؛ هل يرى حقّاً أنّي أنانيّة، ومتسلّطة، ومهيمنة؟

– حتّى في الغضب، لم تخترع ما قلتَه من العدم؟

تردّد، وابتسم، وفسّر. لديّ العيوب التي تنتج عن خصالي. أنا حاضرة، ومنتبهة، هذا نفيس، لكن أحياناً، عندما نكون في مزاج سيّئ فإنّنا نتعب. أنا وفيّة للماضي إلى درجة أنّ مجرّد النّسيان يبدو في نظري جريمة، حين نحسّ بأنّنا مذنبون، عندما يتغيّر ذوقنا حيال الأشياء وحين تتبدّل وجهات نظرنا. ليكن. لكن هل يشعر بالضّغينة نحوي؟ آخذني منذ عشر سنوات، أعرف ذلك جيّداً، لقد تشاجرنا ما يكفي؛ لكن الأمر انتهى ما دام قد فعل ما يشتهي وما دمتُ قد أيّدتُه بمرور الوقت. وزواجنا، هل يتصوّر بأنّي أنا من لوى ذراعه؟ أبداً؛ لقد قرّرنا كلّ شيء معاً...

– عاتبتني لأنّي لا أهتمّ بعملك؟

– يؤسفني ذلك قليلاً، هذا صحيح؛ لكنّي أجد مؤسفاً أكثر أن تجهدي نفسكِ لتهتمّي به لا لمجرّد إرضائي.

كان صوتُه مُحفّزاً ما جعلني أطرح السّؤال الذي يؤرّقني أكثر من غيره:

– تلومني بسبب كوليت ولوسيان؟ خيّبتا ظنّك، وتعتقد أنّي المسؤولة عن ذلك؟

– بأيّ حقّ قد أسمح لنفسي بالخيبة؟ وبأيّ حقّ قد أحمّلك المسؤوليّة؟

– إذن لماذا حدّثتني بذلك الكمّ من الحقد؟

- آه! لم يكن الوضعُ سهلاً بالنّسبة إليَّ أيضاً. أنا غاضب من نفسي وعاد ذلك عليك.

- مع ذلك، أنتَ لا تحبّني كذي قبل؛ ما زلتَ متمسّكاً بي، هذا صحيح، نعم؛ لكنّه ليس الحبّ الذي جمعنا في العشرين.

- أنتِ أيضاً لا تكنّين لي حب العشرين. في العشرين كنتُ أحبّ الحبّ وأنا أحبّك أنتِ. فقدتُ ذلك الجانب المتحمّس؛ هذا ما تغيّر.

كان الحديث معه أمراً في غاية العذوبة، بودّ كما كان الشّأن خلال السّنين الماضية. العقبات جعلت قوايَ تخور، تلاشت الأسئلة كالدّخان، تعمّقت الأحداث، وغرق الصّحيح، والخطأ في بريق غامض. لا شيء حدث في العمق. انتهى بي الأمر لأقتنع بأنّ نُويلي لم توجد أصلاً... تهيّؤات، شعوذة. في الحقيقة، لم تغيّر هذه الثّرثرة شيئاً. أطلقنا على الأشياء مُسمّيات أخرى: لم تتحرّك. لم أتعلّم شيئاً. ظلّ الماضي مُظلماً. والمستقبل غير مضمون.

الثّلاثاء 15.

أمسِ مساءً، أردتُ استئناف حوارنا المخيّب لما بعد الظّهيرة. لكنّ موريس كان لديه عمل بعد العشاء، وحين انتهى منه أحسّ بحاجة إلى النّوم.

- تحدّثنا ما فيه الكفاية في هذه الظّهيرة. ليس لدينا ما نضيفه. يجب الاستيقاظ باكراً في الغد.

- لم نقل شيئاً، في الواقع.

اتّخذ سحنة إذعان:

- ماذا تريدين أن أقول لك أكثر ممّا قلتُ؟

- حسناً! هناك أمر أودّ معرفته: كيف ترى مُستقبلنا؟

صمت. وضعتُه في موقف محرج.

– لا أريد أن أخسركِ. ولا أريد أن أقطع مع نُويلي. فيما تبقى ها أنا أقاوم...

– هل ستناسبها حياة مزدوجة؟

– هي مُضطرّة.

– نعم؛ مثلي. حين أفكّر فيما قلتَه لي في *نادي 46*، من أنّه لم يتغيّر شيء بيننا!

– لم أقل هذا.

– كنّا نرقص وقلتَ لي: لا شيء تغيّر! وصدّقتُك!

– أنتِ مونيك من قال لي: المهمّ هو ألّا يتغيّر شيء بيننا. لم أقل العكس، صمتُّ حينها. كان من المستحيل آنذاك أن ندخل وأن نتعمّق في المواضيع.

– قلتَها. أنا أذكُر جيّداً.

– شربتِ كثيراً، تعلمين، لا بدّ أنّك خلطتِ الأشياء...

صرفتُ النّظر. ما الفرق؟ المهمّ هو أنّه لن يتخلّى عن نُويلي. أعلم ذلك، ولا أستطيع تخيّله. أخبرتُه فجأة بأنّي قرّرتُ عدم الذّهاب معه لممارسة رياضات الشّتاء. فكّرتُ مليّاً وأنا سعيدة لكوني خلصتُ إلى هذا القرار. كنتُ أعشق الجبل معه فيما مضى. سيكون الأمر بمثابة العذاب الذّهاب معه في ظرف مشابه. لن أتحمّل الذّهاب إلى هناك أوّلاً ثمّ العودة مهزومة تاركة مكاني لامرأة أخرى. ولن يكون في الأمر كرامة حتّى وأنا أعقب نُويلي وأنا على علم أنّ موريس يتحسّر عليها مقارناً جسمها بجسمي وحزني بضحكاتها. بدأتُ أراكم الصّفاقة أكثر فأكثر ولن تزداد رغبته سوى في التخلّص منّي.

– اقضِ معها العشرة أيّام التي وعدتها بها ثمّ عُد، قلتُ.

إنّها المرّة الأولى منذ بداية الحكاية التي آخذ فيها المبادرة وبدا حائراً.

– لكن، مونيك، أريد أن أصحبك. أمضينا أيّاماً جميلة في الثّلج!

- هذا سبب إضافيّ.

- ألن تتزحلقي هذا الشّتاء؟

- أنت تعلم، لذّة التّزحلق، في ساعتنا هذه ليس أمراً عظيماً.

عقّلني، وألحّ، وبدا عليه الأسف. لقد اعتاد حزني اليوميّ، لكن أن يحرمني من التزحلق هذا الشّتاء فهذا ما أوجع ضميره. (أنا غير عادلة؛ إنّه لا يعتاد أبداً؛ يأخذ حبوباً مهدّئة للنّوم، لديه فم شخص مدفون في التّراب. لن تأخذني به الشّفقة، بل سأقرّعه على ذلك. إن كان يعذّبني وهو عالم بما يجري مُعذّباً نفسه أيضاً فيجب أن يستمسك بنُويلي بكلّ قذارة). تناقشنا طويلاً. لم أستسلم. أخيراً بدا مُرهقاً ـــ استطالت خطوط وجهه وتغضّنت عيناه ـــ حتّى إنّي أرسلتُه إلى النّوم. غاص في النّوم كأنّه ملاذ آمن.

الأربعاء 16.

رحتُ أتأمّل قطرات الماء التي انزلقت على الزّجاج بفعل المطر منذ قليل. لم تسقط عموديّاً؛ بدت القطرات كأنّها مخلوقات صغيرة تميل يميناً ويساراً لأسباب غريبة، متّحدة مع قطرات أخرى ثابتة، تتوقّف ثمّ تستأنف مسيرها كأنّها تبحث عن شيء ما. بدا لي أنّه لا وجود لشيء يمكن القيام به. كان دائماً لديّ أشياء أفعلها. الآن، حياكة الصّوف، الطّبخ، القراءة، الاستماع إلى الموسيقى، كلّها أشياء لا قيمة لها. حبّ موريس هو الذي يمنح أهمّية لكلّ آونة في حياتي. باتت الآن خاوية. كلّ شيء خاوٍ: الأغراض واللّحظات. وأنا.

طلبتُ من ماري لومبير في ذلك اليوم إن كانت تجدني ذكيّة. حدّقت فيَّ بنظراتها الصّافية.

- أنتِ ذكيّة جدّاً...

قلتُ:

- هناك لكن...

مكتبة
t.me/t_pdf

– يخبو الذّكاء إن لم نعتن به. يجب أن تدعي زوجك يبحث لك عن عمل.

– لن يمنحني العمل الذي أقدر عليه شيئاً.

– هذا ليس أكيداً أبداً.

عند المساء.

أُلهِمتُ شيئاً هذا الصّباح: كان كلّ شيء بسببي. كان خطئي الأكبر هو عدم فهمي بأنّ *الوقت* يمرّ. كان يمرّ فيما كنتُ جامدة في فكرة الزّوجة المثاليّة للزّوج المثاليّ. بدل أن أنعش علاقتنا الجنسيّة رحتُ أعيش على ذكرى ليالينا البديعة. ذهب في ظنّي أنّي سأحافظ أبداً على جسم ووجه الثّلاثين، بدل أن أُعالِج وأمارس الرّياضة وأرتاد مراكز التّجميل. تركتُ ذكائي يتلف؛ لم أعد أثقّف نفسي، كنتُ أقول في نفسي: لاحقاً، عندما تغادر بناتي. (ربّما موت أبي لم يكن غريباً عن ترك نفسي أنساق دون هدف. شيء ما تحطّم. لقد أوقفتُ الزّمن منذ ذلك الحين). نعم، الطّالبة الشّابّة التي تزوّجها موريس، الفتاة الشّغوفة بالأحداث، والأفكار، والكتب كانت مختلفة عن المرأة التي أصبحتُها اليوم حيثُ العالم يبدأ وينتهي بين أربعة جدران. صحيح أنّ لديّ نزعة حبس موريس في البيت. اعتقدتُ أنّ بيته يكفيه، اعتقدتُ أنّه لي بالكامل. إجمالاً، بدا لي كلّ شيء ملكي: لا بدّ أنّ ذلك ضايقه هو الذي يرغب دائماً في التّغيير ويعيد التّفكير في الأشياء. الضّيق لا يغفر. لا يجب أن أعاند في شأن معاهدتنا حول الوفاء. لو أنّي منحتُ موريس حرّيته ـــ وربّما لو استخدمتُ حرّيتي ـــ لما كانت نُويلي تنعم في البذخ الذي يتيحه الخفاء. لكنتُ واجهتها فوراً. هل ما زال الوقتُ يسمح؟ قلتُ لماري لومبير بأنّي سأحدّد جميع النّقاط مع موريس وسأتّخذ قراراتي. كنتُ قد عدتُ إلى القراءة قليلاً، والاستماع إلى الأسطوانات: قمتُ بمجهود جادّ. خسرتُ بعض الكيلوغرامات وبدأتُ ألبس بشكل أنيق. تحدّثتُ مع موريس بأريحيّة، وقاومتُ الصّمت. أنصتت إليَّ دون حماس. أرادت أن تعرف من منّا أنا وموريس مسؤول عن حملي الأوّل. كلانا. أخيراً، أنا، لأنّي وضعتُ

ثقة بالغة في الرّزنامة، لكن ليس ذنبي إن هي خانتني. هل تمسّكتُ بالطّفل؟ لا. كي لا أرعاه؟ لا. اتُّخذ القرار من تلقاء نفسه. بدت مرتابة. فكرتها هي أنّ موريس يغذّي ضغينة حقيقيّة تجاهي. عرضتُ عليها وجهة نظر إيزابيل: لم تكن بدايات حياتنا الزّوجيّة لتنجح لو لم يكن راغباً في ذلك. وجدتُ إجابتها معقّدة: كي لا يواجه نفسه بالنّدم، راهن موريس على الحبّ، أراد السّعادة بجنون؛ ما إن تدهورتُ حتّى عادت الكراهية لتظهر أمامه بعدما ظنّ أنّه قد تخلّص منها. أحسّت هي نفسها بأنّ شرحها ضعيف. لم تتّخذ مزاعمها ضراوة جديدة تجعلها في مأمن منّي.

في الواقع، تغضبني ماري لومبير قليلاً. جميعهم يغضبونني لأنّ لديهم سحنة من يعرف أشياء لا أعرفها. إمّا أنّ موريس ونُويلي يشيعون روايتهم الخاصّة لما يجري. وإمّا أنّهم عاشوا مثل هذه التّجارب وهم الآن بصدد إسقاطها على وضعي. أو أنّهم يرونني من الخارج حيثُ لا يمكنني أن أرى نفسي فتبدو لهم حياتي مُضاءة بشكل كبير. إنّهم يضلّلونني وأشعر بارتعاش أيديهم عندما أتحدّث. أيّدت ماري لومبير قراري بالإحجام عن رياضة الشّتاء: في حدود تجنّب آلام أخرى؛ هي لا تتخيّل أنّ مواقف موريس قد تتغيّر في أيّ لحظة.

قلتُ لموريس إنّي أفهم أخطائي. أوقفني؛ بواحدة من حركاته المباغتة التي بدأتُ أعتادها.

– ليس عليك أن تعاتبي نفسكِ. لماذا يجب أن نعود طوال الوقت إلى الماضي!

– ماذا أملك غير الماضي؟

صمتٌ ثقيل.

لا أملك غير ماضِيَّ. لكنّه ليس سعادة ولا هو مفخرة: لغز، وقلق. أريد أن أنتزع منه الحقيقة. لكن هل إنّ الذّاكرة محلُّ ثقة؟ نسيتُ الكثير، وخُيّل إليّ أنّي حرّفت الوقائع في أحيان كثيرة. (من قال: «لا شيء تغيّر»؟ موريس أم أنا؟ كتبتُ في هذه المُذكّرات أنّه هو. ربّما لأنّي أتمنّى

أن يكون ذلك صحيحاً...) ربّما من باب العدائيّة أنّي عارضتُ ماري لومبير. الكراهية، أحسستُ بها أكثر من مرّة من جهة موريس. هناك كلمات ونبرات يتردّد صداها في داخلي؛ لم أشأ أن أعلّق عليها اهتماماً كبيراً مع ذلك أنا أتذكّرها. عندما قرّرت كوليت الزّواج «الغبيّ»، بدا واضحاً أنّه وهو يعبّر عن غضبه منها كان يهاجمني: عاطفيّته، وحاجته إلى الأمان، خجله، سلبيّته، حمّلني مسؤوليّة كلّ ذلك. رحيل لوسيان هو الذي صدمه بشكل خاصّ. «لوسيان رحلت لتهرب منك». أعرف أنّه يؤمن بذلك. إلى أيّ مدى هذا صحيح؟ من أمّ مختلفة ـــ أقلّ انشغالاً، وأقلّ حضوراً ـــ كانت لوسيان ستتحمّل حياة العائلة؟ ظننتُ أنّ الأمور على ما يرام بيننا، خلال السّنة الماضية، كانت أقلّ شعوراً بالضّغط: لأنّها سترحل؟ لا أدري. لو أنّي فشلتُ في تربية بناتي، فإنّ حياتي عبارة عن مهزلة. لا أريد أن أصدّق. لكن ما إن يساورني الشكّ فإنّ دُواراً ينتابني!

هل استمرّ موريس في العيش معي بدافع الشّفقة؟

يجب، إذن أن أطلب منه الرّحيل. يخونني القلب. ربّما لو بقي معي ليئست نُويلي آجلاً أم عاجلاً وربّما راهنت على علاقتها بڤالان أو غيره. أو لعلّ ضميره يذكّره بما كان يمثّله أحدنا للآخر.

ما ينهكني هو تناوب لطفه وتباطئه. لا أعلم أبداً من سيفتح الباب. كما لو أنّ ألمي لا يروّعه بقدر ما يفزعه كونه منحني أملاً أكثر ممّا ينبغي. هل يجب أن أسكن في اليأس؟ سينسى إذن، من كنتُ ولماذا أحبّني.

الخميس 17.

قامت مرغريت بعمليّة فرار أخرى ولم يتمكّنوا من تحديد مكانها. هربت مع متشرّدة حقيقيّة. ستدخل عالم الدّعارة والسّرقة. هذا مؤسف. لكنّي لستُ متأسّفة. لم يعد هناك ما يؤثّر فيَّ.

الجمعة 18.

رأيتُهما من جديد أمسِ مساءً. كنتُ أتسكّع بالقرب من «*سنة 2000*»

حيثُ اعتادا الذّهاب. نزلا من سيّارة نُويلي المكشوفة؛ أخذها من ذراعها. كانا يضحكان. كان دائماً حزيناً في البيت، حتّى في أوقاتنا الأكثر ودّاً؛ كان دائماً يبدو مُرغماً على الابتسام. «الوضعُ ليس سهلاً...»» معي، لم يكن ينساها لحظة. معها، بلى. كانا يضحكان، دون هموم، مُرتاحَيْن تماماً.

انتابتني رغبة في إيذائها. أعرف أنّه تصرّف أخرق، لم تكن تدين لي بشيء: لكن هكذا هي الأشياء.

النّاسُ جبناء. طلبتُ من ديانا أن تضرب لي موعداً مع صديقة السيّدة ڤالان التي تحدّثت عن نُويلي. تضايقت. صديقتها غير متأكّدة ممّا قالت. ڤالان ينام مع محامية شابّة، في ذروة الحماس والانطلاق. لم تذكر السيّدة ڤالان اسمها. يمكن أن نفترض أنّ نُويلي هي التي رافعت لصالح العائلة أكثر من مرّة. أو ربّما أخرى... في ذلك اليوم، كانت ديانا حاسمة. لعلّ الصّديقة تخشى الوقوع في ورطة أو لعلّ ديانا هي التي تخشى أن أتسبّب في مأزق حقيقيّ. أقسمت لي نفياً؛ لم تطلب سوى مساعدتي! دون شكّ. لكن كان لهم جميعاً أفكارهم حول كيفيّة مساعدتي.

الأحد 20.

أحاصرُ كوليت بالأسئلة كلّما رأيتُها. بالأمس بكت.

– لم يبدُ في نظري أبداً أنّك تحضنيننا، كان سيسعدني أن تحضنيني... ما تفكّر فيه لوسيان بشأنِك؟ ليس بيننا حميميّة كبيرة، هي تحاكمني أيضاً. ترى أنّنا عاطفيّات، فيما تلعب هي دور القاسية. ثمّ ما قيمة ما تفكّر فيه؟ وجهة نظرها ليست وحياً.

طبعاً لم تشعر كوليت يوماً بأنّها مُعاقبة بما أنّها تحوّلت إلى نسخة منّي. وبالتّأكيد لا يخطر لها أنّ ما هي عليه يدعو إلى الأسف. سألتُها إن كانت تضجر. (جون بيير إنسانٌ جيّد، لكنّه ليس ظريفاً جدّاً). لا، هي مشغولة؛ اتّضح لها أنّ إدارة بيت ليس بالسّهولة التي تخيّلتها. لم يكن لديها وقتٌ للقراءة أو للاستماع إلى الموسيقى. «حاولي أن تجدي

الوقت» قلتُ لها، «وإلّا انتهى بك الأمر لتصبحي بهيمة». قلتُ لها إنّي أتحدّث عن تجربة. ضحكت: إن كنتُ بهيمة فهي تتمنّى لنفسها ذلك أيضاً. إنّها تحبّني بحنان، لا أحد في وسعه أن يحرمني من هذا على الأقلّ. لكن هل سحقتُها؟ مؤكّد أنّي تخيّلتُ لها وجوداً مختلفاً: أكثر حيويّة، وأكثر ثراءً. في سنّها كان وجودي إلى جانب موريس أفضل ممّا تمنّيتُه لها. هل اختارت العيش في ظلّي؟

كم أتمنّى رؤية نفسي بعيون أخرى! عرضتُ الرّسائل الثّلاث على صديقة لكوليت تفهم علم الخطّ قليلاً. اهتمّت بخطّ موريس أكثر. قالت عنّي أشياء جيّدة؛ أقلّ منها على نُويلي. لكنّ نتائجها كانت باطلة لأنّها كانت تعرف سبب الفحص.

الأحد مساءً.

غمرتني سعادة مفاجئة عندما قال لي موريس: «سنمضي عيد الميلاد معاً». أعتقد أنّه يمنحني تعويضاً عن عطلة الشّتاء التي أحجمتُ عنها. لا يهمّ السّبب. قرّرتُ ألّا أفسد غبطتي.

27 ديسمبر-الأحد.

السّعادة هي التي جعلتني أستاء. آمل ألّا يكون موريس قد انتبه إلى ذلك. حجز طاولة في *نادي 46*. حساء لذيذ، ووسائل ترفيه رائعة. بذّر أمواله ولطفه. كان لديَّ فستان جديد، كنتُ أبتسم وأنا في حالة قلق مُزرية. كلّ هؤلاء الأزواج... أنيقات، بقصّات شعر جميلة، وذوق راقٍ في المكياج، وكانت النّساء تضحكن مُبديات أسناناً خرجت من بين أيدي أطبّاء أسنان جيّدين. أشعل الرّجالُ سجائرهم، سكبوا لهنّ الشّامبانيا، تبادلوا النّظرات وكلمات رقيقة. قبل سنوات خلت، كانت العلاقات التي تجمع بين كلّ واحدة بكلّ واحدها علاقات ملموسة في مجملها. كنتُ أومن بالزّوج، لأنّي أومن بأنّي وموريس نشكّل واحداً. في الوقت الحاضر صرتُ أرى أناساً مُعرّضين للصّدفة الواحد قبالة

الآخر. كان السّرابُ ينبعث من وقت إلى آخر؛ بدا لي موريس مُتشبّثاً بي؛ كان زوجي، مثل ابنتي كوليت، لكن من جانب واحد؛ علاقة يمكن نسيانها، يمكن أن تَفسد، لكن أبداً لن تضمحلّ. ثمّ من ناحيتي، لا شيء يمرّ: غريبان. كانت لي رغبة في أن أصرخ: كلّ شيء خطأ، إنّها كوميديا، مجرّد محاكاة ساخرة؛ أن نشرب الشامبانيا معاً، لا يعني أنّنا بصدد التواصل. عندما عدنا قبّلني موريس:

- كانت أمسية رائعة، أليست كذلك؟

بدا سعيداً ومرتاحاً. قلتُ نعم، بالتّأكيد. في الواحد والثّلاثين من ديسمبر سنمضي رأس السّنة مع إيزابيل.

1 جانفييه.

لا يجدر بي أن أفرح لأنّ موريس في مزاج رائق: السّبب الحقيقيّ هو أنّه سيقضي عشرة أيّام مع نُويلي. لكن مقابل تضحيتي سأحظى بالقليل من حنانه وسعادته، فيما هو غالباً صلبٌ ومُتذمّر. إنّه انتصار بالنّسبة إليّ. كوّنا زوجاً حالما وصلنا إلى بيت إيزابيل. زوجاً مُعالَجاً قليلاً، وكسيحاً قليلاً، لكنّنا كنّا متّحدين على أيّ حال. وكان هناك أزواج مُحيطة بنا. إيزابيل وشارل، عائلة كوتوريي، كوليت وجون بيير وآخرون. كان هناك أسطوانات جازٍ رائعة، تركتُ نفسي أنساق قليلاً إلى الشّراب ولأوّل مرّة منذ... منذ متى؟ أحسستُ بأنّي سعيدة. السّعادة: شفافيّة الهواء، وسلاسة الوقت، وسهولة التنفّس؛ لا أطلب أكثر. لا أدري كيف خلصتُ إلى الحديث عن «ملّاحات لودو» Les Saline de Ledoux[4]. ووصفها بالتّفصيل. استمعوا، وطرحوا الأسئلة وتساءلتُ لحظة إن كنتُ بصدد

4- «ملّاحات لودو» Les Saline de Ledoux: كلود نيكولا لودو هو مهندس معماريّ فرنسيّ وفيلسوف وشاعر، عاش في عصر الأنوار، وهو فنّان يوتوبيّ حالم، كان مؤمناً بأنّ بيئة جيّدة تخلق إنساناً جيّداً، صمّم مدينة على تخوم منجم للملح وحلم بأن يصنع مجتمعاً منغلقاً على نفسه حيثُ لا شيء يسود غير التأمّل بدل المرض، والسّعادة بدل الانشغال بتحقيقها. دُمرت جميع مبانيه تقريباً في القرن التّاسع عشر.

محاكاة نُويلي، إن كنتُ بصدد محاولة التألّق مثلها وإن كان موريس لا يجدني تافهة. بدا منزعجاً قليلاً. انفردتُ بإيزابيل:

- هل تحدّثتُ كثيراً؟ لقد قمتُ بمشهد سخيف!

أبدت أسفها لرؤيتي قلقة بذلك الشّكل. لأنّي مخطئة في نهاية الأمر؟ أم لأنّي مُحقّة؟ بعد ذلك سألت موريس لماذا كان متضايقاً:

- أبداً لم أكن متضايقاً!

- تقول هذا كما لو أنّك تؤكّد إحساسي.

- أبداً.

ربّما أزعجه سؤالي. لم أعد أدري. مع ذلك، خلف كلامي وحركاتي هناك وجه آخر يتجاوزني.

2 جانفييه.

تناولنا العشاء عند كوليت، أمسِ مساءً. المسكينة، اجتهدت كثيراً ولا شيء نجح. نظرتُ إليها بعيْنَيْ موريس. بيتُها ينقصه البهجة، هذا أكيد. لم تكن تبادر حتّى في تغيير الأثاث وفي أناقتها. كان جون بيير لطيفاً جدّاً، كان قلباً حقيقيّاً بالنّسبة إليها. لكن لا أحد يعرف فيما يمكن الخوض معه. لم يكونا يخرجان، لديهما قلّة من الأصدقاء. حياة ضيّقة الأفق ومملّة. برهبة، تساءلتُ من جديد: هل هو خطئي أن تتحوّل التّلميذة المتألّقة إلى امرأة منطفئة؟ تحوّل مألوف، رأيتُ أمثلة كثيرة على ذلك: لكن هل هو دائماً خطأ؟ كان موريس مرحاً للغاية، ودوداً طوال الأمسية ولم يعلّق ونحنُ نخرج. خمّنتُ أنّه لم يعد يفكّر كثيراً في «مأساة» كوليت.

بدا لي غريباً أن يقضي موريس اليوم بأسره في البيت والأمسية معي عند كوليت. راودني شكّ وهاتفتُ نُويلي في بيتها: إن أجابتني فسأقفل الخطّ. تكلّمت سكرتيرتها:

- السيّدة غيرار لن تعود إلى باريس قبل الغد. هل يجب أن أستمرّ في حمقي! نُويلي غادرت، مُهمّتي، إذن، هي سدّ الثّغرات. اختنقتُ من شدّة الغضب. انتابتني رغبة في طرد موريس، أن أنهي المسألة إلى الأبد.

هاجمتُ بضراوة. أجاب بأنّ نُويلي رحلت لأنّه قرّر أن يقضي رأس السّنة معي.

- لكن، لا! تذكّرتُ: كانت تمضي الأعياد مع ابنتها في بيت زوجها.

- لن تمكث أكثر من أربعة أيّام.

رمقني بتلك النّظرة النّزيهة التي لا تكلّفه الكثير.

- على أيّ حال، لقد اتّفقتما على كلّ شيء!

- طبعاً، تحدّثنا في الأمر. هزّ كتفيه: ـــــ لا شيء يسعد المرأة أكثر من أن يُمنحن ما انتُزع من أخريات بالقوّة. لا قيمة للشّيء في حدّ ذاته: المهمّ هو النّصرُ.

قرّرا معاً. وصحيح أنّ ذلك أفسد سعادة الأيّام الماضية. كان سينقاد إليها حالما تعود. مصيري مُعلّق بيدها، إذن، رهين نزواتها، وكبرياء روحها أو خِسّتها: أي رهين مصالحها. سيسافران غداً إلى «كورشوفيل». أتساءل إن كان قراري طائشاً. لن يمكث سوى خمسة عشر يوماً، بدل ثلاثة أسابيع (الأمر الذي يُشكّل تضحية، لا حظ لي، بالنّظر إلى حبّه للتزحلق). سيمضي مع نُويلي خمسة أيّام إضافيّة أكثر ممّا خطّط. وأخسرُ أنا عشرة أيّام من حياتي معه. سيكون الوقتُ أمامها كافياً كي تلفّه في شرنقتها. عند عودته سيقول لي إنّ كلّ شيء قد انتهى بيننا. ستكون خاتمة غرقي! أقول ذلك بنوع من الجاذبيّة. أحسّ بأنّي هالكة لا محالة. ناورني، ربّما كان يخشى من أن أغرق ـــــ وهو أمر غير مطروح لأنّي أكره الموت ـــــ لكنّ تعلّقه بنُويلي تضاءل.

15 جانفيه.

يجب أن أفتح علبة مُصبّرات. أو أجهّز حمّاماً. لكنّي أظلّ ألوك أفكاري. بلى، سأجهّز حمّاماً. لكنّي أظلّ أحوّم حول أفكاري. لو كتبتُ فسأنشغل، سيتيح لي ذلك أن أهرب. كم ساعة دون أكل؟ كم يوماً دون

اغتسال؟ منحتُ للمعينة عطلة، وحبستُ نفسي، رنّ جرسي مرّتين وهاتفي مرّات عديدة ولم أكن أردّ على أحد، ما عدا عند الثّامنة حين يعود موريس. كان كلّ يوم يقول بصوت قلق:

- ماذا فعلتِ اليوم؟

أجيب بأنّي رأيتُ إيزابيل، وديانا أو كوليت، وبأنّي كنتُ في حفلة أو في السّينما.

- وهذا المساء، ماذا ستفعلين؟

أقول إنّي ذاهبة لرؤية ديانا أو إيزابيل، وبأنّي ذاهبة إلى المسرح. يُلحّ:

- هل أنتِ بخير؟ تنامين جيّداً؟

أطمئنه، وأسأله عن الثّلج: ليس جيّداً والطّقس لا يعجبه هو الآخر. كان هناك كآبة في صوته، كما لو أنّه ينوء في كورشوفيل تحت عبء ثقيل. وأعرف أنّه سيعود إلى البار ضاحكاً حالما ينهي المكالمة، حيثُ ستكون نُويلي في انتظاره وأنّهما سيشربان النّبيذ وهما يعلّقان بحيويّة على حوادث اليوم.

هذا ما اخترتُه، أليس كذلك؟

اخترتُ أن أُدفَن في قبو؛ لم أعد أفرّق بين اللّيل وبين النّهار؛ حين تسوء حالتي وتصبح لا تُطاق فإنّي أحتسي الكحول، والمهدّئات أو المنوّم. وعندما أتحسّن فإنّي أختفي بين دفّتَيْ رواية بوليسيّة: تزوّدتُ منها جيّداً. حين يخنقني الصّمت، أفتح الرّاديو فتأتيني أصواتٌ من كواكب أخرى بالكاد أفهمها: هذا العالم له زمنه وساعاتُه وقوانينه ولغاته وهمومه ورفاهيّته التي باتت غريبة عنّي. أين يمكن البلوغ بالانسياق السلبيّ، حين نكون محتَجَزين ووحيدين بالكامل! تفوح في الغرفة رائحة التّبغ البارد والكحول، هناك رماد في كلّ مكان، أنا قذرة، والأغطية مُتّسخة، والسّماء مُتّسخة خلف زُجاج مُتّسخ، والقذارة قوقعة تحميني، لن أخرج منها أبداً. سيكون من السّهل الانزلاق أبعد في العدم، إلى نقطة اللّاعودة. لديّ ما يلزم في الدُّرج. لكنّي لا أريد، لا أريد! عمري أربعون عاماً فقط، ما زال

الوقتُ مبكّراً على الموت، لن يكون ذلك عادلاً! لن يكون في وسعي أن أعيش. لا أرغب في الموت.

لم أكتب شيئاً في هذا الدّفتر منذ أسبوعين، والسّبب هو أنّي قرأتُه. ولاحظتُ أنّ الكلمات لا تقول شيئاً. السّعار، والكوابيس، والرّعب، كلّها مسائل لا تدركها الكلمات. سأضعُ أشياء على الورق حالما أستعيد قوايَ في اليأس أو في الأمل. لكنّ الإفلاس والخَبَل والطّيش والتحلّل ليست مذكورة في هذه الصّفحات. ثمّ إنّها تكذّب وتخدع بعضها بعضاً. كم كنتُ ضحيّة! رويداً، دفعني موريس إلى القول: «اختَر!» كي يُجيبني: «لن أتخلّى عن نُويلي...» أوه! لن أعود إلى التّعليق على هذه الحكاية. ما من سطر في هذا الدّفتر لا يستدعي تصحيحاً. مثلاً، عندما بدأتُه في الملّاحات فليس لشباب استعدتُه فجأة أو لأبدّد وحدتي، لكن كي أصرف قلقاً مُقنّعاً في داخلي. كان مخفيّاً في أعماق الصّمت وفي حرارة تلك الظّهيرة، المُرتبطة بقتامة موريس ورحيله. نعم، أقصد ما كتبتُ وأقصد عكس ما كتبتُ على امتداد هذه الصّفحات؛ ثمّ وأنا أقرؤها أشعر بأنّي ضائعة تماماً. ثمّة جُملٌ تجعلني أحمرُّ خجلاً... «أردتُ الحقيقة دائماً، وما توصّلي إليها، إلّا لأنّي أردتُها». أيُعقَلُ أن يضلّ المرء حياته إلى هذا الحدّ! هل إنّ الجميع عميان أم إنّي تائهة مع جملة من تاه؟ لستُ ضالّة فحسب. أنا أغالط نفسي. كم كذبتُ على نفسي! رويتُ أنّ نُويلي لا قيمة لها، وأنّ موريس يؤثرني، وأنا أعرف جيّداً أنّ هذا غيرُ صحيح. تناولتُ القلم، لا لأعود إلى الوراء بل لأنّ الفراغ الذي في داخلي وحولي كان عظيماً. كان لا بدّ من حركة اليد هذه كي أتأكّد من أنّي ما زلتُ حيّة.

أحياناً أنظر عبر النّافذة التي رأيتُه يرحلُ من خلالها، ذات سبتٍ، صباحاً، منذ دهر. قلتُ في نفسي: «لن يعود». لكنّي لم أكن على يقين من ذلك. كان مجرّد حدس باهر حول ما سيأتي لاحقاً، وما حدث فعلاً. لم يعد. ليس هو: وفي يوم لن تكون هيئته بجواري. كانت السيّارة هناك مركونة بمحاذاة الجادة، تركها. إنّها تعني حضوره، وذلك يدفّئ قلبي. لم

تكن تعكس سوى حضوره. لقد رحل. سيرحلُ دائماً. لن أعيش دونه. لكنّي لا أرغب في قتل نفسي. إذن؟

لماذا؟ ضربتُ رأسي على هذا الجدار المُستحيل. لم أحبّ وغداً واحداً منذ عشرين عاماً! لستُ حمقاء أو سليطة دون أن أعلم! كان حبّنا حقيقيّاً، متيناً: عصيّاً على الكسر كالحقيقة. فقط، كان هناك هذا الوقت الذي يمرّ وأنا أجهل ذلك. نهر الزّمن، والتّعرية النّاتجة عن جريان مياه النّهر: لقد تآكل حبّه بفعل جريان نهر الزّمن. لكن لماذا لم يحدث ذلك معي؟

أخرجتُ العلب من الخزانة وتصفّحتُ رسائلنا القديمة. جُمل موريس جميعها التي أحفظها عن ظهر قلب تعود إلى ما قبل عشر سنوات من العمر. إنّها كالذّكريات. حريٌّ بي أن أصدّق بأنّ حبّنا الجارف -على الأقلّ من ناحيته تجاهي- لم يدم سوى عشر سنوات، تراجع خلال السّنوات العشر الأخرى، مانحة الأشياء صدى لم يكن من طبيعتها. مع ذلك حافظ على ابتساماته ونظراته خلال السّنوات الأخيرة. (أوه! فقط، لم أستعد نظراته وابتساماته!) رسائله الحديثة طريفة ورقيقة، لكنّها مُوجّهة إلى تلك الفتيات أكثر ممّا هي مُوجّهة إليَّ. من حين إلى آخر كانت هناك جُملٌ حارّة تتقاطع مع النّبرة الواقعيّة: لكنّ شيئاً كالشّرط كان في ثناياها. امتلأت عينَيَّ بالدّمع حين أردتُ أن أقرأ رسائلي.

قرأتُها، وخلّفت لديّ شعوراً بالاستياء. في البداية كانت متناغمة مع رسائل موريس، مشتعلة ومرحة. لاحقاً صار لديها صوتٌ غريب، غامضاً ومشحونة بالتذمّر. أقرب إلى الشّكوى. كنتُ أؤكّد بحماس متزايد أنّ حبّنا حافظ على توهّج اليوم الأوّل، كنتُ أطالبه بتأييدي طارحة أسئلة تملي بين طيّاتها الإجابة: كيف رضيتُ بها، وأنا على علم بأنّي انتزعتها منه انتزاعاً؟ لكنّي لم أكن أعي ذلك، نسيتُ. نسيتُ أشياء كثيرة. ما قصّة الرّسالة التي أرسلها إليَّ والتي قلتُ له إنّي أحرقتها بعد مكالمتنا الهاتفيّة؟ بالكاد أذكُر؛ كنتُ في موجينس صحبة الأطفال، وكان قد انتهى من اجتياز امتحان، عاتبتُه لكونه لم يكتب لي بالقدر الكافي، أجابني بقسوة. بعنف كبير.

اندفعتُ نحو الهاتف، مُشوّشة بالكامل؛ اعتذر، وتوسّل إليَّ أن أحرق الرّسالة. هل دفنتُ فترات أخرى؟ تخيّلتُ دائماً أنّ نيّتي سليمة. كم هو فظيع أن أفكّر في أنّ حكايتي التي وراء ظهري لم تعد سوى ظلمات.

بعد يومين.

كوليت المسكينة! حرصتُ على الاتّصال بها مرّتين، بصوت مرح، كي لا تقلق. لكن مع ذلك اندهشت من عدم زيارتي لها وألّا أكون قد طلبتُ منها المجيء. دقّت الجرس وطرقت بعنف جعلني أفتح. اندهشت لرؤيتي حتّى إنّي رأيتُ نفسي في عينيها. رأيتُ البيت واندهشتُ أيضاً. أرغمتني على الاغتسال وعلى جمع أغراضي في حقيبة كي أعيش معها. سترتّب الخادمة البيت. منذ رحل جون بيير وأنا متشبّثة بكوليت، أمطرها بالأسئلة. هل كنّا نتشاجر كثيراً أنا ووالدها؟ في فترة ما، نعم، أرعبها ذلك، لأنّنا كنّا حتّى ذلك الحين متّفقيْن. لكن بعد ذلك لم يعد هناك مشاهد، على الأقلّ أمامها.

- ليس كذي قبل، أليس كذلك؟

قالت إنّها كانت صغيرة جدّاً لتلاحظ كلّ شيء. لم تساعدني. يمكنها أن تسلّمني مفتاح القصّة لو قامت بجهد إضافيّ. بدا لي صوتُها مرتجفاً: كما لو أنّها هي أيضاً لديها أفكارٌ خلف رأسها. ما هي؟ هل أصبحتُ قبيحة؟ قبيحة جدّاً؟ في هذه اللّحظة أنا فعلاً كذلك، نعم: ضامرة، وبشعر ميّت ولون متعكّر. لكن مضت ثماني سنوات؟ لم أجرؤ على سؤالها. أم إنّي حمقاء؟ أو لعلّي لستُ ذكيّة في نظر موريس؟ أسئلة رهيبة حين لا يكون من عاداتنا التّساؤل حول أنفسنا.

19 جانفيه.

أيجب أن أصدّقه؟ هل سأنال مكافأة مقابل منحي موريس حرّيته، وكوني لم أمنعه؟ لم أرَ كوابيس في نومي منذ أسابيع في تلك اللّيلة وعقدة ما انفرجت في حنجرتي. الأمل. ما زال هشّاً، لكنّه حاضر. زرتُ

مركز التّجميل، اعتنيتُ بنفسي جيّداً، قمتُ بتنظيف البيت، حتّى إنّي اشتريتُ زهوراً قبل عودة موريس. مع ذلك كانت كلمته الأولى:

- أيّ سحنة لديكِ!

صحيح أنّي فقدتُ أربعة كيلوغرامات. جعلتُ كوليت تقسم لي أنّها لن تخبر والدها عن الحال التي وجدتني عليها، لكنّي شبه متأكّدة من أنّها تحدّثت معه. أخيراً! لم تجانب الصّواب. أخذني بين ذراعيه.

- عزيزتي الصّغيرة!

- لكن، أنا بخير، قلتُ له.

(كنتُ قد تناولتُ المنوّم وكانت رغبتي في الاسترخاء كبيرة). ولشدّة اندهاشي رأيتُ دموعاً في عينيه.

- لقد تصرّفتُ كوغد!

قلتُ:

- ليس حقيراً أن تحبّ امرأة أخرى. لا ذنب لك في ذلك.

هزّ كتفيه وهو يقول:

- هل أحببتُها حقّاً؟

أشبعتني تلك الجملة يومين بأسرهما. أمضيا أسبوعين معاً، في التّرفيه والتمتّع بمنظر الجبل ويعود قائلاً: «هل أحببتُها حقّاً؟»، لم أكن لألعب على هذا الجانب ببرودة دم. لكنّ يأسي خدمني. إقامتهما وجهاً لوجه استنزفت شغفه بها. كرّر: «لا أريد هذا! لا أريدك أن تكوني حزينة». ليس لهذه الجملة وقع كبيرٌ عليَّ. إن كانت مجرّد شفقة ما كنتُ لأستعيد الأمل. لكنّه تساءل أمامي وبصوت مرتفع: «هل أحببتُها حقّاً؟» وقلتُ ربّما سُحب صمّام الأمان بينه وبين نُويلي وقريباً سيعود إليَّ.

23 جانفييه.

أمضى كلّ الأمسيات في البيت. اقتنى أسطوانات جديدة واستمعنا إليها معاً. وعدني أن يأخذني في رحلة إلى الوسط خلال شهر فيفرييه/ شباط.

يتعاطف النّاس عن طواعية مع الحزن كما مع الفرح. قلتُ لماري لومبير إنّ نُويلي قد انكشفت أمام موريس خلال إقامتهما في الجبل وأنّه بصدد العودة إليَّ نهائيّاً. قالت بطرف شفتيها:

- إن كان نهائيّاً فهذا جيّد.

أخيراً، لم تقدّم لي أيّ نصيحة. أنا على يقين أنّها تتحدّث عنّي في غيابي. لديهم أفكارهم حول حكايتي. لا أحد يبوح لي بها. قلتُ لإيزابيل:

- كان معكِ حقّ لمّا أشرتِ عليَّ بعدم ارتكاب ما لا يُحمَدُ عقباه. في العمق، لم يتوقّف موريس عن حُبّي.

- أعتقد، أجابتني بنبرة أكثر ارتياباً.

فجاءت ردّة فعلي:

- ألا ترين معي؟ تظنّين أنّه لم يعد يحبّني؟ كنتِ تؤكّدين لي العكس...

- أنا لا أظنّ شيئاً مُعيّناً. يبدو لي أنّه لا يعرف ماذا يريد.

- ماذا؟ هل لديك أخبارٌ جديدة؟

- أبداً لا.

ما الذي قد يكون تناهى إلى مسامعها، لا أتخيّله. دماغها معكوس: كانت تواسيني حين أكون مُتشكّكة وتلقي في قلبي الشكّ حين أكون على يقين من أمر ما.

24 جانفييه.

كان يجب أن أقفل الخطّ، وأن أقول: «ليس موجوداً»؛ أو ألّا أجيب أبداً. الحقير! وذاك الوجه المتعكّر لموريس! سأحدّثه بصرامة حين يعود. كان يقلّب الجرائد بجانبي عندما رنّ الهاتف: نُويلي. إنّها المرّة الأولى: مرّة أخرى. بأدب عالٍ:

- أريد التحدّث إلى موريس.

بغباء مرّرت له السمّاعة. بالكاد تكلّم، بدا متضايقاً جدّاً. كرّر مرّات

عدة: «لا، هذا مستحيل». وانتهى بالقول: «حسناً. سآتي». صرختُ حالما أقفل الخطّ:

- لن تذهب! ستبقى هنا!

- اسمعي. لقد تخاصمنا بعنف. هي يائسة لأنّي قطعتُ أخباري عنها.

- أنا أيضاً شعرتُ باليأس مرّات عديدة ولم أتّصل بك وأنت معها.

- أرجوكِ، لا تعقّدي الأمور! نُويلي على استعداد لتقتل نفسها.

- كفى أرجوك!

- أنتِ لا تعرفينها.

مشى جيئة وذهاباً، ركل الكنبة وفهمتُ أنّه سيذهب إليها على كلّ حال. عاد إلينا التّفاهم مدّة أيّام قبل أن يتملّكني الجبن ثانية. قلتُ: «افعل ما تشاء». لكنّي سأحدّثه حالما يعود. دون شجار. لا أريد أن يتمّ التّعامل معي كمقعد من رخام.

25 جانفيه.

تحطّمتُ. اتّصل بي ليخبرني بأنّه سيقضّي اللّيلة مع نُويلي، بأنّه لا يستطيع التخلّي عنها في الوضع الذي هي عليه. احتججتُ فأقفل الخطّ، أعدتُ الاتّصال، لم يردّ إلى أن انقطع الخطّ. كدتُ أقفز في سيّارة تاكسي وأتّجه رأساً إلى بيت نُويلي. لم أجرؤ على مواجهة موريس. خرجتُ، مشيتُ في برد اللّيل، دون أن أرى شيئاً، دون توقّف، حتّى التّعب. أقلّني تاكسي إلى بيتي، وتهاويتُ بكامل ملابسي على كنبة غرفة المعيشة. أيقظني موريس:

- لماذا لم تنامي؟

كان هناك تقريع في صوته. لقطة مريعة. قلتُ إنّه لم يقضِ هذه الأيّام معي إلّا لأنّه على خلاف مع نُويلي. يستجيب هو لأوّل إشارة إصبع وأهلك أنا من شدّة الشّجن.

- أنتِ غير منصفة! قال بغضب. إذا أردتِ معرفة الحقيقة، فقد تخاصمنا بسببك أنتِ.

- أنا؟

- أرادت تمديد إقامتنا في الجبل.

- قل إنّها أرادت منك أن تحسم أمرك معي!

بكيتُ، وبكيتُ...

- تعلمين أنّك لن تتخلّيْ عنّي.

- لا.

30 جانفييه.

ماذا يجري؟ ماذا يعرفون؟ لقد تغيّر الجميع معي. أوّل من أمسِ إيزابيل... كنتُ عنيفة معها. آخذتها لكونها قدّمت لي نصائح سيّئة. تلقّيتُ الصّدمة وتحمّلتُها معها؛ النّتيجة: موريس ونُويلي يعاملاني كمقعد من رخام. دافعت عن نفسها قليلاً: لم تكن تعرف أنّ علاقتهما قديمة. قلتُ:

- وترفضين القبول بأنّ موريس وغد كبير.

احتجّت:

- لا. موريس ليس وغداً! هو رجل عالق بين امرأتين: كلتاهما ليست هي ما يلزم في هذه الحالة.

- ما كان يجب أن يضع نفسه في وضع مماثل.

- يحصل هذا حتّى لأشخاص جيّدين جدّاً.

كانت متساهلة مع موريس لأنّها قبلت أشياء كثيرة من شارل. لكن القصّة بينهما مختلفة تماماً.

- لا أصدّق أنّ موريس شخصٌ جيّد، قلتُ. اكتشفتُ فيه سفالة. لقد جرحتُ غروره ولم أنبهر بنجاحاته.

- هنا، أنتِ مخطئة، قالت بنوعٍ من القسوة. إن كان الرّجل يعشق التحدّث عن عمله فهذا ليس غروراً. بدا لي غريباً دائماً أنّك لا تهتمّين بعمل موريس.

- ليس لديّ ما أقوله له.
- لا. لكن مؤكّد أنّه أراد إطلاعك على متاعبه واكتشافاته.
ساورني شكّ:
- هل رأيتِه؟ هل احتال عليكِ؟
- أنتِ تحلمين!
- يحيّرني أن تكوني في صفّه. إن كان طيّباً فهذا يعني أنّي أنا السيّئة.
- لا؛ قد يختلف اثنان دون أن يكون أحدهما مخطئاً.

فيما مضى كانت تحدّثني بنبرة أخرى. ما الكلمة التي على رؤوس ألسنتهم ولا يريدون أن يتفوّهوا بها أمامي؟

عدتُ مُحبَطة. يا له من سقوط! كان يمضي كلّ وقته مع نُويلي تقريباً. وخلال الوقت الشّحيح الذي يقضيه معي كان يتجنّب مواجهتي على انفراد: كان يصحبني إلى المسرح أو إلى المطاعم. معه حقّ؛ كان ذلك أقلّ عناءً من أن نجد أنفسنا في البيت.

كوليت وجون بيير طيّبان حقّاً. يهتمّان بي كثيراً. أخذاني معهما للعشاء في حانة صغيرة في سان-جرمان-دي-بري حيثُ يضعون أسطوانات جميلة؛ عزفوا لحن «بلوز» سمعتُه كثيراً مع موريس وخلصتُ إلى أنّ ماضِيّ بأسره وحياتي بأسرها ستُنتَزَعُ منّي، والتي كنتُ قد خسرتُها. فجأة أُغمِيَ عليَّ بعد صرخة صغيرة ندّت عنّي. سرعان ما أفقت. لكنّ كوليت خافت كثيراً. وغضبت:

- لا أريدُك أن تغتاظي إلى هذه الدّرجة. بحسب الطّريقة التي يتعامل بها أبي معك، عليكِ أن تسقِطيه من حياتك. ليذهب للعيش مع هذه المرأة، ستكونين بسلام.

لم تقدّم لي هذه النّصيحة قبل شهر.

لو كنتُ جميلة وسعيدة لأرسلتُ موريس إلى المرأة الأخرى. لكنّ حظّي الوحيد يكمن في أن تفقد نُويلي أعصابها وتتخاصم معه وتظهر

على حقيقتها أمامه. عندها سيكتشف موريس طيبتي. ثمّ، حتّى لو أنّ وجوده هنا بات شحيحاً فإنّ هذا هو بيته في نهاية الأمر. لا أعيش في صحراء. ضعف، وجُبن؛ لكن ليس لديّ أسباب تجعلني أسيء معاملة نفسي، سأحاول التّعايش.

نظرتُ إلى تمثالي المصري: التصقت أجزاؤه جيّداً. اقتنيناه معاً. كان مفعماً بالرقّة، وسماويّ اللّون. ها هو هنا، عارٍ، ومثير للشّفقة. أخذته بين ذراعيَّ وبكيتُ. لا يمكنني وضع العقد الذي أهداني إيّاه موريس بمناسبة عيد ميلادي الأربعين. كلّ الأغراض والأثاث من حولي فسدت جرّاء الحامض. لم يبقَ سوى هيكل مؤسف.

31 جانفييه.

فقدتُ توازني. أنا أسقط إلى الأسفل فالأسفل. موريس رقيق، ونزيه. لكنّه لا يعرف كيف يخفي سعادته بنُويلي.

لم يكن ليقول بالأمس: «هل أحببتُها حقّاً؟»، كنتُ أتناول العشاء مع إيزابيل حين انهرتُ باكية على كتفها. لحسن الحظّ أنّه كان باراً مُظلماً. قالت إنّي أبالغ في أخذ المهدّئات والمنبّهات، وبأنّي أدمّر نفسي. (صحيح، أنا أدمّر نفسي. نزفتُ هذا الصّباح قبل خمسة عشر يوماً من موعدي). نصحتني ماري لوبير بزيارة طبيب نفسيّ: ليس لعلاج نفسيّ، بل لإنقاذ نفسي. لكن ما الذي يقدر على فعله حيالي؟

2 فيفرييه.

كانت لديّ شخصيّة قويّة فيما مضى، كنتُ سأطرد ديانا؛ لكنّي لم أعد سوى رقم. كيف خالطتُها؟ إنّها تُسلّيني في هذه الفترة ولا عواقب لذلك.

– أوه! كم صرتِ نحيفة! كم تبدين متعبة!

جاءت بدافع فضول، وبدافع شرّ، أحسستُ بذلك فوراً. كان يجب ألّا أستقبلها. راحت تُثرثر، لم أكن أستمع إليها. فجأة هاجمتني:

- الحال التي أنتِ عليها تُثير شفقتي. تحرّكي. غيّري أفكاركِ؛ سافري مثلاً. وإلّا فإنّك مُهدّدة بانهيار عصبيّ.

- أنا بخير.

- هيّا! هيّا! أنتِ تراوغين دمكِ. صدّقيني، سيأتي وقت سيكون فيه من الأفضل أن ترمي كلّ شيء وراء ظهرك.

تظاهرت بالتردّد:

- لا أحد سيجرؤ على قول الحقيقة؛ أرى أنّنا نؤذي من نحبّ لشدّة الاهتمام بهم. يجب أن تقتنعي بأنّ موريس يحبّ نُويلي: الأمر جادّ.

- نُويلي! من قال لك هذا؟

- ليست نُويلي فحسب. أصدقاء يرونها باستمرار في كورشوفيل، أكّدوا ذلك أيضاً. يبدو واضحاً أنّهما قرّرا العيش معاً.

حاولتُ رسم سحنة عدم اكتراث:

- موريس يكذب على نُويلي مثلما يكذب عليَّ.

رمقتني ديانا بنظرة رثاء.

- على كلّ، لقد حذّرتُك. نُويلي ليست من نوع البنات اللّاتي ينسقن بسهولة نحو المجهول. إذا لم يقدّم لها موريس ما تريد فستتخلّى عنه. وهو يعلم ذلك طبعاً. سيكون أمراً غريباً لو لم يتصرّف على هذا الأساس.

رحلت بسرعة. أسمعها من مكاني. «المسكينة مونيك! يا لها من سحنة! إنّها واهمة». العاهرة. أعرف أنّه يحبّ نُويلي، لم يكن ليعذّبني من أجل لا شيء.

3 فيفريه.

لا يجدر أن أطرح الأسئلة. وضعتُ له الطعم وسرعان ما ابتلعه. سألتُ موريس:

- هل صحيح ما ترويه نُويلي من أنّك قرّرتَ العيش معها؟

تردّد.

- لم أخبرها بما أرغب فيه فعلاً، إنّه يهمّك أنتِ ـــ وهو العيش وحيداً بعض الوقت. هناك توتّر بيننا سيزول إن نحن توقّفنا - أوه! لبعض الوقت فحسب ـــ ـ عن العيش معاً.

- تريد أن ترحل عنّي؟

- لا. سنرى بعضنا من وقت إلى آخر.

- لا أريد!

صرختُ وأخذني من كتفي.

- كفى! كفى! قال برقّة. هي مجرّد فكرة في الهواء، إن لم تعجبك فسأصرف عنها النّظر.

نُويلي تريد منه أن يهجرني، إنّها مصرّة، لا بدّ أنّها تختلق له المشاكل: أنا متأكّدة. هي من يدفعه إلى ذلك. لن أستسلم.

6 فيفريه، ثمّ دون تاريخ.

يا لها من شجاعة لا طائل من ورائها، عن أشياء بسيطة، عندما يفقد المرء طعم الحياة! في المساء أجهّز إبريق الشّاي، والفنجان، والآنية، وأترتّب الأغراض في أماكنها كي تستمرّ الحياة صباحاً، دون عناء. مع أنني أتعب جدّاً يجب مغادرة الفراش والاستيقاظ خلال اليوم. دعوتُ المعينة بعد الظّهر لأتمكّن من البقاء في السّرير ما شئتُ من الوقت. يحدث فقط أن أنهض عندما يعود موريس عند الواحدة للغداء. أو عندما تدير السيّدة دورموي المفتاح في القفل. كان موريس يقطّب حاجبيه لدى رؤيتي في ثوب النّوم، بشعر مُشوّش. يعتقد أنّي ألعب أمامه كوميديا اليأس. أو على الأقلّ لا أقوم بمجهود خاصّ كي «أعيش الوضع» بشكل لائق. هو أيضاً قال:

- يجب أن تعرضي نفسكِ على طبيب نفسيّ.

تواصل نزيفي. أحقّاً ستضيع منّي حياتي دون يكون لديّ ما أفعله لأمنع ذلك!

لا بدّ أنّ هناك حقيقة ما. يجب أن آخذ الطّائرة إلى نيويورك لأسأل لوسيان عن الحقيقة. هي لا تحبّني: ستقول لي الحقيقة. سأتخلّص، إذن، من كلّ الشّرور، ومن كلّ ما يزعجني، سأضع النّقاط على الحروف مع موريس.

بالأمس، عندما عاد موريس، كنتُ جالسة في غرفة المعيشة في الظّلام، كنتُ أرتدي ثوب المنزل. كان يومَ أحدٍ، استيقظتُ بعد الظّهيرة؛ أكلتُ الجمبون واحتسيتُ الكونياك. ثمّ جلستُ أتابع دوّامة من الأفكار في رأسي. أخذتُ مهدّئات قبل مجيئه، وعدتُ للجلوس على الكنبة، دون أن يخطر لي إضاءة النّور.

مكتبة
t.me/t_pdf

- ماذا تفعلين. لمَ لا تضيئين الغرفة؟

- لماذا؟

عاتبني بلطف، لكن بخلفيّة غضب. لماذا لا أرى أصدقائي؟ لماذا لا أذهب إلى السّينما؟ أشار عليَّ بخمسة أفلام لا بدّ من مشاهدتها. مستحيل. في فترة مضت كنتُ قادرة على الذّهاب إلى المسرح والسّينما بمفردي. كان حضوره يغمرني ويملأ ما حولي. الآن حين أكون وحيدة، أقول في نفسي: «أنا وحدي». وأنا خائفة.

- لا يمكنك أن تستمرّي في هذا، قال لي.

- أستمرّ في ماذا؟

- في عدم الأكل، وفي عدم ارتداء ملابس الخروج، وفي دفن نفسك في البيت.

- لمَ لا؟

- لأنّك قد تصبحين مريضة. أو مجنونة. ليس في وسعي مساعدتك لأنّي الطرف المعنيّ في الحكاية. لكن أرجوك حاولي رؤية طبيب نفسيّ.

قلتُ لا. أصرّ، أصرّ. أخيراً، نفد صبره.

- كيف ترين المخرج؟ أنتِ لا تبذلين أيّ جهد.

- أن أخرج من ماذا؟

– من هذا الكساد. كأنّكِ تتعمّدين الغرق.

أغلق على نفسه في مكتبه. يعتقد أنّي أساومه على التّعاسة، كي أرعبه لأتجنّب هجرانه لي. ربّما هو محقّ. هل أعرف من أنا؟ ربّما أنا علقة تعيش على حياة الآخرين: حياة موريس، وبناتنا، وكلّ هؤلاء المساكين «الكلاب المُبلّلة» الذين أزعم مساعدتهم. أنانيّة تأبى الاستسلام؛ وأشرب، وأتدهور، وأجعل من نفسي مريضة كي أحرّك عاطفته تجاهي. أنا مُزوّرة بالكامل، ومتعفّنة حتّى العظم، وممثّلة، ومُجرّد شخص يستغلّ عاطفة الآخرين. يجب أن أسمح له بالعيش مع نُويلي، أن يكون سعيداً دوني. لن أقدر على ذلك.

ذات ليلة في الحلم، رأيتُ نفسي في فستان أزرق سماويّ وكانت السّماء زرقاء.

تلك الابتسامات والنّظرات والكلمات، لا يُعقَل أن تتلاشى ببساطة. إنّها تطفو في البيت. أسمع الكلمات أحياناً. صوتٌ يقول بوضوح: «صغيرتي، عزيزتي، حبيبي...» النّظرات والابتسامات المُحلّقة، يجب أن أمسك بها. أن أضعها على وجه موريس في غفلة منه، وسيعود كلّ شيء كما كان.

تواصل نزيفي. أنا خائفة.

«حين نكون في الأسفل، لا نعود قادرين على شيء سوى الصّعود»، قالت ماري لومبير. يا للسّخف! يمكننا دائماً أن نسفل أكثر فأكثر فأكثر. السّفالة لا قرار لها. قالت ذلك لتتخلّص منّي. ضاقت بي ذرعاً. نحن نهتمّ بالتّراجيديّات بعض الوقت، يتملّكنا الفضول في شأنها، ثمّ نشعر بأنّنا بخير. ثمّ إنّ المسائل تتكرّر، تتعثّر، وتصبح، أخيراً، غشاوة؛ والغشاوة تتمكّن منّي. إيزابيل، وديانا، وكوليت، وماري لومبير، تلقّين صفعتهن؛ وموريس...

فقد رجلٌ ظلّه. لا أدري ماذا حصل له، كان ذلك مُريعاً. أنا فقدتُ صورتي. لم أكن أراها بانتظام؛ لكن في الخلفيّة، كانت هنا، كما رسمها

لي موريس. امرأة مباشِرة، وحقيقيّة، «أصليّة»، ودون ذلّ أو تنازل لكنّها متفهّمة، ومتسامحة، وحسّاسة، وعميقة، وحريصة على القيام بالأشياء ومُصغية جيّدة للنّاس، ومتفانية في خدمة من تحبّ مانحة إيّاهم السّعادة. حياة جميلة، وهادئة وحافلة، و«متناغمة».

السّواد يلفّ المكان، لا أرى شيئاً. ماذا يرى الآخرون؟ ربّما أشياء بشعة.

هناك مؤامرة تُحاكُ من وراء ظهري. بين كوليت ووالدها، إيزابيل وماري لومبير، إيزابيل وموريس.

20 فيفريه.

استسلمتُ أخيراً. كنتُ مرعوبة من دمي الذي يغادرني. خائفة من الصّمت. أصبح من عادتي الاتصال بإيزابيل ثلاث مرّات في اليوم، وكوليت في منتصف اللّيل. أدفع المال الآن كي أُسمَع، كم هذا مُضحك.

أصرّ عليَّ كي آخذ معي دفتري. أفهم نيّته: إنّه يحاول منحي قيمة، ويساعدني على إضفاء هويّة على شخصيّتي. لكن بالنّسبة إليَّ لا شيء له قيمة عدا موريس. أنا من هي؟ لم أهتمّ يوماً بنفسي. كنتُ في أمان لأنّه يحبّني. لو توقّف عن حبّي... التحوّل فقط هو الذي سيشقّ عليَّ: ماذا فعلتُ كي يتوقّف عن حبّي؟ ألا أستحقّ حبّه، أليس هو الوغد، ألا يستحقّ العقاب هو وشريكته؟ تناول الدكتور ماركيت الأمور من زاوية أخرى: أبي، وأمّي، وموت أبي؛ أراد أن يجعلني أتحدّث عن نفسي، أنا التي لم تتحدّث سوى عن موريس ونُويلي. سألتُه إن كان يجدني ذكيّة. نعم، أكيد، لكنّ الذّكاء ليس خصلة على حِدة؛ حين أدخل في دوّامة من الهواجس، فإنّ ذكائي لا يعود موجوداً.

كان موريس يعاملني بمزيج من اللّطف والغضب المكتوم الذي نكنّه للمرضى. كان صبوراً، صبوراً إلى درجة أنّه يدفعني إلى الصّراخ، الأمر الذي أقوم به أحياناً. أن أصبح مجنونة: وسيلة رائعة كي أعبّر عن

اعتراضي. لكنّ ماركيت أكّد لي أنّي لستُ مُهدّدة بالجنون، أنا قويّة. حتّى مع تعاطي المخدّرات والكحول، لم أبتعد كثيراً. الجنون ممرّ مغلق بالنّسبة إليَّ.

23 فيفريه.

توقّف النّزيف. وصار بإمكاني أن آكل قليلاً. فرحت السيّدة دورموي لأنّي ابتلعتُ سندويش الجبن الذي أحضرته لي. أحبّ تلك المرأة. خلال كابوسي الذي بدأتُ أخرج منه رويداً، لا أحد هرع إلى نجدتي غيرها. كلّ مساء، كنتُ أجد قميص نوم نظيف تحت وسادتي. إذن، أحياناً، بدل النّوم في كامل ملابسي فإنّي ألبس القميص الذي سيضطرّني بياضُه إلى التّفكير في القليل من النّظافة. كانت تقول لي، بعد الظّهر: «جهّزتُ لكِ حمّاماً» وآخذه فعلاً. كانت تتفنّن في إعداد أطباق لذيذة. دون تعليق أو سؤال. وكنتُ خجولة، خجولة من عدميّتي، فيما أنا غنيّة وهي لا تملك شيئاً. «تعاونا»، طلب الدّكتور ماركيت، ليتنا نفعل. أريد أن أعثر على نفسي من جديد. وقفتُ دون حراك أمام المرآة: كم أنا قبيحة! كم أنّ جسمي مُهمَل! منذ متى؟ أبدو فاتنة في الصّور قبل سنتين. في صور السّنة الماضية لستُ غير جميلة، لكنّها صور هواة. هل حزن الأشهر الخمسة الأخيرة هو الذي غيّرني؟ أم إنّي بدأتُ أتدهور منذ فترة أطول؟

كتبتُ للوسيان، قبل أسبوع. ردّت عليَّ برسالة رقيقة. قالت إنّها آسفة عمّا وصلتُ إليه. لم تطلب أكثر من التحدّث إليَّ، رغم أنّها لا تجد ما تقوله على وجه الخصوص. عرضت عليَّ زيارتها في نيويورك، يمكنها أن تتفرّغ أسبوعين كي نتحدّث، سيسلّيني ذلك كثيراً. لكنّي لا أرغب في السّفر الآن. أريد أن أقاوم من مكاني هذا.

حين أفكّر فيما كنتُ أقوله: «لن أقاوم!».

26 فيفريه.

أطعتُ الطّبيب النّفسي، قبلتُ بالعمل. أقوم بفرز مجلّات طبّية في

جناح الصّحافة الدّوريّة بال ـــ «الوطنيّة»، لصالح شخص يكتب عن تاريخ الطبّ. لا أعرف كيف يمكن لهذا أن يحلّ مشاكلي. عندما أُحيّنُ بطاقتين، لا أجد أيّ متعة في ذلك.

3 مارس.

ها نحن! أرسلوني إلى الطّبيب النّفسي، جعلوني أستعيد قواي استعداداً لتسديد الضّربة القاضية. كالأطبّاء النازيّين الذي ينعشون الضّحايا ليصبح في الإمكان تعذيبهم من جديد. صرختُ في وجهه: «نازي! جلّاد!» اتّخذ سحنة المنهَك. كان هو الضحيّة حقّاً. بلغت به الأمور إلى حدّ أنّه قال لي:

- مونيك! أشفقي عليَّ أرجوكِ!

فسّر لي من جديد أنّ العيش معاً تحت سقف واحد لن يجدي نفعاً في هذه الفترة، قال إنّه لن يعيش مع نُويلي بل سيتّخذ لنفسه شقّة ليقيم فيها بعض الوقت. لن يمنعنا ذلك من أن نرى بعضنا أو حتّى أن نقضّي معاً قسماً من العطلة. رفضتُ، وصرختُ، وشتمتُه. هذه المرّة، لم يقل إنّه سيصرف النّظر عن فكرته.

يا لها من مزحة هذا العلاج المهنيّ! هجرتُ ذلك العمل السّخيف.

فكّرتُ في أقصوصة «إدغار ألان بو»: جدران الحديد التي تقترب من بعضها، والرقّاص الذي في شكل سكّين وهو يتأرجح فوق قلبي. يتوقّف أحياناً، لكنّه لا يصعدُ أبداً. إنّه على مسافة سنتيمترات من جلدي.

5 مارس.

رويتُ للطّبيب النّفسي خصومتنا الأخيرة. قال: «إن كانت لديك الشّجاعة فمن الأفضل الابتعاد عن زوجك بعض الوقت على الأقل». هل دفع له موريس كي يقول هذا الكلام؟ نظرتُ إليه مباشرة في عينيه.

- غريب ألّا تكون قد قلتَ لي هذا من قبل.

- تمنّيتُ أن تكوني أنتِ صاحبة الفكرة.

- هي ليست فكرتي بل فكرة زوجي.

- نعم. لكنّك حدّثتني عنها.

ثمّ راح يشوّش عقلي بحكايات حول الشّخصيّة الضّائعة، ومزايا الابتعاد، والعودة إلى النّفس. أفضال كبيرة.

8 مارس.

انتهى الطّبيب النّفسي من تحطيمي معنويّاً. لم أعد أملك قوّة، لم أحاول المقاومة. كان موريس بصدد البحث عن شقّة مؤثّثة: لديه شروط كثيرة. لم أحتَجَّ هذه المرّة. مع ذلك كان حوارنا فظيعاً. قلتُ دون غضب ـــ مهزومة وفارغة بالكامل:

- كان عليكَ أن تعلمني مُسبقاً، في موجينس، مثلاً، حالما خطرت لك الفكرة، كنتُ على الأقلّ هيّأتُ نفسي لرحيلك.

- أنا لا أرحل عنكِ.

- أنتَ تلعب على الكلمات.

- ثمّ إنّي لم أقرّر شيئاً.

غامت الدّنيا في عينَيَّ.

- تريد أن تقول بأنّي كنتُ في فترة تجربة وأنّي أفسدتُ على نفسي فرصة الظّفر بك؟ هذا رخيص.

- لا. أنا المعنِيّ. أحاول التّوفيق بينك وبين نُويلي. أصبحتُ مجنوناً. أنا لا أتمكّن من أداء عملي.

- نُويلي هي التي طلبت منك أن تهجرني.

- وضع نُويلي ليس أفضل منك.

لو أنّي تحمّلتُ، هل كنتَ ستبقى معي؟

- لكنّك لم تنجحي في ذلك. حتّى صمتُكِ ولطفُك يعصفان بي.

- تهجرني لأنّك تعاني من مقدار الشّفقة التي أثيرها في وجدانك؟
- أوه! أرجوكِ. افهميني! قال بصوتٍ متضرّع.
- أفهم، قلتُ.

ربّما لم يكن يكذب. لعلّه لم يقرّر هذا الصّيف؛ مع برد الشّتاء، ربّما كان سيبدو له كسرُ قلبي أمراً شنيعاً للغاية. لكنّ نُويلي ضيّقت عليه الخناق. لعلّها هدّدته بالقطيعة؟ أخيراً رمى بي من الأعلى.

كرّرتُ:

- أفهم. نُويلي تساومك. إمّا أن تهجرني أو أن تطردك من حياتها. حسناً! إنّها أقبح ما رأيتُ. كان في وسعها القبول بأن أحافظ على مكان صغير في حياتك.
- لكنّ مكانك محفوظ.

تردّد: هل سينفي أم سيعترف بأنّه استسلم لنُويلي؟ استفززتُه:

- لم أكن أتخيّل أبداً أن ترضخ إلى مساومة.
- ليس ثمّة مساومة. أنا في حاجة إلى القليل من العزلة والصّمت، أنا في حاجة إلى مكان لي وحدي: سترين كيف أنّ الأمور ستتحسّن بيننا.

اختار الاحتمال الذي بدا له أقلّ إيذاءً لي. هل صحيح ما قاله؟ لن أعرف أبداً. كلّ ما أعرفه في المقابل، هو أنّه خلال سنة أو سنتين، عندما أكون قد اعتدتُ على غيابه سينتقل للعيش مع نُويلي. حينها، ماذا سيكون مصيري؟ أين سأكون؟ في القبر؟ في المنفى؟ لا فرق. لا فرق عندي...

أصرَّ ـــ وكوليت وإيزابيل، لقد اتّفقوا على ذلك معاً، وربّما أشاروا على لوسيان بأن توجّه لي دعوة ـــ كي أقضّي أسبوعين في نيويورك. سيكون أسهل عليَّ أن ينتقل للعيش بعيداً عنّي في غيابي، فسّروا لي. ما سيحدث هو أنّي سأصاب بنوبة عصبيّة وأنا أراه يفرغ دولاب ملابسه في حقيبة. حسناً، استسلمتُ مجدّداً. ربّما ساعدتني لوسيان على فهم ما يجري، وإن كان لا معنى لذلك الآن.

15 مارس. نيويورك.

لم أستطع منع نفسي من انتظار تلغرام أو مكالمة من موريس الذي سيقول لي: «لقد قطعتُ مع نُويلي» أو ببساطة: «لقد غيّرتُ رأيي. سنظلّ معاً». وطبعاً لم يأتِ.

هل حقّاً ستسعدني رؤية تلك المدينة، أنا التي أصبحت عمياء؟

صحبني موريس وكوليت إلى المطار، كنتُ طافحة بالمهدّئات؛ ستكون لوسيان في استقبالي: أمتعة تُنقَلُ، ومريضة، ومقيمة. نمتُ، لم أفكّر في شيء ونزلنا في الضّباب. كم أصبحت لوسيان أنيقة! لم تعد فتاة صغيرة: امرأة واثقة من نفسها. (كانت تكره الكبار. عندما أقول لها: «اعترفي أنّي على حقّ».) أقلّتني بالسيّارة إلى بيت جميل أعارته إيّاها صديقتها مدّة أسبوعين، في الشّارع الـ50. وأنا أفرغ حقائبي كنتُ أفكّر: «سأجبرها على أن تشرح لي كلّ شيء. سأعرف تهمتي. سيكون هذا أهون من الجهل». قالت لي:

– النّحافة تليق بكِ.

– هل كنتُ بدينة إلى هذا الحدّ؟

– قليلاً. أنتِ الآن أفضل.

جعلني صوتها الهادئ أشعر بالخجل. في المساء حاولتُ التحدّث معها. (احتسينا الويسكي في حانة صاخبة وحارّة بشكل مُريع).

– كنتِ شاهدة على حياتنا، قلتُ لها. بل وكنتُ ناقدة لاذعة فيما يخصّني. لا تخافي من أن تجرحي شعوري. حاولي أن تشرحي لي لماذا توقّف والدك عن حُبّي.

ابتسمت، مع قليل من الرّثاء:

– لكن، أمّي، بعد خمس عشرة سنة من الزّواج من الطّبيعي أن يتوقّف الرّجل عن حبّ زوجته. العكس هو الغريب!

– هناك أناس يحبّون بعضهم بعضاً مدى الحياة.

- يتظاهرون بذلك.

- اسمعي، لا تجمعيني مع الآخرين بعموميّات. هذا عادي وطبيعيّ: لكنّه لا يُسكّن الرّوح. لا بدّ أنّي أخطأت. ما هي أخطائي؟

- خطؤكِ الوحيد هو اعتقادك أنّ قصص الحبّ تدوم. أنا فهمتُ؛ حالما أتعلّق بأحدهم، أرتبط بآخر.

- لن تُحبّي أبداً!

- لا، طبعاً. أنتِ تعرفين أين يؤدّي الحبّ.

- لماذا نعيش إن لم نُحبّ أحداً!

لم أتمنَّ عدم الوقوع في حبّ موريس، لا ألّا أحبّه اليوم: أريده أن يحبّني.

ألححتُ خلال الأيّام التالية:

- لكن، انظري إلى إيزابيل، وإلى ديانا وعائلة كوتوريي: هناك زواج يدوم.

- إنّها مسألة إحصائيّات. عندما تراهنين على الحبّ الزّوجي فإنّ حظوظك ستكون وافرة كي تُطرَدي فارغة الوفاض. خانتكِ ظنونكِ؛ لستِ الوحيدة.

- لم أقطع المحيط كي تقولي لي أشياء بدهيّة.

- بداهة لم تخطر لكِ على بال وتأبين تصديقها ليست بالأمر الهيّن.

- الإحصائيّات لا تثبت ما يحدث معي!

هزّت كتفيها، وغيّرت الموضوع، وأخذتني إلى المسرح، وإلى السّينما، وتجوّلت بي في المدينة. لكنّي احتقنتُ:

- هل تعتقدين أنّي لم أفهم والدك، وأنّي لم أكن في المستوى المطلوب؟

- في الخامسة عشرة، نعم، ككلّ الفتيات المُغرمات بآبائهنّ.

- بماذا كنتِ تفكّرين؟

- بأنّك لستِ مُعجَبَة به كثيراً: بالنّسبة إليَّ كان رجلاً خارقاً.

- كنتُ مخطئة لأنّي لم أهتمّ كما ينبغي بإنجازاته. هل تظنّين أنّ ذلك حزّ في نفسه؟

- بسبب هذا؟

- هذا أو أيّ شيء آخر.

- لا أرى ذلك.

- هل كنّا نتخاصم كثيراً؟

- لا. ليس أمامي.

- في الـ 55؛ كوليت تتذكّر...

- لأنّها كانت دائماً في أحضانك. إضافة إلى أنّها أكبر منّي.

- إذن، لماذا هجرني والدك حسب رأيك؟

- عادة في مثل سنّ أبي الحاليّة، ينزع الرّجال إلى بدء حياة جديدة. فعلاً، لم أنتزع شيئاً من لوسيان. هل ترى أنّي سيّئة إلى درجة يصعب معها مصارحتي؟

16 مارس.

- ترفضين الحديث عنّي: هل أنا سيّئة إلى هذا الحدّ؟

- كيف خطر لكِ ذلك!

- أنا مزعجة، صحيح. لكنّي أرغب في أن أعرف حقيقة ماضيَّ.

- ما يهمّ هو المستقبل. تعرّفي على رجال. أو جِدي لنفسك عملاً.

- لا. أنا في حاجة إلى أبيكِ.

- ربّما سيعود إليكِ.

- أنتِ تعرفين جيّداً أنّه لن يعود.

كرّرنا هذا الحوار عشر مرّات. هي أيضاً سئمت، وأنا أغضبها حقّاً. ربّما لو دفعتُ المسائل أبعد معها، لانفجرت بالحقيقة. لكنّ صبرها مُحبِط. لعلّه كتب لها شارحاً وضعي وطلب منها أن تتحمّلني.

إلهي! كم أنّ الحياة عذبة وصافية وناعمة حين يكون كلّ شيء على ما يُرام. تكفي مشاحنة واحدة كي يفسد كلّ شيء. سنكتشف أنّها مظلمة وأنّنا لا نعرف شيئاً عن أحد، ولا عن أنفسنا ولا عن الآخرين: ما هم عليه، وبماذا يفكّرون، وماذا يفعلون، وكيف يرونَك.

سألتها كيف ترى والدها.

- أوه! أنا لا أحكم على أحد.

- ألا ترين أنّه تصرّف كوغد؟

- صراحة، لا. مؤكّد أنّ لديك أوهاماً فيما يخصّ هذه المرأة. هذا سخيف. لكنّه ليس وغداً.

- أتعتقدين أنّه يملك الحقّ في أن يضحّي بي؟

- دون ريب، سيكون الأمر شاقّاً عليكِ، لكن لِمَ يجب أن يضحّي بنفسه؟ أنا مثلاً لا أضحّي بنفسي من أجل أحد.

قالت ذلك بنوع من الاقتراح. هل هي قاسية كما تريد أن تظهر؟ أتساءل. تبدو غير واثقة من نفسها خلاف ما اعتقدتُ بادئ الأمر. بالأمس، سألتها عن نفسها.

- اسمعي، أريدك أن تكون نزيهة معي، أحتاج إلى ذلك ـــــ كذب عليَّ والدك كثيراً. هل هاجرتِ إلى أمريكا بسببي؟

- يا لها من فكرة!

- والدك مقتنع بذلك. وهو يلومني بقسوة لأنّي كنتُ السّبب في هجرتك. أعرف أنّي كنتُ ثقيلة عليكِ.

- لنقل إنّي لم أكن بارعة كثيراً في العيش وسط عائلة.

- بل رحلتِ لأنّك لم تتحمّلي وجودي. هاجرتِ كي تتحرّري منّي.

- لا تبالغي؛ لم تكوني تزعجينني في شيء. لا: أردتُ فقط أن أعرف إن كان في وسعي الطّيران بأجنحتي الخاصّة.

- ها قد عرفتِ.

- نعم، عرفتُ أنّي قادرة.
- أنتِ سعيدة لذلك؟
- هذه واحدة من كلماتك. التي لا معنى لها عندي.
- لستِ سعيدة إذن.
قالت بنبرة حادّة:
- حياتي تلائمني بشكل مثاليّ.

عمل، ونزهة، ولقاءات قصيرة: يبدو لي هذا الوجود جافّاً. كانت مليئة بالمفاجآت ونفاد الصّبر ـــ ليس معي فقط ـــ ما يدلّ على أنّها تخفي هموماً. هذا أيضاً خطئي، رفضُها للحبّ: عاطفيّتي أثارت اشمئزازها لذلك لم تشأ أن تشبهني. هناك شيء ما قاسٍ، شيء يشبه الجحود، في طريقتي. قدّمت لي بعض أصدقائها وصدمتني طريقة تعاملها معهم: سطحيّة، ونائية وحاسمة؛ كان ضحكها خالياً من المرح.

20 مارس.

لوسيان ليست على ما يُرام. في داخلها، أتردّد في كتابة الكلمة، ترعبني، لكنّها الكلمة المناسبة الوحيدة: الشرّ. ناقدة، وساخرة، وجريئة، عرفتُها هكذا دائماً؛ لكنّها شراسة أن تُمزّق أصدقاءها بذلك الشّكل. إنّها تجد متعة في أن تقول لهم حقائق سيّئة. في الواقع هي علاقات بسيطة. اجتهدت كي تجعلني ألتقي أناساً لكنّها في الحقيقة تعيش بمفردها. الشرّ: إنّه وسيلة دفاع. لكن ضدّ ماذا؟ على أيّ حال، لم تكن الفتاة المتألّقة المتوازنة التي أتخيّلها من باريس. هل أخفقتُ في تربيتهما؟ لا، أوه! لا.
سألتُها:
- هل تعتقدين مثل والدك أنّ كوليت تزوّجت زواجاً غبيّاً؟
- لقد تزوّجت بالطّريقة التي تُرضيها. لم تكن تحلم سوى بالحبّ، قاتل أن تتزوّج أوّل شخص عرفته.
- إنّها غلطتي، أليس كذلك؟

ضحكت، ضحكتها تلك الخالية من الغبطة:

- كان دائماً لديك نزعة للمبالغة في مسؤوليّاتك.

تردّدتُ. حسب رأيها ما يعني في طفولة ما، هو الجانب النّفسيّ، كما هو إزاء الوالديْن، رغماً عنهما. أمّا التّعليم، في جانبها الواعي والمتحرّر، فهي مرحلة ثانويّة. مسؤوليّتي تكاد تكون منعدمة. يا لها من مواساة! لا أعتقد أنّي في وضع من يتوجّب عليه تقديم مبرّرات: بناتي هنّ كبريائي.

سألتُها أيضاً:

- كيف ترَيْنني؟

رمقتني بذهول.

- أعني: بماذا تصفينني؟

- أنتِ فرنسيّة جدّاً، ناعمة كما يُقال هنا. ومثاليّة أيضاً. ومناعتك ضعيفة، هذا هو عيبُكِ.

- الوحيد؟

- نعم. ما عدا ذلك أنتِ مرحة وجذّابة وحيويّة.

كان وصفها ضبابيّاً. كرّرتُ:

- مرحة وجذّابة وحيويّة...

بدت منزعجة:

- كيف ترين أنتِ نفسَكِ؟

- كمُستنقع.

- ستستعيدين نفسَكِ.

لا. وربّما هذا هو الأنكى. أعرف الآن حجم احترامي لنفسي. لكنّ جميع الكلمات التي حاولتُ استخدامها لتفسيره كان موريس يغتالها؛ كان أيضاً يهدم كلّ صرح أبنيه للآخرين. لم أفكّر يوماً في أن أسبقه إلى شيء. وأتساءل الآن: باسم ماذا قد نفضّل حياة العزلة على الحياة

مكتبة
t.me/t_pdf

الرّاقية، والتأمّل على التّفاهة والإخلاص على الطّموح؟ لم يكن أمامي سوى نشر السّعادة من حولي. لم أحوّل موريس إلى رجل سعيد. وبناتي أيضاً. إذن؟ لم أعد أعرف شيئاً. ليس فقط من أنا، بل كيف يجب أن أكون. اختلط الأسود والأبيض، العالم رواسب وليس لديّ حدود. كيف سأعيش دون الإيمان بأيّ شيء ولا حتّى بنفسي؟

صُدمت لوسيان كيف أنّ نيويورك أعجبتني قليلاً فقط. فيما مضى لم أكن أخرج من قوقعتي، وحين أفعل فإنّي أنبهر بكلّ شيء: المناظر، والنّاس، والمتاحف، والشّوارع. الآن صرتُ ميّتة. كم بقي للميّتة من سنة لتعيشها؟ عندما أفتح عينَيَّ صباحاً، يبدو لي من الصّعب إنهاء اليوم. بالأمس، في الحمّام، مجرّد رفع ذراعي سبّب لي الألم: لمَ قد أرفع ذراعي، لمَ قد أضع ساقاً أمام الأخرى؟ عندما أكون وحيدة، فإنّي أمكث دقائق على حافّة الرّصيف مشلولة بالكامل.

23 مارس.

سأغادر غداً. اللّيل سميك من حولي. أرسلتُ برقيّة أطلب فيها عدم مجيء موريس إلى أورلي Orly. لم تكن لي الشّجاعة الكافية لرؤيته. سيكون قد غادر. سيأتي وسيغادر.

24 مارس.

وصلتُ. كانت كوليت وجون بيير في انتظاري. تناولتُ العشاء في بيتهما. رافقاني إلى هنا. كانت النّافذة سوداء؛ ستظلّ كذلك. صعدنا السُّلّم، وضعنا الحقائب في غرفة المعيشة. لم أشأ أن تقضي كوليت اللّيلة معي: يجب أن أعتاد. جلستُ أمام الطّاولة. أنا الآن جالسة إليها. ورحتُ أحدّق في البابَيْنِ: باب مكتب موريس وباب غرفتنا. مغلقان. بابٌ مغلق، شيء ما ينتظر خلفه. لن يُفتَح إذا لم أتحرّك. ألّا أتحرّك؛ أبداً. أن أوقف الزّمن والحياة.

لكنّي أعرف يقيناً أنّي سأتحرّك. سيُفتَح الباب وسأرى ماذا وراءه. إنّه

المُستقبل. سيُفتَح بابُ المستقبل. ببطء. برباطة جأش. أنا على الحافّة. لم يكن هناك غير هذا الباب وما ينتظرني خلفه. أنا خائفة. ولا يمكنني الاستغاثة بأحد لنجدتي.

أنا خائفة.

مكتبة
t.me/t_pdf

المحتويات

سِنُّ التعقُّل 9
مونولوج 77
المرأة المُحَطّمة 105

telegram @t_pdf

«المرأة المُحطّمة»، ثلاثيّة روائيّة قصيرة مثّلت علامة فارقة في عالم سيمون دو بوفوار الإبداعيّ، حيثُ قطعت بها مع كتابة السّيرة للمرّة الأولى، لتدخل عالم المُتخيّل، عالم الآخرين من وجهة نظر مُحايدة.

ولئن بدا أنّ الكاتبة قد فسحت المجال لثلاثة نماذج من النّساء للتّعبير عن أنفسهنّ بحرّية وحياد كما أسلفنا، فإنّها في الواقع قد منحتهنّ قلمها وهمومها لتُبدي من خلالهنّ رأيها في الوجود وفي أعداء المرأة الثّلاثة: المُجتمع والأخرى والسنّ.

جراحة دقيقة نجحت فيها سيمون دو بوفوار بأسلوبها السّلس والسّهل والعميق، وبفلسفتها الملموسة المُتاحة للجميع. هي روايات قصيرة لكنّها قاسية ومؤثّرة للغاية، حاولت فيها المرأة وبكت وتوعّدت وتمزّقت وخارت قواها وقاومت وانهارت في الأخير، لكن لا تهرب أيّها الرّجل، هذه ليس كتابة نسويّة مبتذلة حيثُ المرأة تصرخ في سعار غير مفهوم مطالبة بالألوهيّة على الأرض، نحنُ إزاء واحدة من أعظم وجوه الثّقافة الفرنسيّة، التي لم تكتسب لقبها محاباة أو مجاملة، بل لأنّها كشفت للمجتمع وللمرأة على وجه الخصوص عيوبها وجانبها من المسؤوليّة في فشلها أو عجزها أو تشييئها. لقد تحدّثت عن العلاقة الزوجيّة، ما يعني أنّ الرّجل سيجد نفسه أيضاً في هذه الرّوايات، سيرى نفسه بعيون نسائيّة، سيكتشف أنّه رجلٌ لأنّ المرأة في الوجود، فكأنّ نجاحه ورغباته وثراءه وقوّته ميّتة بلا روح لولا المرأة. فهي التي إن شاءت كانت السّائل الذي يتّخذ شكل الإناء أو الخزّاف الذي يحدّد للإناء شكله. ألم تقل دو بوفوار في إحدى المناسبات عبارتها الشّهيرة: «نحنُ لا نولد نساءً، نحن نصبح كذلك»، ما يعني أنّ كلمة امرأة ليست مجرّد تمييز جنسي سطحيّ، بل صفة إنسانيّة واستحقاقاً وإنجازاً، قد ينجح وقد يفشل كأيّ إنجاز آخر. كاتبة بهذا الوزن والوعي بالطّريقة المثلى لتوعية النّساء، لن تسقط في المرافعة والدّفاع عن حقوق المرأة من خلال التحدّث نيابة عنها، بل بنقدها وجعلها تكتشف أخطاءها وحتّها بسحر المحاكاة القصصيّة على مراجعة طريقتها في التّفكير. وشخصيّاً لا أرى أبلغ للفكرة من أن تجعل فتنك المُستهدفة ترى نفسها وهي تضطرب على مسرح الحياة.

ISBN 978-9933-6171-8-9